



قَضَايَا تَفسيريَّة تحـتَّ الضَّـوء

دكتور/ نصـر فحجـان

الطبعة الأولى

1442 هــ - 2021 م

قَضَايَا تَفسِيريَّة

تحتَ الضَّــوء

الدكتور: نصر فحجان

الطبعة الأوَّلى

1442هـ - 2021م

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة – الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

فحجان، نصر خليل ابراهيم

قضايا تفسيرية تحت الضوء/ نصر خليل ابراهيم فحجان – غزة : مطبعة دار الأرقم، 2021م.

(500) ص، 17*24

رقم الإيداع: 2021/1480

الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

بوزارة الثقافة الفلسطينية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾

{النساء: 82}.

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوجًا، ودعانا إلى تدبّره وإعمال عقولنا فيه، فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ {ص: 29}، والصلاة والسلام على النبيّ الأميّ الذي علَّمه الله القرآن، فَوَعَاه وذَكَّر به، وأمر بتبليغه، فقال: (بلّغوا عني ولو آية ...).[1]

أما بعد:

فهذه بعض تدبُّرات وتأمُّلات في آياتٍ من القرآن الكريم أرى أنّ الوقوف على مُراد الله تعالى فيها لا يزال يحتاج إلى المزيد من التدبُّر والنظر والتأمُّل، فما مِن مَرَّة نتلو فيها القرآن إلا وكان لنا فيها علمٌ جديدٌ، وإيمانٌ يزيد، فهو كلام الله تعالى الزاخر بالدلالات والإشارات والأسرار، والله تعالى يهدي بعضَ عباده إلى بعضها في كلِّ عصر من العصور، ولا يزعم أحدٌ من الناس مهما بلغ من القوة والعلم بأنَّه أحاط بالقرآن الكريم ومعانيه، ولن يجرؤ أحدٌ على القول بأنّ باب التدبُّر قد أُغلِق، ما

---

(1) صحيح البخاري 4361

دام أمر الله للناس بالتدبُّر قائمًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ {النساء: 82}.

وقد وقفتُ في هذه التأمُّلات عند آيات مختارة من القرآن الكريم، واطّلعتُ على ما قاله المفسرون الأوائل والمُحْدَثُون فيها ما استطعت، وعرفت وجوه الاتفاق والاختلاف بينهم، فما كان صحيحًا يؤيِّده الدليل أخذتُ به، وما كان يحتاج إلى مزيدِ بحثٍ بذلت فيه جهدي متوكلًّا على الله تعالى.

وقد انتهجت في هذه التأمّلات منهجًا واضحًا، يعتمد على أُسُسٍ علميَّة ثابتة لا مكان فيها للهَوَى، وهي على النحو التالي:

الأساس الأوَّل: تفسير القرآن بالقرآن، والنظر إلى الكلمة القرآنية من حيث مواقع ورودها واستعمالها في كل السور القرآنية، وفهم القرآن في ضَوء القرآن، فكثير من الآيات والمفردات القرآنية تدلّ عليها آياتٌ ومفرداتٌ قرآنيةٌ أخرى، وتشرحها.

وكذلك النظر في السِّياق الذي جاءت فيه الآية، أو الكلمة القرآنية، سواءً كان سِياقَ سِباقٍ، أو سِياقَ لِحاقٍ، فلا يمكن فَهْمُ الآية أو الكلمة بمَعزلٍ عن سياقها، وقَطعُها عن الجو العام الذي وردت فيه.

الأساس الثاني: الحديث النبوي الشريف، فإنْ وَرَد في تفسير الآية نصٌّ من حديثٍ ثابتٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو مُلزِم بالأخذ به،

والبناء عليه، ولا نأخذ بالإسرائيليات، ولا بالروايات الضعيفة في تفسير كتاب الله تعالى.

الأساس الثالث: عندما لا يمكننا تفسير القرآن بالقرآن، ولم نجد نصًّا ثابتًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإنّنا نذهب إلى المدلول اللّغوي للكلمة القرآنية في وقت نزول القرآن الكريم، حيثُ صفاءُ اللغة، ونقاءُ اللسان العربيّ من كل تحريف.

الأساس الرابع: الاستئناس والاسترشاد بأقوال العلماء والمفسرين من السابقين والمعاصرين والبناء عليها، ما لم تتعارض أقوالهم مع أحد الأسس السابقة.

وقد جاءت هذه التأمُّلات في وقفات اختصَّت كلُّ وقفة منها بآية، أو مقطع، أو كلمة، فكانت كلُّ وقفة منها قضيةً تفسيرية، وموضوعًا مستقلًا بذاته، إلا ما كان في بعض الوقفات، فقد ارتبطتْ أحيانًا بما قبلها أو ما بعدها.

وقد حرصتُ في هذه التأمُّلات على عدم السَّرد، أو الحَشْو المُمِلّ، ما يُسَهِّل على القارئ مطالعتَها، والاستفادةَ منها، عسى أنْ تكونَ إضاءاتٍ تَصلُح للمُدَارَسة بين المتدبِّرين في كل مكان، وأنْ تكون إضافةً نوعيةً لمسيرة تدبُّر كتاب الله تعالى.

وقد ضَمَّنت هذه التأمُّلات بعض الوقفات والعناوين التي نشرتُها سابقًا في كتابي الأوَّل: (وعد الآخرة زوالٌ لا إبادة)، وهي وقفات كنت قد تدبَّرت فيها آياتٍ من أوائل سورة الإسراء، وقد أضفت إليها هنا بعض التعديلات والتحسينات، ما يُخرجها في صورة أفضل وأدَقّ بإذن الله تعالى.

إنّ هذه تأمُّلاتٌ وتدبُّراتٌ في آيات الله تعالى، وكلامه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي الجزء الأوَّل من كتابٍ من عدّة أجزاء، وسَيَلِيه أجزاء أخرى بإذن الله تعالى، إنْ كان في العُمر بقيّة، فإنْ أصبْتُ فمِن الله وحده، وإنْ أخطأت فمِن نفسي والشيطان، والله هو الوليّ، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

دكتور/ نصر خليل فحجان

أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية فلسطين للتمريض بغزة

عميد كلية دار الدعوة والعلوم الإنسانية بغزة سابقًا

عضو رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين

جبل عَرَفات: جنَّة آدم عليه السلام

(وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ)

منذ سنوات ليست قليلة وأنا أفكِّر في جبل (عَرَفَات)، ويوم (عَرَفَة)، وأتساءل في نفسي، وأقول:

- لماذا يقف الحجيج في كل عام بجبل عرفات رغم أنّ جبل عرفات أرضٌ خالية، وليس فيها مُقدّسات كالكعبة والمسجد الحرام، أو المسجد النبوي، أو المسجد الأقصى، أو جبل الطور والوادي المقدس طُوَى؟

- لماذا هذا المكان بالذات الذي يُفرض على كل مسلم أنْ يقف به مرة في العمر؟

- لماذا يُعتبر الوقوف بعَرَفة (عرفات) الرُّكنَ الأوَّل والأكبر في الحج؟

ولا زلت أقول في نفسي: إنّ سِرًّا عظيمًا يجعل من جبل عرفات مكانًا للوقوف به في يوم محدد في كل عام!

وأجدني أقول: إنَّ أحداثًا عظيمة قد جَرَت في هذا المكان تجعل الوقوف به ذا أهمية عظيمة من حيث الزمان والمكان، فلا يتم حَجٌ ولا مشاعر دون زيارة هذا المكان والمُكث فيه ولو ساعة من ليل أو نهار.

- فماذا عساها أنْ تكون هذه الأسرار؟

- وما الأحداث التي جرت على جبل عرفات؟

إنّ هذه التساؤلات جعلتني دائم التفكير والتدبّر للوصول إلى إجابات مقنعة شافية، من خلال البحث العميق في كتاب الله تعالى، وتدبُّر آياته الكريمة، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستنباط بعض الإشارات والدلالات التي تعين على إيجاد الإجابات العلمية الصحيحة لكل هذه التساؤلات.

وأستطيع القول: إنني ومن خلال البحث المتواصل، توصّلت إلى مجموعة من المُعطَيَات والقرائن من شأنها أنْ تساهم في الإجابة عن التساؤلات السابقة، وأنْ تلقي بالضوء على أسرار وأحداث جبل عرفات العظيمة، ما يُعِيننا على فهم وتفسير وقوف الحجيج بهذا الجبل في يوم محدد من كل عام.

إنّ هذه المُعطَيَات والقرائن والأدلّة دفعتني لافتراض فرضيّة علميّة مفادُها: (إنّ جبل عرفات هو المكان الذي أَسكَنَ الله تعالى فيه آدم وزوجه عليهما السلام في أوّل خَلْقهما، حيث قال: (وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ) {الأعراف: 19}، فهو جنة آدم عليه السلام، وهو المكان الذي عصى فيه آدم ربَّه عندما أكل وزوجه من الشجرة، فكانت النتيجة أنْ قال الله تعالى: (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) {طه: 123}.

وسأعرض فيما يلي المُبرِّرات والمُسَوِّغات التي دفعتني لافتراض هذه الفرضية، وهي على النحو التالي:

مُبرّرات ومُسَوِّغات الفرضية:

أوَّلًا: جنّة آدم عليه السلام في الأرض، وليست في السماء:

عند مراجعة النصوص القرآنية وتدبّرها، ومراجعة أقوال العلماء والمفسرين المختلفة، فإننا نستطيع الوقوف على حقيقة الأمر في جنة آدم عليه السلام، وأنّ الله تعالى قد أسكنه وزوجه جنةً في الأرض، وليست في السماء، وأنّ هذه الجنة كانت عبارة عن أرض خضراء، وحديقة غَنّاء فيها كل ما يحتاج له آدم عليه السلام من الطعام والشراب والسُّكنى والظلال والأمن.

وقد تناولت بعض كتب التفسير وغيرها هذا الموضوع باستفاضة وإسهاب، ولا نكاد نجد كتابًا في التفسير يخلو من التطرُّق لهذا الموضوع ولو بشكل عرضي، لكننا في الوقت نفسه قلّما نجد مفسرين يتوسّعون في البحث عن أدلّة صريحة يرجّحون بها أقوالهم وتدبُّرَهم كما فعل الماتُريدي، وابن القيم، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم... رحمهم الله تعالى.

وقد كان لعلماء المسلمين في هذا الموضوع أقوالٌ وآراء مختلفة ومتباينة، ومن أبرز هذه الأقوال:

1. القول بأنّ جنة آدم عليه السلام كانت في الأرض.
2. القول بأنّ جنة آدم عليه السلام كانت في السماء.

وإنني إذ أختار القول الأوَّل فسأعرض في بحثي هذا أهم الأدلّة النقلية والعقلية التي تدلّ على أنّ جنة آدم علي السلام هي جنةٌ في

الأرض لا في السماء، وهو ما يُقوّي الفرضية التي وضعتُها في مقدّمة هذا البحث حول جبل عرفات، وأنه هو مكان الجنة التي أَسكَنَ الله تعالى آدم وزوجه عليهما السلام فيها.

الأدلّة على أنّ جنة آدم عليه السلام كانت في الأرض:

1. إنّي جاعل في الأرض خليفة:

قبل أنْ يخلق الله تعالى آدم عليه السلام قال للملائكة: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) {البقرة: 30}، فهذا الخليفة سيكون في الأرض التي تعرفها الملائكة، وليس في السماء، ولذا قالوا: (قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) {البقرة: 30}.

فالله تعالى حدّد للملائكة مكان خلافة آدم عليه السلام وهو على الأرض، وليس في الآيات ما يشير أو يدل على أنّ آدم عليه السلام خُلق في السماء، أو استُخلف في السماء، بل خلقه الله تعالى في الأرض، واستخلفه في الأرض، ثم أسكنه وزوجه جنة وارفة الظلال، كثيرة الأنهار والثمار، وليس من المعقول أنْ تكون هذه الجنة في مكان غير الأرض.

وهذا يعني أنّه عندما قال الله تعالى لآدم عليه السلام: (وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ) {الأعراف: 19}، فإنما أسكنه جنةً في هذه الأرض التي خُلق منها ومن ترابها، ليكون خليفة فيها، وليس في السماء أو في مكان آخر.

2. إبليس يوسوس لآدم في الجنة:

لقد دخل الشيطان (إبليس) إلى الجنة التي أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام، واستطاع أنْ يوسوس لهما ليُغويهما فيَأكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عن الاقتراب منها، يقول الله تعالى: (فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ) {الأعراف: 20}.

فالشيطان يدخل هذه الجنة، ويمارس فيها الوسوسة والإغواء، لأنها جنة في الأرض، والأرض تضُمّ الأضداد من الخلائق: مؤمنين وكافرين، والله تعالى لا يأذن للشيطان بدخول الجنة العالية (جنة الخلد) التي أعدّها للمتقين، فعمله وإغواؤه ينحصر فقط في هذه الأرض، وفي الحياة الدنيا، وهذا ما تشير إليه الآية على لسان الشيطان: (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ) {الحجر: 39}.

فالكلام واضح هنا أنّ تزيين وإغواء الشيطان للإنسان يكون في الأرض وليس في السماء، ومن هذا يتضح أنّ جنة آدم عليه السلام هي جنةٌ أو حديقةٌ أو بستانٌ في الأرض، وليست جنة الخلد التي في السماء.

وهو ما يقوِّي الفرضية التي نذهب إليها وهي أنّ جبل عرفات هو مكان الجنة التي كان فيها آدم عليه السلام في أوَّل استخلاف الله له في الأرض كما سيتبين لاحقًا بإذن الله تعالى.

3. الجنّة في اللسان العربيّ حديقةٌ مثمرة:

إنّ كلمة (الجنة) لفظٌ مشترك يحتمل معاني مختلفة، فالجنة لا تعني دائمًا الجنة العالية التي أعدّها الله تعالى لعباده المتقين في السماء، بل وردت في القرآن الكريم بمعنى الحديقة أو البستان، كما في قوله تعالى: (إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ) {القلم: 17}، وكما في قوله تعالى: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا) {الكهف: 35}، فالجنة هنا بمعنى البستان والحديقة المثمرة.

وهو ما نجده أيضًا في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) {سبأ: 15}، فالجنتان هنا حديقتان وبستانان أنعم الله بهما على سبإ التي أعرضت عن ربها فكانت النتيجة:

(فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ) {سبأ: 16}.

وهو نفسه ما نفهمه من مدلول كلمة (الجنة) في قوله تعالى: (وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ) {الأعراف: 19}، فآدم عليه السلام أسكنه الله تعالى حديقة وارفة الظلال، كثيرة الأنهار والثمار، فيها كل ما يحتاج له من مقتضيات ولوازم الحياة الهانئة الرغيدة.

والله تعالى يُطَمئِن آدم عليه السلام بأنه سيسكن هذه الجنة الغنّاء، وسيكون فيها مطمئنًا لا يخاف على نفسه وزوجه من الجوع أو العطش أو حرارة الشمس، أو العُرْي، فالطعام بين يديه يأكل من كل الثمرات، ويقطف من كل الأشجار، إلا شجرة نهاه الله عن الاقتراب منها: (فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) {الأعراف: 19}.

والماء يجري أمامه في جداول وأنهار، يشرب فيرتوي دون أنْ يشعر بعطش أو ظمأ، وهو فوق هذا يستظل بظل أشجار هذه الحديقة المُلتفّة (الجنة)، فلا تصيبه حرارة الشمس وأشعتها الحارقة فيَضْحَى، أو يرهقه حرّ النهار، فالله تعالى قد هيّأ له ضماناتٍ حياتيةً مختلفة في هذه الجنة الأرضية، خاصّة أنه لا يزال مخلوقًا جديدًا في هذه الأرض، ولا يملك من الخبرات ما يُؤهّله للعيش فيها، والحصول على حاجاته

الضرورية من طعام وشراب ولباس وظلال، وهو ما نجده في قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) {طه: 119}، وهي آية فيها ما يضمن لآدم وزوجه عليهما السلام الأمن الغذائي الذي يجلب لهما الأمن النفسي والسكينة الداخلية.

أما قوله تعالى: (وَلَا تَعْرَىٰ)، ففيه إشارة إلى اللباس الذي أنزله الله تعالى على آدم وزوجه في أوَّل خلقهما ليُوارِيَا سَوْءاتِهما، وهو في الوقت نفسه زينةٌ ورِيش، يقول الله تعالى: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ) {الأعراف: 26}.

فآدم عليه السلام في هذه الجنة لم يضطر لأنْ يزرع فيحصد ويأكل، ولم يضطر لحفر الآبار لاستخراج المياه من الأرض، وهو عليه السلام لم يصنع الملابس التي تُواري سَوءاتِه وسَوءاتِ زوجه عليهما السلام، ولم يضطر لاتخاذ الأَسْقُف الصناعية لتقيه من حرّ الشمس وأشعتها، ولكنّ الله تعالى هيّأ له كلّ هذا، فهو لم يكن لديه من الخبرات ما يمكّنه من أنْ يبدأ الحياة في هذه الأرض من غير مساعدة وعَوْن من الله تعالى كما أسلفنا.

إنّ لفظة (الجنة) عند العرب وفي اللسان العربيّ تعني الحديقة والبستان، وما سُمّيت جنة الخلد التي في السماء بـ (الجنة) إلا ليتمكن البشر من فهم ما أعدّ الله تعالى لعباده المتقين فيها، فهم يعرفون الجنة في الأرض، ويعرفون ما فيها من شجر وثمار وأنهار وظلال ونعيم ورزق، ولذا فإننا نجد كثيرًا من الآيات التي تصف جنة الخلد تتحدث عن بعض ما في جنات الأرض، ومن هذا: (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ) {الرعد: 35}.

كلّ هذا يُرجّح وجود جنة آدم عليه السلام في الأرض لا في السماء، وهو ما يُقوّي الفرضية التي نفترضها بأنَّ جنة آدم عليه السلام في جبل عرفات، وهو ما تدل عليه الأدلة كما سيتّضح لاحقًا.

4. الهبوط ليس نزولًا:

يقول الله تعالى: (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) {طه: 123}، والهبوط هنا بمعنى: (الانتقال من أرضٍ مرتفعة، أو من تلالٍ وهضابٍ وروابٍ إلى أرض منخفضة)، ولا يعني مطلقًا معنى النزول من السماء، فالنزول من السماء فيه معنى القدوم من عُلُوّ إلى الأسفل، كما في حال المطر الذي ينزل من السماء إلى الأرض، وكما الوحي يُنزّله الله تعالى من السماء على الأنبياء، وكذلك الحديد الذي

أنزله الله تعالى من السماء إلى الأرض، وكذلك المائدة، والأنعام، واللباس، والمنّ والسّلوى...، وآدم عليه السلام لم ينزل، ولم يتم إنزاله من الجنة إلى الأرض، بل هبط هبوطًا من منطقةٍ مرتفعةٍ في الأرض، إلى منطقةٍ منخفضةٍ في الأرض، أو انحدر من ربوةٍ عاليةٍ إلى وادٍ منخفض.

إنّ آدم عليه السلام عندما هبط من الجنة إلى الأرض فإنه هبط من غير مساعدة، لأنه كان قادرًا على الهبوط بنفسه، فهو بهبوطه من الجنة ينتقل من مكان مرتفع إلى مكانٍ منخفضٍ قريبٍ على الأرض نفسها، ولو كان هبوطه من الجنة نزولًا من السماء، أو من كوكب آخر من خارج الأرض، لما قال الله تعالى له: (اهبطا) فيكون هو الفاعل في الهبوط، ولربما سيكون التعبير بصيغة يكون فيها آدم عليه السلام مفعولًا به يقع عليه فعل الإنزال وليس الإهباط، كما هي الحال في الحديد، والأنعام، واللباس، والمائدة، والمطر، والكتب السماوية، والمنّ والسلوى، فكلّها تم إنزالها من السماء إنزالًا، ولم تنزل من السماء من تلقاء نفسها.

ولقد استعمل القرآن الكريم لفظة: (ٱهْبِطُواْ) بمعنى الانحدار والانتقال من مكان مرتفع إلى مكان منخفض كما في قوله تعالى: (ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ) {البقرة: 61}، أي انحدروا واذهبوا إلى مكان منخفض محدّد من الأرض، وستجدون ما سألتم من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل.

فبنو إسرائيل هنا لم ينزلوا من السماء، بل انتقلوا وهبطوا بأنفسهم من مكان إلى مكان على نفس هذه الأرض التي يعيشون فيها، وهذا نفسه ما حدث مع آدم عليه السلام عندما هبط من الجنة، فقد خرج منها إلى مكان آخر أقل منزلة ورتبة وارتفاعًا.

ونجد هذا أيضًا في القرآن الكريم في سياق الكلام عن الحجارة كما في قول الله تعالى: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ) {البقرة: 74}، فالحجارة هنا لا تنزل من السماء، بل هي من حجارة الجبال وصخورها، وهي عندما تهبط من خشية الله فإنما يكون هبوطها في انحدار وتدحرج من أطراف الجبال وأعاليها إلى السفوح والأودية والمنخفضات.

وهو نفسه ما نجده في قول الله تعالى لنوح عليه السلام: (قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ) {هود: 48}، فهبوط نوح عليه السلام لم يكن نزولًا من السماء، وهو عليه السلام لم يكن في السماء أصلًا، وإنما كان في السفينة التي صنعها، فالهبوط هنا يعني استقرار نوح وسفينته على الأرض بعد أنْ بلعت الأرض ماءها، وبعد أنْ أقلعت السماء، وهو انحدار وإرساء للسفينة التي كانت تعلو على الماء، فالهبوط كان انتقالًا من مكان مرتفع في الأرض وهو الماء، إلى أرض أدنى وهي الجُوديّ، يقول الله تعالى: (وَقِيلَ

يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ) {هود: 44}.

والله سبحانه وتعالى عندما قال لآدم ولزوجه – اللذين يمثلان جنسًا واحدًا – وللشيطان: (قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ) {طه: 123}، فإنما يقول لهم: اخرجوا من هذه الحديقة ذات المكانة العالية، والرتبة الرفيعة، وانتقلوا إلى خارجها في هذه الأرض التي يلزم للعيش فيها المزيد من الكدِّ والكدح والسعي، فتصنعون فيها ملابسكم بأنفسكم، وتزرعون فيها لتأكلوا، وتحفرون الآبار لتشربوا، وتكِدُّون، وتكدحون، وتصنعون، وتبنون البيوت...، يقول الله تعالى: (فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ) {طه: 117}

ونستطيع أنْ نستدل من قول الله تعالى: (ٱهۡبِطُواْ) في الآية: (قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا) {طه: 111}، على أنّ جنة آدم عليه السلام كانت بربوة أو بمنطقة مرتفعة، وأنّ هبوطه عليه السلام منها كان إلى منطقةٍ أدنى، أو إلى وادٍ منخفض.

وهذا يُقوي الفرضية التي نفترضها وهي أنْ تكون جنة آدم عليه السلام هي جبل عرفات، وهو منطقة مرتفعة عن الأراضي المجاورة له، حيث الأودية المنخفضة في مكة ومِنى.

5. لا خروج من جنة الخُلد التي في السماء:

إنّ الجنة العالية التي أعدّها الله تعالى لعباده المتقين هي دار الخلود والبقاء، فلا موت فيها، ولا فناء، ولا زوال، ولا خروج، ولا إخراج، يقول الله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا) {النساء: 57}، ويقول الله تعالى أيضًا: (قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا) {الفرقان: 15}.

فمَن أكرمه الله بالسُّكنى في هذه الجنة السماوية فلا يخرج منها أبدًا، ولو كان آدم وزوجه عليهما السلام قد أُسكِنا هذه الجنة فعلًا لظلَّا فيها من الخالدين، ولَمَا هبطا منها إلى مكان أقلّ رتبةً منها، بل هي حياتهم السرمدية الدائمة كما في قوله تعالى: (لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ) {الحجر: 48}.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم عن خلود أهل الجنة في جنتهم فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُذبح، ثم يُنادي منادٍ يا

أهل الجنة، خلودٌ بلا موت، ويا أهل النار خلودٌ بلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حَزَنًا إلى حَزَنهم) [1]

وهو ما يُقوِّي الفرضية التي نفترضها بأنّ جنة آدم عليه السلام كانت على الأرض في المكان المعروف اليوم بجبل عرفات.

6. فاكهة جنة الخُلد لا مقطوعة ولا ممنوعة:

جاء في وصف فاكهة جنة الخُلد قولُ الله تعالى: **(**وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ**)** {الواقعة: 32-33}، فهي جنةٌ فيها كل ما تشتهي الأنفس بلا منع، أو قطع، أو تحريم.

وكل ما في جنة الخُلد حلالٌ طيّب جميل، يقول الله تعالى: (يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) {الزخرف: 71}.

إنّ كل ما تطلبه النفس في جنة الخُلد مُتاحٌ ومُباح، فمَنْ يُسكنه الله تعالى جنة الخُلد فهو مُكرّم مُنعّم، لا يمنعه الله تعالى عن شيء منها، إذْ ليس في جنة الخُلد مُحرّمات في طعام أو شراب، يقول الله تعالى: (لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) {يس: 57}، ويقول سبحانه: (وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) {فصلت: 30}.

---

[1] البخاري 6548 ومسلم 2850.

وهذا ما لم يكن في جنة الأرض التي أسكن الله تعالى آدم وزوجه عليهما السلام فيها، ونهاهما فيها عن الاقتراب من شجرة محددة، لكنهما لبشريتهما ضَعُفا أمام وساوس الشيطان، وانخدعا بوعوده وتزيينه وأيمانه الكاذبة، فذاقا الشجرة، ووقعت منهما المعصية والمخالفة، فاستحقا الهبوط من الجنة التي هيّأها الله تعالى لهما، وضَمِن لهما فيها السُّكنى الهانئة، والحياة الرغيدة، فلا يجوعون، ولا يَظمئون، فطعامهم مكفول، وشرابهم مضمون، ويلبسون فيها ما أنزل الله عليهما من اللباس الذي يستر سَوءاتِهما.

وقد كان هبوطهما من الجنة إلى مكانٍ أدنى، وأرضٍ يكدحون فيها من أجل الحصول على الطعام والشراب والملبس والمسكن، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ {طه: 117}.

ولو كان المقصود بالجنة التي كان فيها آدم وزوجه عليهما السلام جنةَ الخُلد التي في السماء، لما منعهما الله تعالى عن شيء من شجرها، ولكنها جنةٌ في الأرض أسكنهما الله تعالى فيها في بداية الاستخلاف، يقول الله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (23) قَالَ

ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ {الأعراف: 22-24}.

7. لا سَوْءات في جنة الخُلد:

ليس في جنة الخُلد سَوءاتٌ تَسُوء أهلَها المؤمنين، فهي جنة النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، فيها تلذ الأعين، وتستريح الأنفس، فلا سوءات، ولا حَزَن، ولا نصب، ولا لغوب.

يقول الله تعالى عن أهل جنة الخُلد: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ فاطر 34-35.

والسَّوأة في اللغة: (الخُلَّة القبيحة، والفاحشة، وكل عمل وأمر شائن، والعورة) [1]

وهذا ما بَدَا لآدم وزوجه عليها السلام وهما في الجنة، يقول الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ {الأعراف: 22}، فهل يُتَصَوّر هذا في جنة الخُلد؟ وهل سيصنع المؤمنون في جنة الخُلد ملابسهم بأنفسهم

[1] المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية بالقاهرة، ص 460، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، 1990م.

فيخصِفون على أنفسهم من ورق الجنة كما فعل آدم وزوجه عليهما السلام ليسترا ويواريا سوءاتهما؟

إنّ الحالة التي أصابت آدم وزوجه عليهما السلام وهما يخصفان عليهما من ورق الجنة ليسترا ما بدا لهما من سوءاتهما حالةٌ فيها حَرَج وحَزَن ونَصَب وإحساس بالندم، وهو ما لا يُتَصَوّر أنْ يكون في جنة الخُلد التي في السماء.

ويبدو أنّ آدم وزوجه عليهما السلام عندما عَصَيَا ربهما وذاقا الشجرة، قد نزع الله تعالى عنهما لباسهما الذي أنزله عليهما من السماء، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ {الأعراف: 27}.

لقد تم نزع اللباس عن آدم وزوجه عليهما السلام في جنة الأرض بفعل وساوس الشيطان بمجرد ذوقهما للشجرة، ما جعلهما يُسرعان إلى تغطية سوءاتهما وسَترها.

إنّ نزع اللباس عن آدم وزوجه عليهما السلام في هذه الجنة يؤكد أنها جنةٌ في الأرض، وليست جنة الخُلد التي في السماء، فجنة السماء كما هو معلوم جنة للنعيم والراحة والمكافآت من الله تعالى، وليس فيها شيطانٌ ينزع عن أهلها لباسهم بالوساوس والإغواء.

وإنّ عملية خصف آدم وزوجه عليهما السلام لوَرَق الجنة على السوءات المكشوفة منهما، لَيؤكد أنّ الجنة التي أسكنهما الله تعالى فيها هي جنة في الأرض، وليست جنة الخُلد التي وُعد المتقون حيثُ السعادةُ الأبدية، فلا تعب ولا نصب، ولا خصْف لورق الجنة لِسَتر السَّوءات.

8. ليس في جنة السماء معصيةٌ أو توبة:

إنّ الأرض دار عمل وابتلاء، وجنة الخلد التي في السماء دار جزاء وعطاء، والله سبحانه عندما ابتلى آدم عليه السلام بعدم الاقتراب من الشجرة فإنما ابتلاه في جنة الأرض، وليس في جنة السماء، لكنه عليه السلام نسِيَ وعَصَى ربه وأكل من الشجرة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ {طه: 115}، ويقول سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ {طه: 121-122}.

ولو كان آدمُ وزوجُه عليهما السلام قد أسكنهما الله تعالى جنةَ الخُلد التي في السماء، فما كان ليقوم بعمل، أو يتعرض لابتلاء، وما كان له أنْ يقترف معصية، أو يُحدث توبة، لأن جنة الخُلد دار جزاء، وليست دار عمل.

إنّ الأعمال البشرية بما فيها من طاعات أو معاصٍ لا تحدث إلا في هذه الحياة الدنيا القصيرة، وعلى هذه الأرض، أما جنة الخلد فليس

فيها إلا المكافآت، والجزاء الحَسَن من الله تعالى، وهو ما يؤكد أنّ آدم وزوجه عليه السلام ما عصَيَا ربهما إلا في جنةٍ على الأرض، وهي التي هبطا منها إلى أرضٍ أدنى، ومكانٍ أخفض، بعد هذه المعصية.

9. لا يسمعون فيها لَغوًا ولا كِذَّابًا:

يقول الله تعالى في وصف جنة الخُلد التي أعدّها الله تعالى لعباده المتقين: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ النبأ 35، لكننا نجد أنّ آدم عليه السلام قد سمع في الجنة التي أسكنه الله تعالى كَذِبَ الشيطان ولغوه وإغواءه ووسوسته، يقول الله تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ {طه: 120}.

وهذا يؤكد أنّ آدم عليه السلام عندما سمع هذا الكذب والإغواء من الشيطان، فإنما كان يسكن في جنة (حديقة) على الأرض، فيها لغو وكذب وتأثيم، إذ لا يوجد هذا في جنة الخُلد التي في السماء.

10. جنة الخُلد ليست في الدّار الأُولى:

إنّ القول بأنّ آدم وزوجه عليهما السلام قد أسكنهما الله تعالى جنة الخلد التي في السماء، والتي هي جنة الآخرة، يستلزم أنْ تكون الدارُ الآخرةُ هي الدارَ الأولى أو الدنيا التي استُخلف في أرضها آدم عليه السلام، فتكون التسمية للدارين متناقضة وغير صحيحة، فآدم وزوجه عليهما السلام لم يُسكَنا جنةَ الآخرة، بل أسكنهما الله تعالى جنةً في

الأرض فيها من النعيم والخيرات والثمار والأنهار ما يغنيهما عن التعب والنصب، لكنه وزوجه قد استجابا لوساوس الشيطان، فعصَيَا ربَّهما، وذاقا الشجرة، فاستحقا الخروج ممّا كانا فيه من النعيم، يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ {البقرة: 36}.

ولم يَرِدْ في القرآن أو السُّنة الصحيحة أنّ الله تعالى قد رفع آدم عليه السلام إلى السماء بعد خَلقه من تراب الأرض، ولكنّ الذي حدث أنّ الله تعالى قال لآدم بعد خلقه وتعليمه الأسماء كلها وإسجاد الملائكة له: (وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ) {الأعراف: 19}، فلم يتم رفعه كعيسى عليه السلام، ولم يعرُج إلى السماء كمحمد صلى الله عليه وسلم، ولو حدث هذا لذكَره الله تعالى لعظمته.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ {البقرة: 36}، يشير إلى النعيم الذي كان مُتاحًا ومتوفرًا لهما في الحديقة الغنّاء التي هيّأ الله لهما فيها كل ما يحتاجان له، ليعيشا في رغد وسعادة، فهما قد خرجا من الراحة إلى التعب على هذه الأرض نفسها، وهو ما يؤكد أنّ الجنة التي أُسكِنها آدم وزوجه عليهما السلام كانت على الأرض في هذه الحياة الدنيا، ولم تكن جنة الآخرة التي في السماء.

11. جنة الخُلد فيها ما لا عَينٌ رأت:

جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر)[1]، وفي الحديث دليلٌ على أنّ جنة الخُلد التي في السماء لم ترَها عينُ آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر، ولم تسمع بها أُذُنه، ولم تخطر بباله، وهو ما يؤكد أنّ جنة السماء هي فقط في الآخرة، وليست مُتاحةً لأحدٍ في الدنيا، وأنّ الجنة التي أَسكَن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام كانت في الأرض.

12. التكليف في الأرض من مقتضى حكمة الله تعالى:

جاء في تفسير أبي القاسم البلخي: أنّه (لا يجوز في حكمته تعالى أنْ يبتدئ الخلقَ في جنة يخلّدهم فيها ولا تكليف، لأنه تعالى لا يعطي جزاءَ العاملين مَن ليس بعامل، ولأنه لا يُهمل عباده، بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد)[2]، وهذا يعني أنّ الله تعالى قد أسكن آدم وزوجه جنةً في الأرض فيها تكليف بـ (افعل، ولا تفعل)، وأوجب على المعصية فيها عقوبة، ولو كان أسكنه جنة الخُلد التي في السماء لما تمَّ تكليفه فيها بشيء.

---

(1) البخاري4779، ومسلم 2824

(2) تفسير أبي القاسم البلخي، صفحة 115، 2007، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

إنّ كل ما سبق وغيره، يجعلنا نستريح ونحن نختار بعد هذا التدبُّر القول: بأنّ الجنة التي أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام كانت جنة في هذه الأرض التي نعيش عليها، وهو ما يُقوّي ما افترضناه في بداية هذا البحث وهو أنّ جنة آدم عليه السلام كانت بجبل عرفات، وأنّ وقوف الحجيج بهذا المكان ليس مجرَّد وقوف بأرض خالية، بل هي أرضٌ مليئة بالأحداث العظيمة منذ خُلق آدم عليه السلام.

ثانيًا: عَرَفات (عَرَفة): عَظَمَةُ المكان وعَظَمَةُ الزمان:

أ. عَظَمَةُ المكان:

إنّ المُتأمّل في بعض نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أنّ فيها إشاراتٍ واضحةً تخصّ جبل (عرفات)، وأنّ ثَمَّة علاقة وثيقة لآدم عليه السلام بهذا المكان منذ استخلاف الله تعالى له في الأرض، وقبل أنْ يكون له نسلٌ وذرية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ {الأعراف: 172}.

إنّ هذا الأخذ والإشهاد مِن الله تعالى على بني آدم إنما كان في جبل عرفات الذي يقف به الحجيج في اليوم التاسع من ذي الحجة من كل عام، والذي نراه أنه مكان الجنة التي أُسكِن فيها آدم وزوجه عليهما السلام، ويدل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال: (أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَان يعني (عَرَفة)، فأخرج من صُلبه كلَّ ذريةٍ ذَرَأها، فنثرهم بين يديه كالذَّر، ثم كلمهم قُبُلًا، قال: ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا أنْ تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين).[1]

تقول كفاية العبادي: (ونَعمانُ وادٍ يقع في الجهة الشمالية الشرقية لمكة المكرمة بمسافة أربعة وعشرين كيلومترًا، ويعتبر أكبر الأودية في مكة المكرمة، حيث يقع تقريبًا ما بين مدينة الطائف ومدينة مكة، وأنّ أجزاء من الوادي ترتبط بالجهة الجنوبية لجبل عرفة)[2].

و(نَعْمَان) كلمةٌ على وزن فعلان، وهو يعني الامتلاء بالنِّعمة، فجبل عرفات مملوء بالنِّعَم والنعيم، وأوَّل هذه النِّعَم معرفةُ الرب الخالق الرازق، والإله المعبود، وأخذُ الميثاق.

وفي الحديث الشريف تصريحٌ من النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ المكان الذي تمّ فيه أخذ الميثاق من بني آدم، وإشهادهم على ربوبيته عز وجل، هو (نَعْمَان) بجبل عرفات، وأنّ آدم عليه السلام كان في عرفات، وهو مكان مرتفع، نظنّ أنه عليه السلام قد هبط منه إلى مكانٍ أدنى بعد أنْ أكل وزوجُه من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الاقتراب منها.

---

(1) السلسلة الصحيحة للألباني158/4

(2) عن: " تطبيق موضوع، أكبر موقع عربي بالعالم، جبال ووديان، 2 يونيو 2017"

فآدم عليه السلام كان في عرفات عندما أخذ الله تعالى الميثاق من ذريته، فأخرج من ظهره كلَّ ذريةٍ ذرأها، وفي هذا دلالة على:

1. أنّ وجود آدم عليه السلام في عرفات في أوَّل استخلافه في الأرض، وكذلك أخذ الله تعالى للميثاق من بني آدم في هذا المكان من الأرض بالذات، يفسِّر لنا وقوف الحجيج جميعًا فيه، وكأنهم يرجعون إلى نفس المكان الذي أخذ الله تعالى منهم الميثاق فيه، وهم منثورون بين يدي آدم كالذَّر، ليُجدّدوا العهد والميثاق لله تعالى بأنهم على عهدهم وميثاقهم.

2. أنّ جبل عرفات هو المكان الذي كان فيه بداية استخلاف الله تعالى لآدم عليه السلام في الأرض، وأنه مكان الجنة التي أسكنه الله تعالى بعد خَلقه وتسويته ونفخ الروح فيه، يقول الله تعالى: (وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ) {الأعراف: 19}.

ب. عَظَمَةُ الزّمان:

والحديث السابق له رواياتٌ أخرى تُبيّن لنا أنّ الله تعالى قد أخذ الميثاق من بني آدم في يوم عَرَفة أيضًا، وهو اليوم التاسع من ذي الحجة، حيث يقف الحجيج بجبل عَرَفة، وهو ما يُفسِّر لنا هذا الوقوف بشكل صريح، وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله قد أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صُلبه

كل ذرية ذرأها، فنثَرَها بين يديه، ثم كلمهم قِبَلًا، قال: ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا).[1]

وقوله صلى الله عليه وسلم: (بنعمان يوم عرفة) يجمع بين مكان وزمان هذا الحدث الكبير الذي أخذ الله تعالى فيه العهد والميثاق من بني آدم، وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته تعالى، فالمكان هو جبل عرفات، والزمان هو التاسع من ذي الحجة، وهو ما يجعلنا نذهب للقول بأنّ جبل عرفات هو مكان الجنة التي أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام في أوَّل وجودهما على هذه الأرض.

وممّا يفسِّر لنا وقوف الحجيج في هذا اليوم العظيم بجبل عرفات:

1. أنّ يوم عرفة هو اليوم الذي أخذ الله تعالى فيه ميثاق بني آدم، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ {الأعراف: 172}، فهو يوم الميثاق مع الله تعالى، ولذا فالحجيج يقفون بعرفة في نفس اليوم الذي أعطَوْا فيه العهد لربهم بالعبادة والطاعة.

2. أنّ يوم عرفة يوم عظيم، ففي يوم عرفة، وعلى جبل عرفة، نزلت الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ {المائدة: 3}، وهي بُشرى من الله تعالى بأنّ النصر حتمًا للإسلام، ولا أمل للذين كفروا بالظهور والغَلَبَة.

---

[1] شرح الطحاوية 240، صححه الألباني.

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسير الآية السابقة: (والصحيح أنّ المُراد به يوم عرفة من عام حجِّ الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وكان يومَ جُمُعَة، وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية المبينة لما بَقِي من الأحكام التي أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها وأوهامها، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهورًا تامًّا لا مطمع لهم في زواله، ولا حاجة معه إلى شيء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم).[1]

3. أنّ يوم عَرَفة يوم اكتمال الدين وتمام النعمة على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ {المائدة: 3}، فاكتمال الدين كان في يوم عَرَفة، وتمام النعمة كان في يوم عَرَفة، وهذه الآية نزلت في يوم عَرَفة، وعلى جبل عَرَفة، وهذا لا يمكن أنْ يكون صدفة، بل إنّ فيه إشارةً إلى بداية الاستخلاف في الأرض، حيث كان آدم عليه السلام بعَرَفة في بدايات نزول الدين، ثم يكتمل الدين، وتتم النعمة، في نفس المكان بعَرَفة.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما: (جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلتْ معشرَ اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأيّ آية؟ قال: (اليوم

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، المكتبة التوفيقية، الجزء السادس، ص 131.

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا)، فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة).[1]

4. أنّ يوم عَرَفة كان بداية العدّ الزماني، والدورة السنوية للكون منذ أنْ خلق الله السموات والأرض، يقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو في حجة الوداع في التاسع من ذي الحجة، أيْ في يوم عَرَفة: (إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)[2]، وهذا إخبارٌ غيبيٌّ من النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ يوم عَرَفة كان بداية العدّ والنظام الزماني لهذا الكون منذ أنْ خلق الله السموات والأرض، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾. {التوبة: 36}.

فالزمان في يوم عَرَفة يستدير كهيئته تمامًا يوم خلق الله السموات والأرض، ليكون يوم عَرَفة هو يوم بداية الدورة الزمانية السنوية لهذا الكون، والتي كانت يوم خلق الله السموات والأرض.

إنّ استدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض في يوم عَرَفة وهو التاسع من ذي الحجة، كانت متزامنةً مع اكتمال الدين في الأرض، ومع الإخبار القطعي من الله تعالى بيأس الكافرين من الدين،

---

(1) صحيح مسلم 3017 واللفظ له، والبخاري 45

(2) البخاري 4662

ومع ذكرى حدوث الميثاق بين الله تعالى وبين بني آدم، ليكون يومًا لهم للوفاء بالعهد وتجديد الميثاق.

ثالثًا: جنةُ آدم جنةٌ برَبْوَةٍ عالية:

لقد تبيَّن لنا فيما سبق كيف أنّ الله تعالى قد أخذ الميثاق من بني آدم بنَعْمان بعرفة، وأنّ آدم عليه السلام قد كان بـ (عَرَفة) عندما أخذ الله تعالى من ظهره كلّ ذرية ذرأها، وأشهدهم على أنفسهم في هذا المكان بالذات، بأنه عزّ وجَلّ ربُّهم.

ويتبين لنا أيضًا من هبوط آدم عليه السلام من الجنة أنّ هذه الجنة كانت برَبوة من الأرض، وأنّ الله تعالى قد أمر آدم عليه السلام بالهبوط منها إلى أرض أخفض وأدنى بعد أنْ أغواه الشيطان وزوجه، وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها.

والمعروف أنّ جبل عرفات يقع على الطريق بين مكة والطائف، ويصل ارتفاعه إلى ثلاثمائة متر فوق مستوى أرض مكة، ولا بد للحجيج الذين يريدون الوقوف به أنْ يصعدوا إليه صعودًا تدريجيًا حتى يصلوا إلى سطحه وقمته.

وعند إفاضة الحجيج من عرفة فإنهم يتركونه فوقهم، ويُفيضون منه إلى مزدلفة انحدارًا، ومن ثَمّ إلى مِنًى ومكة، يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ

وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ {البقرة: 198}.

إنّ عملية الهبوط التي قام بها آدم وزوجه عليهما السلام من الجنة التي أسكنهما الله تعالى تشير إلى أنّ هذه الجنة كانت في منطقة مرتفعة، أو بربوة عالية، فإنّ لفظة: (ﮯ) في قوله تعالى: (قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا) {طه: 111}، تدل على الانتقال من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، ومن منزلةٍ رفيعةٍ إلى منزلةٍ أقلّ رُتبةً، وقد نقل الأستاذ محمد رشيد رضا عن الراغب الأصفهاني قوله: (الهبوط: الانحدار على سبيل القهر، أو سُمّي بذلك لأنّ ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه، أو هو كما يقال: هبط من بلدٍ إلى بلد، كقوله تعالى لبني إسرائيل: (ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا).[1]

ويقول أبو منصور الماتريدي في تفسيره (تأويلات أهل السنة): (الهبوط: النزول في موضع، كقوله تعالى: (ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا)، أي انزلوا فيه، ويحتمل الهبوط منها أي النزول من المكان المرتفع إلى المنحدر والدُّون من المكان).

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، المكتبة التوفيقية، الجزء الأول ص 279

وتأتي تسمية جبل (عَرَفة) بهذا الاسم لِتُشير إلى وظيفته الأولى منذ خُلِقَ آدم عليه السلام، حيث عَرَّفه الله تعالى بخالقه وربِّه، وأمره بطاعته والتزام أمره عندما قال: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {الأعراف: 19}، وعرَّف بني آدم بخالقهم وربِّهم في عَرَفة أيضًا، وهو نفس المكان الذي أسكن الله تعالى فيه آدم وزوجه عليهما السلام، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ {الأعراف: 172}.

وفي بيان المُراد من الآية السابقة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان (يعني عرفة)، فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذّر، ثم كلمهم قُبُلًا، قال: ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أنْ تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)[1].

وإضافة لما سبق فإننا نجد في القرآن الكريم أنّ الله تعالى يمتدح الجنة أو الحديقة التي تكون بربوة من الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 158

أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ {البقرة: 265}.

ونجد مثل هذا الامتداح للزيتونة المباركة التي ورد ذكرها في سورة النور في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ {النور: 35}، فهي زيتونةٌ برَبْوَة مرتفعة لا شرقية ولا غربية، تتعرض للشمس في كل ساعات النهار، ويأتيها الهواء من جميع الجهات.

فالجنة التي تكون بربوة فإنها تكون أكثر إنتاجًا، وأكثر خُضرةً وظلالًا، وهذا ينسحب على جنة آدم عليه السلام التي كانت بربوة من الأرض، فيها من الماء والزروع ما يجعل آدم عليه السلام آمنًا من الجوع والظمأ ولفح الشمس المحرقة، وقد بين القرآن الكريم هذا بشكل واضح في قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) {طه: 119}.

رابعًا: جزيرة العرب كانت مروجًا وأنهارًا:

قد يستبعد البعض احتمالية أنْ يكون جبل عرفات هو المكان الذي كانت فيه جنة آدم عليه السلام، خاصّة وهو يرى اليوم هذا الجبل أرضًا صحراوية خالية، وفي الوقت نفسه لا يرى أيّة إشارات إلى أنها كانت أرضًا مزروعة، فضلًا عن أنْ تكون جنةً بربوة.

ويضاف إلى ما سبق أنّ المُناخ في جبل عرفة مُناخ حار وجاف، وهو ما يجعل البعض يستبعدون احتمالية أنْ يكون هذا الجبل مكانًا لجنة آدم عليه السلام.

لكنَّ هذا الاستبعاد يضعُف عندما نعلم أنّ منطقة (جزيرة العرب) كانت في يوم من الأيام أرضًا خضراء، فيها من المُروج والأنهار ما يجعلها أرضًا مُهيَّأة للعيش الهانئ، والحياة الرغيدة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مُروجًا وأنهارًا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضُلّال الطريق، وحتى يكثر الهَرج، قالوا: وما الهَرج يا رسول الله؟ قال: القتل) [1]

وفي رواية عن أبي هريرة أيضًا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا) [2]

وصحَّ أيضًا عند ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، وحتى تعود أرض العرب مُروجًا وأنهارًا) [3]

---

[1] البخاري 1036، ومسلم 157.

[2] صحيح الجامع 7429

[3] صحيح ابن حبان 6700

وعند تأمُّل ودراسة النصوص السابقة فإننا نجد كلمات صريحة تشير إلى أنّ جزيرة العرب كانت في السابق أرضًا خضراء، وكانت الأنهار والجداول تجري فيها، ومن هذه الكلمات: حتى تعود (مروجًا)، و(أنهارًا).

ولا تزال البحوث الجيولوجية تكشف عن حقيقة وجود الأشجار الكثيرة، والأنهار المختلفة، والحياة الرغيدة في جزيرة العرب، بما في ذلك منطقة جبل عَرَفة التي يقع فيها (وادي نعمان)، تقول كفاية العبادي: (يقع وادي نعمان في الجهة الشمالية لمكة المكرمة بمسافة أربعة وعشرين كيلومترًا، ويعتبر أكبر الأودية في مكة المكرمة، حيث يقع تقريبًا ما بين مدينة الطائف ومدينة مكة، وإنّ أجزاء من وادي نعمان ترتبط بالجهة الجنوبية لجبل عرفة).

وتقول أيضًا: (ومن أهم عيون الماء التي تتدفق من وادي نعمان (عين زبيدة)، حيث تتدفق هذه العين من جبل الكرا، فتمر المياه من عرفة، إلى مكة، إلى الفلج، وعين (العابدية) التي تخرج من جبل نعمان إلى جبل عرفة).[1]

وهو ما يجعلنا نفترض أنّ جبل عرفات كان أرضًا خضراء فيها من الأشجار والأنهار والعيون ما يجعلها جنة بربوة اختارها الله تعالى لتكون سكنًا لآدم وزوجه عليهما السلام في أوّل خلقهما.

---

(1) تطبيق موضوع/ جبال ووديان/ أين يقع وادي نعمان؟ (كفاية العبّادي) 2 يونيو 2017م

خامسًا: مكَّةُ (أمُّ القرى) أوّلُ تجمّع بشري في الأرض:

أورد ابن حجر العسقلاني في الفتح: "كتاب أحاديث الأنبياء": (إنّ آدم عليه السلام أوَّل مَن أسس المسجد الحرام بمكة، وذكر ابن هشام في كتاب (التيجان): أنّ آدم عليه السلام لما بنى الكعبة أمره الله تعالى بالسير إلى بيت المقدس، وأنْ يبنيه فبناه ونَسَك فيه)[1]

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ {آل عمران: 96}: "إنّ آدم هو الذي أنشأه وأقامه، فهو أقدم من إبراهيم بأزمان بعيدة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ {البقرة: 125}، ففي قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ {البقرة: 125}، إشارة إلى أنّه كان بيتًا لله تعالى قبل أنْ يعهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التي عبدها العابدون فيه".

---

[1] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، ج 6، ص407، دار المعرفة.

ويقول أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ {البقرة: 127}: "وذِكْر رفع إبراهيم عليه السلام للقواعد يدل على أنها موجودة قبله، وإنما عمله الكشف عنها ورفعها والبناء عليها)[1]

ومعلوم أنّ البيت الحرام الذي بمكة هو أوَّل بيت (مسجد) وضع للناس في الأرض، لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ {آل عمران: 96}، وفي الحديث الصحيح أنّ أبا ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد في الأرض أوّل؟ أيْ للصلاة فيه، قال: المسجد الحرام)[2]

ومعلوم أيضًا أنّ آدم عليه السلام هو أوَّل البشر، وهو أوَّل مَن سكن الأرض من البشر، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ {الإسراء: 70}، فهو أبو البشر بداهة واتفاقًا ومعلومًا من الدين بالضرورة، وهو الذي قال الله تعالى فيه: (إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ) {البقرة: 30}.

وعندما هبط آدم عليه السلام من الجنة التي أسكنه الله تعالى، فإنما هبط إلى مكان في الأرض يستقر فيه، ويعبد ربه فيه، ويؤدّي دوره

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1970

(2) متفق عليه

المستخلف فيه في هذه الأرض، كما أمره الله تعالى، فكان مِن أوَّل أعماله بناءُ البيت الحرام في الوادي الذي هبط إليه، وهو مكة المكرمة التي سمّاها الله تعالى (أمّ القرى).

وفي السياق ذاته يقول الله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴾ {البلد: 1-3}، فالله تعالى يُقسم بالبلد الحرام (مكة) الذي كان مكانًا لهبوط آدم وزوجه عليهما السلام من الجنة، وكان فيه أوَّل تجمُّع بشري في الأرض، ويقسم سبحانه وتعالى بوالد وما ولد: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: 3}، أيْ بآدم وزوجه عليهما السلام، وهما أوَّلُ والدٍ في البشر، ويُقسم بذريتهما الذين كانوا أوَّل مَن سكنوا البلد الحرام (مكة) مع والديهم.

وبين القسم بالبلد الحرام والقسم بوالدٍ وما ولد تأتي الآية: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ {البلد: 2}، في إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وعظمة الرسالة المحمدية التي انطلقت من مكة المكرمة، وهو نفس المكان الذي شهد بدايات التكاثر الإنساني، وبدايات الاستخلاف في الأرض.

جبل عرفات:

وفي مكان ليس بعيدًا عن البلد الحرام (مكة)، يُطل عليها جبل عرفات (عرفة) الذي يرتفع عنها بمقدار ثلاثمائة متر، وهو الذي يقف به

الحجيج في اليوم التاسع من ذي الحجة من كل عام، ليُجددوا العهد والميثاق مع الله تعالى، فيعترفوا بربوبيته لهم، ويعلنوا له الطاعة والتلبية والتوحيد قائلين: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).

ويستحضرون في ذات الوقت أنهم بنَعمان حيث أنعم الله تعالى عليهم بالخلق والعبودية له عز وجل، وأنّ نَعمان هو عرفات (عرفة) الذي يقفون به لله تعالى، وأنه المكان الذي هبط منه أبوهم آدم وزوجه عليهما السلام، والذي نظن أنه مكان الجنة التي أسكنهما الله تعالى في أوّل خلقهما.

إنّ قرب وادي مكة من جبل عرفة بمسافة اثنين وعشرين كيلومترًا يجعل ما نفترضه ليس مستبعدًا من كون جبل عرفات هو المكان الذي كانت فيه جنة آدم عليه السلام، وإنّ كون منطقة مكة منخفضة حيث هي وادٍ كما في الآية: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ {إبراهيم: 37}، يجعل الاحتمال قويًا في أنّ آدم عليه السلام قد هبط من جبل عرفات المرتفع إلى وادي مكة المنخفض، وأنّ جبل عرفات كان جنته على الأرض في أوَّل خلقه كمرحلة تدريبية له من الله تعالى، ليتعرف على حياته ووظيفته، ثم كانت مكة له بعد ذلك بدايةً للكدح، والعمل، والإعمار، والعبادة، والتكاثر، والقيام بالدور المناط به كخليفة في الأرض.

إنّ هذا من شأنه أنْ يعيننا في فهم وقوف الحجيج في كل عام بعرفة، حيث الميثاق والعهد والجنة الأولى، والمعصية الأولى التي أذهبتها التوبة والإنابة.

وبعد هذا العَرض للمُسوِّغات التي دعَت لافتراض الفرضية بأنّ جبل عرفات هو الجنة التي أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام في أوَّل خلقهما، فإنّه يمكننا الآن الإجابة عن السؤال الخاص بوقوف الحجيج بجبل عرفات في كل عام وهو:

لماذا يقف الحجيج في كل عام بجبل عرفات؟

بعد وقوع آدم وزوجه عليهما السلام في المعصية وأكلهما من الشجرة التي نهاهما ربهما عن الاقتراب منها، وبعد أنْ بدت لهما سوءاتهما، فقد عَلِما بغضب الله تعالى وعدم رضاه عن فعلهما، عند ذلك لم يملكا إلا أنْ يقفا عند ذنبهما طويلًا وهما يستغفران الله تعالى ويتوسلان إليه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ {الأعراف: 22}، لكنهما قد سبقت إليهما كلمة ربهما بأنّ العقوبة ستكون الخروج من هذه الجنة الرغيدة، إلى أرض يكدّون فيها ويكدحون: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ {الأعراف: 24}.

والحجيج عندما يقفون بعرفة في كل عام فإنهم يقفون مُحرِمِين طائعِين لله، ويمتنعون عن بعض ما أحلّ الله تعالى كالجماع، والطيب، وقصّ الأظفار والأشعار، ولا يلبسون الملابس المخيطة، ويَتَشبَّهون بأبيهم آدم عليه السلام، فلا يلبسون إلا ما يَسْتُر سوءاتِهم وعوراتِهم، وهو نفسه ما فعله آدم وزوجه عليهما السلام عندما بَدَت لهما سوءاتهما، وأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة، بعد أنْ وقعا في معصية الله تعالى.

ويفعلون كما فعل أبوهم آدم وأمهم حواء عليهما السلام، فيقفون بعرفة وقوف استغفار وندم وتوبة، في نفس المكان الذي وقفا به قبل مفارقة الجنة والهبوط منها إلى مِنًى ومكة تائبَين نادمَين على ما كان منهما من الاغترار بوساوس الشيطان، ومعصية الله تعالى.

وبعد هذا الاستغفار والتوسل إلى الله تعالى من آدم وزوجه عليهما السلام، فإنّ الله يقبل توبتهما، ويرحم ضعفهما، فقد تلقّى آدم عليه السلام من ربه كلماتٍ لا بُدَّ له من القيام بها ليقبل الله توبته: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {البقرة: 37}.

والوقوف هنا ليس معناه القيام والانتصاب كما يظن البعض، ولكنه السكون، والثبات، والتوقُّف، وحَبْسُ النَّفْس، ولزوم المكان، كما في قول

الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ {الصافات: 24}، أيْ أوقفوهم واحجزوهم للسؤال.

ووقوف الحجيج بعرفة أيْ مكوثهم في عرفة للاستغفار لذنوبهم، والإنابة إلى ربهم، والعزم على الطاعة والتقرّب إلى الله تعالى، فهي وقفةٌ يُراجع الحجيجُ فيها أعمالَهم، وهي وقفةُ محاسبةٍ للنفس، طمعًا في مغفرة الله لهم، وقبول توبتهم.

الخلاصة:

(إنّ كل ما سبق يؤكّد صحة الفرضية التي افترضتُها في بداية البحث، وهي أنّ جبل عرفات هو جنة آدم عليه السلام، وهو ما يُفَسِّر لنا أهمَّ ركنٍ في الحج وهو الوقوف بعرفة).

ويمكنني تلخيص العرض السابق فيما يلي:

أولًا: بدأ البحث بإثارة الأسئلة التالية:

1. لماذا يقف الحجيج المسلمون في كل عام بجبل عرفة؟
2. لماذا يعتبر الوقوف بعرفة الركن الأول للحج؟
3. ما الأحداث التي حدثت بجبل عرفة؟
4. لماذا سُمِّي جبل عرفة بهذا الاسم؟

ثانيًا: افتراض الفرضية التالية:

(إنّ جبل عرفات هو الجنة التي أَسكَنَ الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام في أوّل خلقهما).

ثالثًا: مُسَوِّغات الفرضية والتدليل على صحتها:

1. جبل عرفات هو المكان الذي أخذ الله تعالى فيه الميثاق من بني آدم، (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى)، وآدم عليه السلام كان في أوَّل استخلافه في هذا المكان، أيْ بعد أنْ قال الله تعالى له: (وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ) {الأعراف: 19}، مما يشير إلى أنّ المكان الذي كان فيه آدم عليه السلام هو الجنة التي أسكنه الله تعالى.

2. بعد عرض العديد من الأدلّة من القرآن الكريم والسنة، تبيَّن لنا أنّ الجنة التي أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه عليهما السلام قد كانت في الأرض ولم تكن في السماء، وبما أنّ الله تعالى قد أخذ الميثاق من بني آدم بوادي نَعمان بعَرَفة حيث كان آدم وزوجه عليهما السلام، فإنّ هذا يدل على أنّ جبل عرفات هو نفس المكان الذي كانت فيه جنة آدم عليه السلام.

3. إنّ جنة آدم عليه السلام كانت بربوة عالية ومنطقة مرتفعة، وهو ما نستنبطه من قول الله تعالى: (ٱهْبِطُواْ)، والهبوط انتقال من منطقة أعلى في الأرض إلى منطقة أدنى، كما في قوله تعالى: (ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ) {البقرة: 61}، وبما أننا قد علمنا أنّ آدم عليه السلام قد كان بعرفة عندما أخذ الله تعالى الميثاق من ذريته، فإنّ هبوطه كان من عرفة إلى أرضٍ أدنى، وهو ما يشير إلى أنّ جبل عرفات هو الجنة التي كان فيها آدم وزوجه عليهما السلام.

4. إنّ جزيرة العرب كانت مروجًا وأنهارًا كما نفهم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا)[1]، وهذا يعني أنّ جبل عرفات والذي هو جزء من أرض العرب، وكان فيه آدم عليه السلام، قد كان جنة وأنهارًا بربوة عالية تتميز عن كل ما يحيط بها من أرض خضراء، يقول الله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) {طه: 119}، وهو ما يشير إلى أنّ جبل عرفات كان هو جنة آدم في زمن كانت فيه جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا.

5. إنّ آدم عليه السلام هو الذي بنى المسجد الحرام، وهو أوَّل بيت وُضِع للناس في الأرض، وهذا البيت يقع في مكة المكرمة، وبما أنّ منطقة مكة تقع في وادٍ، أيْ في منطقة منخفضة، وأنّ جبل عرفات هو منطقة مرتفعة، فإنّ هذا يشير إلى أنّ هبوط آدم عليه السلام كان من جنته فوق جبل عرفات المرتفع إلى الوادي المنخفض في مكة المكرمة، والتي كان له فيها مستقر ومتاع إلى حين.

7. إنّ سبب وقوف الحجيج بعرفة هو أنهم يفعلون كما فعل أبوهم آدم وأمهم حواء عليهما السلام، فيقفون وقوف استغفار وندم وتوبة في نفس المكان الذي وقفا به قبل مفارقة الجنة والهبوط إلى منى ومكة.

[1] صحيح البخاري 1036

نوح عليه السلام من البلد الحرام
إلى الأرض المباركة

لا تُوجد نصوصٌ صحيحةٌ صريحة تدلُّنا على مكان إقامة نوح عليه السلام، وعلى المكان الذي مارس فيه دعوته، وصنع فيه السفينة، وحدث فيه الطوفان الذي أغرق الله به الكافرين، ونجّى به المؤمنين، وإننا عندما نطالع بعض كتب التفسير، والكتب التي تهتم بسير الأنبياء وقصص القرآن، نجد أنّ أصحاب هذه الكتب مختلفون في تحديد المكان الذي عاش فيه نوح عليه السلام، وأنّ السَّواد الأعظم منهم يأخذون أقوالهم من الإسرائيليات، ومن كتب أهل الكتاب، ومن القُصَّاص الذين لا يتبعون دليلًا صحيحًا يستندون إليه.

ومن أشهر هذه الأقوال في هذا:

1. أنّ نوحًا عليه السلام وقومَه كانوا في: منطقة العراق والكوفة والبصرة وما بين النهرين.
2. أنّ نوحًا عليه السلام وقومَه كانوا في: منطقة تركيا، والبحر الأسود.
3. أنّ نوحًا عليه السلام وقومَه كانوا في: منطقة الجزيرة العربية، من غير تحديد لمكان بعينه.
4. أنّ نوحًا عليه السلام وقومَه كانوا في: منطقة الهند.

والأقوال في هذا كثيرة ومختلفة، ولكنّها جميعًا أقوالٌ لا دليل عليها من القرآن الكريم، أو من السُّنة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونوحٌ عليه السلام حتمًا كان في مكان ما، وأنه عليه السلام ظلّ يمارس دعوته مع قومه لمدة استمرت ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولا شكّ أنه عليه السلام صنع السفينة التي أمره الله تعالى بصنعها في المكان الذي كان فيه قومُه، وأنه حمل معه فيها أهله ومن آمن معه، وحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين، يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ {هود: 40}.

فأين كان نوح عليه السلام؟

فيما يلي سنعرض بعض القرائن التي يمكننا من خلالها أنْ نستنبط ونستدل على المكان الذي كان فيه نوح عليه السلام، وإلى أين نجّاه الله تعالى، وأين استقرّ هو ومَن آمن معه:

القرينة الأولى:

بقاء الأصنام التي عبدها قوم نوح وانتقالها إلى العرب:

جاء في سورة (نوح) على لسان الكافرين من قوم نوح الذين كانوا يُصِرُّون على عبادة آلهتهم وأصنامهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ {نوح: 23}، فقد عبد قوم

نوح الأصنام، وكانوا يتواصَوْن فيما بينهم أنْ لا يتركوا عبادة هذه الأصنام، ولا يتخلَّوْا عنها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، وكان من أشهر هذه الأصنام: (وَدّ) و(سُوَاع) و(يَغُوث) و(يَعُوق) و(نَسْر)، وعندما أغرق الله تعالى قوم نوح بالطوفان، بقيت هذه الأصنام، وبقيت أسماؤها، ففي صحيح البخاري أنّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعدُ، أما (ودّ) كانت لكَلْب بدَومة الجندل، وأما (سُواع) كانت لهُذَيل، وأما (يغُوث) فكانت لمُراد، ثم لبني غُطيف بالجَوف عند سبإ، وأما (يعُوق) فكان لهَمدان، وأما (نَسْر) فكانت لحِمْير لآل ذي الكَلاع...)[1]، وكل هذه القبائل هي قبائل عربية معروفة كانت موجودة في الجزيرة العربية، وقد ورثت هذه القبائل الأصنام عن قوم نوح المُغرَقِين، وفي هذا إشارة إلى أنّ قوم نوح كانوا في ذات المنطقة التي سكنها العرب من بعدهم، وهي منطقة مكة والجزيرة العربية.

القرينة الثانية:

تذكير القرآن الكريم لقريش بما أحلَّ بمَن كانوا قبلهم من الأقوام: قوم نوح، وعاد، وثمود:

لقد تكرر تذكير الله تعالى لقريش بما حَلَّ بالأقوام التي سبقتهم من العذاب، وهو يشير إلى أنّ قريشًا كانت تعلم عن هذه الأقوام وبما حَلَّ

[1] صحيح البخاري 4920

بها من عذاب وهلاك، مثل قوم نوح وعاد وثمود الذين كانوا في الجزيرة العربية.

ومن هذا التذكير:

1. يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ {الحج: 42}، ونلاحظ أنّ الآية قد قرنت تكذيب قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيب أقوام سبقتهم، تعرفهم قريش وتعرف أخبارهم، وهم: قوم نوح وعاد وثمود، وفي هذا إشارة إلى أنهم جميعًا كانوا في نفس المنطقة التي تقيم فيها قريش، وهي مكة والجزيرة العربية.

2. يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ {إبراهيم: 9}، وفي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى أنّ قريشًا كانت تعلم ماذا حَلَّ بالأقوام الذين سبقوهم من العذاب، وهم قوم نوح وعاد وثمود، والجَمْع في الآية بين هؤلاء الأقوام الثلاثة الذين سبقوا قريشًا يشير إلى أنهم كلهم كانوا في الجزيرة العربية.

القرينة الثالثة:

مخاطبة هود عليه السلام لقومه (عاد):

يقول الله تعالى على لسان هود عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ {الأعراف: 69}،

وفي هذه المخاطبة إشارة إلى أنّ عادًا كانوا قد جاءوا خلفاءَ من بعد قوم نوح يخلُفُونهم في إعمار الأرض، ومعلوم أنّ عادًا سكنوا في جنوب الجزيرة العربية، في المنطقة التي تُعرف بمنطقة الأحقاف.

وعندما نتأمل كلمة: (خُلَفَآءَ) الواردة في الآية السابقة نجد أنّها توحي بغياب ورحيل المُستخلَفين وهم قوم نوح، وأنّ عادًا وقوم نوح عاشوا في المنطقة ذاتها، وهي منطقة الجزيرة العربية، وهو نفسه ما نجده مع ثمود الذين خلَفوا عادًا، وبوَّأهم الله تعالى في الأرض من بعدهم كما في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ {الأعراف: 74}، فهم أقوام متتابعة، خلَف بعضهم بعضًا في منطقة واحدة هي منطقة الجزيرة العربية.

القرينة الرابعة:

انتشار الجبال في منطقة قوم نوح:

عندما استجاب نوح عليه السلام لأمر الله تعالى بركوب السفينة، وأنْ يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين، وأهلَه، ومَن آمن معه، نادى نوح ابنه ليكون معه في السفينة، ولا يكون مع الكافرين المغرقين: ﴿ وَنَادَىٰ

نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ {هود: 43}، لكنّ ابنه أبَى وامتنع وقال: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ {هود: 43}، وفي هذا إشارة إلى أنّ المنطقة التي كان فيها نوح وقومه كانت منطقة كثيرة الجبال، أو أنها محاطة بالجبال، فابن نوح يقول: (قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ)، ولم يقل: (سآوي إلى الجبل) باستخدام ال التعريف، فهو سيختار جبلًا من الجبال المحيطة والمنتشرة في المنطقة التي يقيم فيها مع أبيه وقومه، ما يجعلني أُرجّح أنْ تكون المنطقة التي كان فيها نوح عليه السلام هي أم القرى (مكة)، والتي هي وادٍ منخفض، وتحيط بها الجبال من كل جانب، وهي منطقة صالحة لأن تمتلئ بماء الطوفان قبل غيرها، فتعلو عليه سفينة نوح عليه السلام التي صنعها في نفس المكان.

القرينة الخامسة:

مكّة (أمّ القرى) هي أوَّل تجمُّع بشري في الأرض:

أورد ابن حجر العسقلاني في الفتح: "كتاب أحاديث الأنبياء": (إنّ آدم عليه السلام أوَّل مَن أسس المسجد الحرام بمكة، وذكر ابن هشام في كتاب (التيجان): أنّ آدم عليه السلام لمّا بنى الكعبة أمره الله تعالى بالسير إلى بيت المقدس، وأنْ يبنيه فبناه ونَسَك فيه) [1]

[1] ابن حجر العسقلاني في الفتح: "كتاب أحاديث الأنبياء"

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران: 96}: "آدم هو الذي أنشأه وأقامه، فهو أقدم من إبراهيم بأزمان بعيدة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ {البقرة: 125}، ففي قوله تعالى: (وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ) إشارة إلى أنّه كان بيتًا لله تعالى قبل أنْ يعهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التي عبدها العابدون فيه". [1]

ويقول أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ {البقرة: 127}: "وذِكْر رفع إبراهيم عليه السلام للقواعد يدل على أنها موجودة قبله، وإنما عمله الكشف عنها ورفعها والبناء عليها".

ومعلوم أنّ البيت الحرام الذي بمكة هو أوَّل بيت (مسجد) وضع للناس في الأرض، لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران: 96}، وفي الحديث

[1] تفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى 1970، المجلد الأول.

الصحيح أنّ أبا ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد في الأرض أوّل؟ أيْ للصلاة فيه، قال: المسجد الحرام)[1].

ومعلوم أيضًا أنّ آدم عليه السلام هو أوَّل البشر، وهو أوَّل مَن سكن الأرض من البشر، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ {الإسراء: 70}، فهو أبو البشر بداهة واتفاقًا، وهو الذي قال الله تعالى فيه: (إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ) {البقرة: 30}.

وعندما هبط آدم عليه السلام من الجنة التي أسكنه الله تعالى، فإنما هبط إلى مكان في الأرض يستقر فيه، ويعبد ربه فيه، ويؤدي دوره المستخلف فيه في هذه الأرض كما أمره الله تعالى، فكان مِن أوَل أعماله بناء البيت الحرام في الوادي الذي هبط إليه، وهو مكة المكرمة التي سمّاها الله تعالى (أمّ القرى)، حيث كان فيها أوّل تجمُّع بشري في الأرض ابتدأه آدم وزوجه عليهما السلام، ثم كان منهما الذرية والنسل.

وفي نفس السياق يقول الله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: 1-3}، فالله تعالى يقسم بالبلد الحرام (مكة) الذي كان أوّل تجمُّع بشري في الأرض، وكان مكانًا لهبوط آدم وزوجه عليهما السلام من الجنة، ويقسم سبحانه وتعالى بوالد وما ولد ﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴾ {البلد: 3}، أيْ بآدم وزوجه عليهما السلام، وهما أول

[1] صحيح البخاري 3366، وصحيح مسلم 520

والدٍ في البشر، ويقسم بذريتهما الذين كانوا أوَّل مَن سكنوا البلد الحرام (مكة) مع والديهم.

وبين القسم بالبلد الحرام والقسم بوالدٍ وما ولد، تأتي الآية: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ {البلد: 2}، في إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وعظمة الرسالة المحمدية التي انطلقت من مكة المكرمة، وهو نفس المكان الذي شهد بدايات التكاثر الإنساني، وبدايات الاستخلاف في الأرض.

ومن ذرية آدم عليه السلام جاء نوح عليه السلام بعد عشرة قرون، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون)[1]، وعشرة قرون مُدةٌ ليست بعيدة إذا قيست بعُمر الوجود الإنساني على هذه الأرض.

والقَرن يعني الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ {السجدة: 26}، ومعلوم أنّ الناس تُقَدِّر القرن زمنيًا بمائة سنة، وهذا يشير إلى أنّ المُدة بين آدم ونوح عليهما السلام كانت في حدود هذه القرون العشرة، والتي تُقدَّر بحوالي ألف سنة تقريبًا، بل إنّ القرن قد يكون أقل من مائة سنة، وهو ما يمكن أنْ نستنبطه من الحديث الصحيح، فعن

---

[1] الألباني، السلسلة الصحيحة 3289

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[1]، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعش مائة سنة ولا قريبًا منها، بل عاش ثلاثًا وستين سنة.

إنّ عدم طول المُدة الزمنية بين آدم ونوح عليهما السلام يجعلنا نُرجّح أنّ نوحًا عليه السلام كان يعيش وقومُه في المنطقة ذاتها التي عاش فيها آدم عليه السلام وأبناؤه وذريته من بعده، والذين كان منهم نوح عليه السلام، وهي منطقة مكة (أم القرى) وما حولها، وهو ما نجد مثله في قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ {الشورى: 7}، وكأنّ الآية تقول لنا: إنّه إذا كان نوح عليه السلام هو أوّل الرسل، فإنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل، وإذا كانت بداية الرسالات من (أمّ القرى) مكة، فإنّ الرسالة الخاتمة كانت كذلك في (أمّ القرى) مكة.

القرينة السادسة:

اندثار البيت الحرام (الكعبة) بسبب الطوفان:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ {البقرة: 24}.

[1] صححه الألباني/ تصحيح العقائد (36)

يخبرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأنه ابتلى نبيه إبراهيم عليه السلام بأوامر وأعمال يؤدّيها ويقوم بها، ليستحق بعد ذلك أنْ يكون للناس إمامًا، وأنّ إبراهيم عليه السلام قد استجاب لأمر ربه وكلماته، فقام بها وأدَّاها على أتمّ وجه، ومن هذه الكلمات والأوامر التي ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه السلام بها: أنْ يقوم برفع القواعد من البيت الحرام في مكانه الذي اختفى واندثر بسبب الطوفان الذي أرسله الله تعالى على الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

ولذا فإنّ الله تعالى قد بوَّأ لإبراهيم عليه السلام مكان البيت، وهداه إلى قواعده: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ {الحج: 26}.

إنّ اندثار البيت الحرام واختفاء مكانه كان بسبب الطوفان الذي حدث في منطقة مكة، والذي يظهر أنها كانت هي مركزية الطوفان وبداياته، حيث تم تدمير كل ما فيها من بيوت وأبنية، وخير شاهد على ذلك ما حدث للبيت الحرام.

وبعد هذه القرائن والأدلة المختلفة فإنه يمكننا القول:

لقد عاش نوح عليه السلام وقومه في منطقة مكة وما حولها في منطقة الجزيرة العربية، وهي التي سمّاها الله تعالى (أمَّ القرى)، وفيها استمرت دعوته لقومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومنها كانت بداية الطوفان.

وحملناه على ذات ألواح ودُسُر

لبث نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولقي منهم نفورًا وصَدًّا واستهزاء كثيرًا، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ {نوح: 23}، لكنهم مع كل محاولاته عليه السلام للتقرب منهم، وكسب قلوبهم، ظلّوا على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على عبادة الأصنام، ومعصية الله تعالى، فما آمن معه إلا قليل.

وفي خلال هذه المُدة الطويلة من دعوة نوح عليه السلام لقومه، أرسل الله تعالى لهم رسلًا آخرين لمساندة وتعزيز نوح عليه السلام لعلهم يؤمنون، لكنهم لم يستجيبوا، ولم يتغيروا، واستمروا في تكذيبهم لنوح ومَن معه من الرسل عليهم السلام، يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ {الشعراء: 125}، وهذا ما كان سببًا بعد ذلك في استحقاقهم لعقوبة ربهم وإغراقهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ {الفرقان: 37}.

عند ذلك شعر نوح عليه السلام بأنه مغلوب ولا حيلة له بهؤلاء الكافرين المجرمين، فتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء وطلبِ النُصرة قائلًا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ {القمر: 10}، ودعا على قومه: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾{نوح: 26}، فكانت استجابة الله تعالى لدعوة نوح عليه السلام ونَصره وإنجائه من الكافرين سريعة ومباشرة وفورية، فأمره بأنْ يصنع الفلك (السفينة) التي سينجو بها هو وأهله ومن آمن معه، يقول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ {هود: 36-37}.

ولم تكن هذه السفينة التي صنعها نوح عليه السلام سفينة كأيّ سفينة، فهي قد صُنعت على عين الله تعالى وبوحي منه: (وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا)، ولنا أنْ نتصور أنها كانت سفينة على أعلى درجات التقنية والتكنولوجيا في القوة والسرعة والسّعة والتطور، وما هذه السفن والبوارج والبواخر والغواصات التي تَمكّن الإنسان من صنعها في العصر الحديث، مع ما فيها من تطور وإمكانيات، إلا من جنس ما صنع نوح عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ

ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ {يس: 41-42}، وهو ما سنوضحه لاحقًا بإذن الله تعالى.

(وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ):

إنّ استخدام كلمة (ذات) في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ {القمر: 13}، يُلفت الانتباه إلى أنّ هذه السفينة ليست ككل السفن، فلم تكن تتحرك بالأشرعة والمجاديف، فهي ذات ألواح ودُسُر، وهذا يجعلها آيةً وتذكرةً للعالمين، فالذي خصّ هذ السفينة بالألواح والدُّسُر هو الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ {الحاقة: 12}، فالله تعالى يريدنا أنْ ننتبه ونتدبر ونتفكر في خلق هذه السفينة التي تميزت بالألواح والدُّسُر.

ولا نتصور أنّ هذه السفينة كانت تجري بالمؤمنين في هذا الطوفان العظيم بطريقة بدائية بواسطة الأشرعة والمجاديف اليدوية التي لا تناسب هذا الحجم العظيم من الماء الذي كانت أمواجه كالجبال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ {هود: 42}، وفي الوقت ذاته كان الماء يزيد ويرتفع مع كل لحظة، فالأرض تتفجر عيونًا، والسماء قد فُتحت أبوابها بماء منهمر: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ {القمر: 11-12}، إلى أنْ غرق كل

الكافرين، ونجّى الله نوحًا ومَن معه، واستوت بهم السفينة على الجودي: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ {هود: 44}، فهي إذن سفينة خاصة، لها ميزات خاصة، وقدرات عالية، وإمكانات فائقة عبّرت عنها الآية: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ {القمر: 13}.

في معظم كتب التفسير يذهب المفسرون رحمهم الله إلى أنّ الألواح هي ألواح من خشب، وأنّ الدُّسُر جمع (دِسَار) وهو المِسمار، وأنّ سفينة نوح عليه السلام كانت مصنوعة من ألواح الخشب المشدودة إلى بعضها بالمسامير أو بالحبال الغليظة.

ونتساءل:

هل صُنعُ السفينة من ألواح خشبية مشدودة ومثبتة بالمسامير، أو بالحبال الغليظة، يجعلها سفينة خاصّة ومتميزة؟

إنّ كل السفن القديمة كانت مصنوعة من ألواح من الخشب المشدود بالحبال والمسامير، فأين التمييز لسفينة نوح والذي توحي به كلمة (ذات) في قوله تعالى: (وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ)؟

إننا عندما نتدبر قول الله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ {هود: 37}، لا يخطر ببالنا إلا العظمة والإعجاز والقدرة والتميّز والدقة

ومخالفة المعهود والمألوف عند الناس، فهل يمكننا أنْ نجد كل هذا في سفينة كل ما يميزها أنها ذات ألواح خشبية ومسامير؟

أم أنّ الآية الكريمة ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ {القمر: 13}، تحمل لنا إشارات وآيات ودلالات عظيمة، ليقف عندها المؤمنون في كل زمان ومكان، فيعرفوا عظمة الله تعالى، فيعظِّمُوه ويوقّروه ويسبّحوه بكرةً وأصيلًا، وهي التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ {القمر: 15}.

فما هذه الألواح والدُّسُر؟

1. الألواح: جاء في المعجم الوسيط أنّ (ألواح) جمع (لَوح)، وهو: (كل صفيحة عريضة خشبًا كانت أو عظمًا أو غيرهما).

وهذا يعني أنّ اللوح يُطلَق على العظم والحديد والبلاستيك والحجر والذهب والماس والمعادن المختلفة... وغير ذلك، ويمكن أنْ يكون اللوح كبيرًا أو صغيرًا بحسب الحاجة إليه، ومن الأمثلة على الألواح في عصرنا الحديث:

- اللوح الذي يُعَد للكتابة عليه، مثل السبورة، ولوحة الإعلانات، وما شابه.

- اللوح من الخشب أو الحديد أو الزجاج أو البلاستيك المستخدم في صناعة الأبواب والشبابيك والجدران والأسقف وغيرها.

- لوحة المفاتيح في بعض الأجهزة، وما شابه.

- اللوح البلاستيكي أو المعدني المستخدم في المراوح والطواحين الهوائية بهدف تحريك الهواء أو الماء، وعادة تتكون هذه المراوح والطواحين من ثلاثة ألواح أو أكثر.

2. الدُّسُر: جاء في المعجم الوسيط: (دَسَر يَدْسُر دَسْرًا، أيْ أدخله فيه بقوة، ودفعه دفعًا شديدًا، ويقال: دَسَرت السفينة الماء، ويقال: دسره البحر، أي دفعه موج البحر وألقاه إلى الشط، والدِّسار: المسمار).

وإنما سُمّي المسمار دِسارًا لأنه يُدفَع بقوة وشدة وقهر.

- وقد جاء في تفسير (روح المعاني) للألوسي: "وأصل الدَّسْر: الدفع الشديد بقهر".

- وفي المُحَرَّر الوجيز لابن عطية قال: "والدفع عندي من الدفع المتتابع".

ومن خلال هذا المدلول اللغوي لكلمة: (دَسَر)، فإننا أمام تصور لوجود محرِّكات قوية دافعة في سفينة نوح عليه السلام، تقوم بدفع السفينة بقوة وشدة وقهر نحو الجهة المطلوبة.

وحتى نفهم المُراد بقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ {القمر: 13}، فإنه يَحسُن بنا أنْ نتعرف على كيفية عمل السفن والبواخر والبوارج الحديثة، وكيف تسير من غير تجديف، ومن غير أشرعة.

في السفن الحديثة يمكننا أنْ نقف على أمرين رئيسين في آلية وكيفية تحركها وجريانها في عباب البحار والمحيطات، وهما:

1. وجود محركات (موتورات)، أو مولِّدات ضخمة تقوم بتوليد الطاقة اللازمة لتحريك السفينة ودفعها للجهة المُراد التوجه نحوها، وهذه المحرّكات أو المولّدات موجودة في مناطق مختلفة من السفينة.

2. وجود (مَراوح) ضخمة في أماكن مختلفة من السفينة، تتحرك وتدور في الماء، فتدفع السفينة إلى الجهة المحددة، وبالسرعة المطلوبة، وكل (مِروحة) من هذه المراوح تستمد طاقتها اللازمة للحركة والدوران من محرّك من محرّكات السفينة موصول بها.

ومن خلال فهم المدلول اللغوي لكلمتي (ألواح) و (دُسُر)، ومن خلال فهمنا لآلية عمل السفن والبواخر، فإننا يمكن أنْ نفهم المُراد من قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ {القمر: 13}، على النحو التالي:

المُراد بكلمة (ألواح): هي مراوح السفينة التي تتحرك وتدور في الماء فتدفع السفينة إلى الجهة المحددة.

والمُراد بكلمة (دُسُر): هي المحركات التي تقوم بتوليد الطاقة اللازمة لتحريك مراوح السفينة ودفعها نحو الجهة المطلوبة.

إنّ هذا الفهم يدفعنا لمزيد من التدبر، ويجعلنا نقف على ما تميزت به سفينة نوح عليه السلام فعلًا، وأنها ذات ألواح ودُسُر تُميزها عن أيّ سفينة أخرى، وهو ما يجعلها آية للعالمين، وتذكرة تعيها كل أذنٌ واعية.

التماثُل المُذهِل: (وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ):

يقول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ {يس: 41-42}.

وفي الآية دليل واضح على أنّ سفينة نوح عليه السلام كان فيها مراوح ومحركات (ألواح ودسر)، وكانت مكونة من طبقات وأدوار متعددة، وكانت مغطاة بسقف يحميها، وكانت جميلة ومصقولة (مدهونة) بشكل جميل، وكان فيها كل ما يلزم الراكبين فيها من غرف وخدمات وأثاث ومعدّات وطعام وشراب، وغير ذلك مما يوجد في السفن الحديثة.

كل هذا نستنبطه من قوله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ {يس: 42}، حيث التماثُل المُذهل بين الفلك المشحون (سفينة نوح)، وبين ما خلق الله تعالى للبشر من بعد نوح عليه السلام، فالله يمُنّ عليهم بأنه هداهم إلى صناعة هذه السفن المتطورة بما فيها من محرّكات ومراوح وتكنولوجيا وإمكانيات عالية، كما هدى وأوحى إلى نوح عليه السلام قبلهم بصناعة السفينة، وهذا يعني أنّ كل ما يُمكن أنْ يتوصَّل

إليه البشر في صناعة السفن هو مِن مِثل الفلك الذي صنعه نوح عليه السلام، وأنّ كل ما يمكن أنْ يصل البشر إليه من علوم وصناعات فهو من خَلْق الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ {الصافات: 96}

وفار التَنّور

يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ {هود: 40}.

لقد أتمّ نوح عليه السلام صُنع الفلك الذي أمره الله تعالى أنْ يصنعه على عينه وبوحيٍ منه، وبَقِيَ أنْ يأتي أمره تعالى بالطوفان والقضاء على الكافرين المجرمين، ونجاة المؤمنين الموحّدين، وقد أعلمَ الله تعالى نوحًا عليه السلام بأنّ آية مجيء هذا الأمر أنْ يفور التنور، فإذا فار التنور فإنّ الأمر الإلهي قد جاء، ولا رادّ له، وأنّ عليه عندها أنْ يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ {هود: 40}.

فما هذا التنور الذي تتحدث عن الآيات؟

إنّ أوّل ما يُلفت النظر عند تأمّل كلمة (التنور) أنها جاءت مُعَرَّفة بأل التعريف، أو ما يُعرف في قواعد اللغة بـ (أل العهد)، وهو ما يُشير

إلى أنّ نوحًا عليه السلام كان يَعرف هذا التنور حق المعرفة، وأنه حاضر أمامه يمكنه ملاحظته ومراقبته في أيّ وقت.

وسنعرض فيما يلي إلى أهم الأقوال التي حاولتْ أنْ تُعطي لكلمة (التنور) تفسيرًا يُعيننا على تدبّر الآية الكريمة، وسنناقش هذه الأقوال بشكل علمي، وسنختار ما نراه الأقرب إلى الصواب وموافقة السياق بإذن الله تعالى.

القول الأول: التنور هو الفُرن الذي يُخبَز فيه:

ولا شك أنّ التعريف هنا تعريف ناقص، لتعدد وجود الفرن في بيوت الناس وأماكنهم مختلفة، فأيّ فرن هو المُراد في الآية الكريمة؟ خاصة أنه لا توجد قرينة تجعل الفرن بهذا المدلول معروفًا ومحددًا.

وفي الوقت نفسه فلا بدّ أنْ يكون هذا التنور مما يعرفه الناس ويفهمون معنى الفوران فيه، فإنه ليس مما اعتاده الناس في أفرانهم أنْ يفور منها الماء، وإنما يفور الماء عادة من العيون والقدور.

القول الثاني: التنور هو الفَجْر، والصُّبح، وطلوع الشمس:

وهو قول لا يتحقق فيه معنى الفوران الوارد في قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ)، فكيف يفور الفجر؟ وبم يفور؟ ثم إنه في كل يوم فجرٌ جديد، وصبحٌ جديد، فأيّ فجر هو المُراد في الآية الكريمة؟ وهذا يعني انتفاء التعريف والتعيين الذي توحي به كلمة (التنور).

القول الثالث: التنور هو وجه الأرض:

ولا يظهر في هذا القول تخصيص أو تحديد للأرض، ولا ذكر لما سيفور به وجه الأرض، والذي أراه أنّ العرب كانت تسمي وجه الأرض بالتنور لأنّ وجه الأرض عندهم في صحراء الجزيرة يشبه الفرن في شدة حرارته، ولا مُسوّغ هنا لأنْ نفهم قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) بأنه وجه الأرض.

القول الرابع: فار التنور: كناية عن اشتداد الأمر:

وهو كقولنا: (اشتد الأمر)، و(حمي الوطيس)، فالمعنى هنا مجازي، وليس على حقيقته، وهذا وإنْ كان موجودًا ومستعملًا في اللغة العربية، لكنه في الآية يتعلق بأمر الله تعالى الذي جاء لنُصرة نوح عليه السلام، وأنّ هذا الأمر له علامة وآية هي: فوران التنور، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ {هود: 40}.، فليس في الأمر كناية أو مجاز، فالتنور سيفور فعلًا، وسيخرج منه الماء بقوةٍ وفورانٍ علامةً ودلالةً على بدء الطوفان.

القول الخامس: التنور هو ثورة بركانية:

جاء في كتاب: (من آيات الإعجاز الإنبائي في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار: "وعندما جاء أمر الله بإغراق المشركين من قوم نوح فجّر الأرض بثورة بركانية، عبّر عنها القرآن الكريم بقول ربنا تبارك وتعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ)، وبعض البراكين المعاصرة تنفث بخار الماء

بنسب تزيد على 70%، مما يتصاعد من فوهاتها من غازات وأبخرة، ويرتفع هذا البخار إلى الطبقات العليا في نطاق المناخ، وهي طبقات باردة، حيث يتكثف ويعود للأرض مطرًا غزيرًا".[1]

وهو قول لا يمكن قبوله للاعتبارات التالية:

1. إنّ الثورة البركانية وحدها كافية لقلب الأمور، وإهلاك الناس مؤمنهم وكافرهم، وقد يرافقها أو يتبعها زلازل وتصدعات أرضية لا تُبقي ولا تذر، وهي لوحدها عذاب من الله تعالى، وهذا ما لا نفهمه من الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ {هود: 40}، حيث إنّ فوران التنور سيكون علامةً لنوح عليه السلام ليحمل في سفينته من كلٍّ زوجين اثنين، وأهله، ومن آمن معه، وليس عذابًا للكافرين.

2. لا نعلم بم ستأتي هذه الثورة البركانية، وبم ستفور! هل ستفور بمعادن منصهرة تغطي المنطقة، وتغير من طبيعتها؟ أم ستفور بغازات ضبابية تحجب الرؤية؟ أم أنها ستفور بنار تحرق الأخضر واليابس؟ وهو ما لا تحتمله الآية الكريمة، بل ويتعارض مع كون فوران التنور علامة وآية على بدء الطوفان.

---

[1] (من آيات الإعجاز الإنبائي في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار: الجزء الأول، صفحة 171، دار المعرفة – بيروت – لبنان 2010

3. إنّ الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ {هود: 40}، تُشير بوضوح إلى أنّ أمر الله تعالى لنوح عليه السلام بأنْ يحمل في سفينته من كلٍّ زوجين اثنين وأهله ومَن آمن معه، كان متزامنًا مع فَوران التنور، فلو أخذنا بهذا القول بأنّ التنور ثورة بركانية، فكيف سيكون التحميل في السفينة مع استمرار هذه البراكين الثائرة، والأمطار المنهمرة؟!

4. إنّ الأمر الذي تتحدث عنه الآية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ {هود: 40}، هو أمرٌ بالطوفان لإغراق قوم نوح الكافرين، وإنجاء نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وقد عبّرت آيات القرآن الكريم عن شكل وآليات هذا الطوفان بأنه كان عيونًا في الأرض تتفجر بالماء، وماءً ينهمر من أبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ {القمر: 10-12}، فلم تُشِر هذه الآيات أو غيرها إلى حدوث شيء قبل هذا الطوفان، ولم تحدث زلازل، ولم تحدث ثورات بركانية، ولا ينبغي أنْ نُحمِّل الآيات القرآنية ما لا تحتمل.

القول السادس: التنور هو مُحرِّك بُخاريّ:

وهو قول للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره (زهرة التفاسير)، يقول: (وقد عرض لي خاطرٌ أذكره، وهو أنّ التنور في السفينة، وأنه فار

وخرج منه بخار حرّك السفينة للسير، فهي قد سارت بالبخار، لا بالتجديف أو الرياح، إذ لم يذكر هنا، ولكن ذكر فقط التنور وفورانه)[1].

وهو بلا شك قولٌ يدل على سعة أفق، وغزير علم لدى الشيخ رحمه الله، لكننا يمكن مناقشة هذا القول بملاحظات منها:

1. تشير الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ {هود: 40}، إلى أنّ فوران التنور كان جزءًا من الأمر الإلهي حيث تفجرت الأرض عيونًا، وكان علامةً على بدء الطوفان: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ).

2. لا بد أنْ يكون التنور المُراد في الآية معروفًا لنوح عليه السلام، وللمتكلمين في زمانه، على أنه التنور، وأنه جزء من البيئة المعروفة في المحيط الذي يقيم فيه نوح عليه السلام، وأنّه عليه السلام سيرى هذا التنور يفور قبل أنْ يحمل أحدًا في السفينة، وليس عند تحركها.

3. إنّ قوله تعالى: (ٱحۡمِلۡ فِيهَا) يُوحي بأنّ هذا الحَمل أمرٌ للنجاة من فوران التنور بركوب السفينة، ويُستبعد أنْ يكون المُراد بالتنور هنا محرِّكًا بخاريًّا موجودًا داخل السفينة.

4. إنّ كلمة (دُسُر) في قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ {القمر: 13}، هي الأقرب لمعنى المُحرِّكات التي تدفع السفينة، حيث إنّ

[1] تفسير زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة، الجزء السابع، صفحة 3709، دار الفكر العربي

الدَّسْر يعني الدفع بقوة وشدّة وقهر، وهو ما يتوافق مع القول بأنّ (الدُّسُر) هي محركات لدفع السفينة كما ذكرنا سابقًا في هذا الكتاب، وليس التنور الذي من أشهر وأهم معانيه واستعمالاته المعروفة عند العرب: عين الماء، ومَفجَر الماء.

5. الفَوَران في لغة العرب يناسب الماء المتدفق والجاري كما في معاجم اللغة، وليس البخار، وقد جاء في المعجم الوسيط: (فار الماء: فورًا وفورانًا، أي: خرج من الأرض وجرى متدفقًا، ونقول: فار الماء من العين)، وهذا المدلول اللغوي لا يناسب المحرك البخاريّ.

6. الآية الكريمة ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ {هود: 37}، تشير إلى أنّ هذه السفينة مصنوعة بإمكانات وتقنيات أعلى وأكثر تطورًا من أنْ تكون سفينة بخارية، ونحن نرى اليوم البوارج والسفن الحديثة كيف أنها تعمل بمحرِّكات لا يرى الناس لها شيئًا من الفوران ولا البخار ولا الدخان، فكيف بسفينة صنعها نوح عليه السلام على عين الله تعالى، وبوحيٍ منه عزّ وجلّ؟!

القول السابع: التنور هو عين زمزم:

على الرغم من اختلاف التفسيرات، وتعدد الأقوال في تفسير قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ)، إلا أننا لا نكاد نجد كتاب تفسير يخلو من تعريف التنور على أنه (عين الماء)، أو (كل مفجر ماء)، أو (وجه الأرض الذي يفور بالماء)، وقد ذكر القاسمي في تفسيره ما يجمع هذه

المعاني، قال: (وفار التنور: أيْ وجه الأرض، أو كلّ مَفْجَر ماء، أو محفل ماء الوادي، أو عين ماء معروفة).[1]

ونجد الأمر نفسه في معظم المعاجم اللغوية المعتبرة، حيث تذكر بأنّ من معاني التنور وتعريفاته أنه: (عين الماء) و(مَفجر الماء).

وهذا يُرجِّح عندنا أنّ المُراد بالتنور في قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) هو: عين ماء متفجرة في المنطقة التي يقيم بها نوح عليه السلام، وأنّ الله تعالى جعل هذه العين تفور ويعلو ماؤها علامةً وآيةً على مجيء أمر الله تعالى بالطوفان، يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ {هود: 40}، أيْ يا نوح، إذا رأيت هذه العين يعلو ويفور ماؤها إلى الأعلى بقوة وتدفُّق، على غير عادتها وهيئتها المألوفة، فاعلم أنّ أمر الله تعالى قد جاء، فاحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، وأهلك إلا مَن سبق عليه القول، ومَن آمن.

ومعلوم أنّ كلمة (فار) في قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) تفيد معنى التدفُّق والارتفاع بقوة، والفَوران ضَرْبٌ من الحركة والارتفاع القويّ، وقد جاء في البحر المحيط لأبي حيان: (فار الماء، أيْ: انبعث بقوة).

[1] محمد جمال الدين القاسمي (تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل)، ج 6، ص 86، دار التوفيقية للتراث، القاهرة 2011

وبالرجوع إلى البيئة المحيطة التي عاش فيها نوح عليه السلام وقومُه، فإننا نجد أنه عاش في مكة (أمّ القرى)، حيث البيت الحرام الذي بناه آدم عليه السلام، وعلى مسافة قريبة من هذا البيت كانت (عين زمزم)، والتي هي مَفْجَر ماء معروف لنوح عليه السلام، ولكل أهل مكة من قومه، ومن أهل الجزيرة العربية.

ومما يدفعنا للقول بأنّ عين زمزم كانت موجودة في زمن نوح عليه السلام، هو أنها رُدمت واختفت، كما هُدم واختفى البيت الحرام واندثرت معالمه بسبب الطوفان العظيم، وأنّ هذه العين قد عادت ليتفجّر منها الماء في زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام، عندما أَسْكَن زوجَه هاجر وولده إسماعيل عند بيت الله المحرم، حيث بَحَث عنها المَلّك المُرسَل من الله، وكَشَفَها بعَقِبِه أو جناحه عندما كانت هاجر عليها السلام تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء، كما جاء في الحديث الصحيح:

عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(... وجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إسْمَاعِيلَ وتَشْرَبُ مِن ذلكَ المَاءِ، حتَّى إذَا نَفِدَ ما في السِّقَاءِ عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنُهَا، وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهيةَ أَنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ في الأرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حتَّى إذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ المَجْهُودِ حتَّى

جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا ونَظَرَتْ هلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذلكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فَذلكَ سَعْيُ النَّاسِ بيْنَهُما فَلَمَّا أَشْرَفَتْ علَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقالَتْ صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقالَتْ: قدْ أَسْمَعْتَ إنْ كانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هي بالمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بعَقِبِهِ، أَوْ قالَ بجَنَاحِهِ، حتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وتَقُولُ بيَدِهَا هَكَذَا، وجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ في سِقَائِهَا وهو يَفُورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ...)[1].

وفي الحديث يُمكننا الوقوف عند عدة أمور:

1. قوله صلى الله عليه وسلم: (فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو جناحه حتى ظهر الماء) يشير إلى أنّ العين كانت موجودة في المكان، ولكنها مردومة وغير ظاهرة أو معروفة، وأنّ الذي كشف عنها هو المَلَك المُرسَل من الله تعالى.

2. قوله عليه الصلاة والسلام: (فبحث بعَقِبِه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء)، يدل على حدوث عملية بحث وحفر قام بها المَلَك، بعَقِبِه أو بجناحه حتى ظهر الماء، وهذا يوحي بأنّ العين قديمة في المكان، وأنها تعرضت للردم وطول المدة، وقد تطلَّب الأمر حفرًا من المَلَك إلى أنْ ظهر الماء.

---

(1) صحيح البخاري 3364

3. إنّ اختفاء عين زمزم قد حدث بعد الطوفان، وكان هذا بسبب رَدْمِها ودَرْسِها، فلم يعرف أحدٌ بوجودها، ولم يكن إبراهيم عليه السلام يعرف بوجودها ومكانها، فهو الذي قال الله تعالى على لسانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ {إبراهيم: 37}، ولم يكن عليه السلام يعرف أيضًا مكان البيت عندما أمره الله تعالى في وقت لاحق بأنْ يرفع القواعد من البيت، لذا يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ {الحج: 26}، فاختفاء البيت واختفاء عين زمزم كان بسبب الطوفان الذي غمر المكان.

4. إنّ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (وجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ في سِقَائِهَا وهو يَفُورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ) يدلّ على أنّ الفوران إنما يخصّ الماء الذي يتفجّر من عيون الأرض، وأنّ العين المقصودة في الحديث هي (عين زمزم) التي أظهرها المَلَك بجناحه، وهو ما يُعيننا على فهم المُراد من قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) أنه ماء عين زمزم الذي رآه نوح عليه السلام يتفجر ويفور علامةً على مجيء أمر الله تعالى وبدء الطوفان.

إنّ هذه الأدلة والقرائن السابقة تجعلنا نذهب إلى القول بأنّ أغلب الظن أنّ المُراد بالتنور في قوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) هو عين زمزم المعروفة، والموجودة في مكة بالقرب من البيت الحرام الذي بناه آدم عليه السلام.

مِن كلٍّ زوجين اثنين

يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ {هود: 40}.

تُخبرنا الآية الكريمة بأنّ نوحًا عليه السلام قد تلَقَّى أمرًا من الله تعالى بأنْ يحمل في سفينته من كلٍّ زوجين اثنين، وأهله، ومَن آمن معه، قبل أنْ يعلو الماء، ويعُم الطوفان ويغمر كل شيء، ويُغرق كل الكافرين الذين تَحَدَّوْا ربهم، وعَصَوْا رسولهم طوال مُدة استمرت ألف سنة إلا خمسين عامًا.

فما هذه الأزواج التي حملها نوح عليه السلام في سفينته؟

ولماذا أمره الله تعالى بحملها معه في السفينة؟

في كثير من كتب التفسير يذهب المفسرون إلى القول بأنّ هذه الأزواج كانت من كلّ أنواع الحيوانات التي تدُب على الأرض، وأنّ كلمة زوجين تعني كل الذكور والإناث من هذه الحيوانات، الوحوش منها وغير الوحوش، والطيور، والزواحف، والحشرات، وغير ذلك، وهو قول مأخوذٌ من الإسرائيليات وقِصَص القُصَّاص، ولا دليل عليه من القرآن الكريم، أو الحديث الصحيح، أو اللسان العربيّ المبين.

- فهل حمل نوح عليه السلام من كل هذه الأزواج معه في السفينة؟

- هل حمل من كل أنواع السِّباع، والأفيال، والخيول والحمير، والوحوش البرية؟

- هل حمل من العقارب، والحيّات، والفئران، والقنافذ، والزواحف بأنواعها الكثيرة؟

- هل حمل من الطيور، والحشرات، وغير ذلك من الدواب والكائنات؟ وهل تتسع السفينة لكل هذه الأزواج على كثرتها واختلافها؟

- وماذا سيستفيد نوح عليه السلام من كل هذه الكائنات والأزواج المختلفة إنْ حَمَلها معه؟

ليس لدينا نصوص من القرآن والسُّنة الصحيحة تدل على أنّ الله تعالى قد أمر نبيه نوحًا عليه السلام بأنْ يحمل معه من كل الأنواع والمخلوقات والكائنات الحيّة، ولكنه سبحانه قال له: ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ {هود: 40}، وهو ما سنُفصّل فيه بإذن الله.

فما المُراد بقوله تعالى: (مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ)؟

يقول الله تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ

ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ ﴾ {الأنعام: 143-144}.

في الآيتين السابقتين حديث عن الأزواج التي هيّأها الله تعالى للإنسان في الأرض، وأنها ثمانية أزواج: (من الضَّأن اثنين، ومن المَعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين)، وقد كانت هذه الأزواج الثمانية من الأنعام معروفة لنوح عليه السلام، فهي الأزواج التي يعتمد عليها الناس في حياتهم ومعاشهم، وهي التي أنزلها الله تعالى لآدم عليه السلام من قبل، لتكون عَوْنًا له في معاشه وحياته في بداية استخلافه في الأرض، وليست الوحوش والزواحف وحيوان البرّ والبحر، يقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ ﴾ {الزمر: 6}.

وهو ما تُوحي به الآية: (مِن كُلِّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ) أنّ هذه الأزواج معروفة ومحدّدة، وأنّها ثمانية أزواج لا أكثر، والله تعالى يقول لنوح عليه السلام: ﴿ ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ {هود: 40}، أيْ من هذه الأزواج التي تعرفها، فالتنوين في كلمة (كُلِّ) هو تنوين العِوض الذي يفيد التعريف، فهو سيحمل معه (زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ) من هذه الأزواج الثمانية لا من غيرها.

ولا مُسوّغ لأحد أنْ يفهم من الآية غير هذا، فالله تعالى لم يأمر نوحًا عليه السلام بأنْ يحمل معه من السّباع، والوحوش، والحيّات، والعقارب، والفِيَلَة، والزواحف، والكائنات التي لا تلزم الناس في معاشهم، ولكنه سبحانه يأمره بأنْ يحمل من هذه الأزواج الثمانية من الأنعام التي أنزلها من السماء، والتي لا يستغني عنها البشر في حِلِّهم وترحالهم، فهم يعتمدون عليها في مختلف شئون حياتهم.

فما كان لنوح عليه السلام أنْ يترك المكان الذي فيه قومه، وينجو هو ومن معه من المؤمنين بهذه السفينة، ويترك الأنعام فلا يأخذ من جنسها معه من كلٍّ زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، واللافت للنظر في الآية أنّ ذِكر هذه الأزواج الثمانية قد جاء قبل ذِكر أهل نوح ومن آمن معه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ {هود: 40}، وهذا إنْ دلّ على شيء فإنما يدل على مدى أهميتها للبشر، ومدى ارتباط حياتهم بها، وأنّ الله تعالى يريد لنوح عليه السلام أنْ يضمن للمؤمنين معه المقوِّمات الحياتية التي أودعها الله في الأنعام، وخاصة عند الانتقال إلى الأرض الجديدة التي ستستوي عليها سفينتهم بعد النجاة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا

إِلَىٰ حِينٍ﴾ {النحل: 80}، فالناس في حاجة دائمة للأنعام، ولا يمكنهم الاستغناء عنها، وهو ما صرّحت به الآية: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ {النحل: 66}.

وبعد هذا التفصيل نقول: إنّ نوحًا عليه السلام حمل معه في السفينة ثمانية أزواج: زوجين من الضَّأن ذكرًا وأنثى، وزوجين من المَعز ذكرًا وأنثى، وزوجين من الإبل ذكرًا وأنثى، وزوجين من البقر ذكرًا وأنثى، وهي الأنعام التي أنزلها الله تعالى للناس من السماء إلى الأرض كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ {الزمر: 6}، فعليها يعتمد الناس في معاشهم، ومنها يكون التقرّب إلى الله تعالى في نحر الهَدْي والأضاحي والنذور، لا من غيرها.

واسْتَوتْ على الجُودِيّ

يقول الله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {هود: 44}

في الآية الكريمة إيذانٌ بانقضاء أمر الله تعالى بإغراق القوم الظالمين، وإنجاء نوح عليه السلام، ومَن معه من المؤمنين، واستواء سفينتهم على الجُوديّ.

فأين استوت سفينة نوح عليه السلام؟

وما المُراد بالجُوديّ؟

في معظم كتب التفسير نجد أنّ المفسرين يتفقون على أنّ (الجُوديّ) جبلٌ قد استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ولكنهم يختلفون في تحديد مكان الجوديّ على النحو التالي:

1. الجُوديّ: جبلٌ بالمَوصِل في أرض العراق.
2. الجُوديّ: جبلُ (أَرارات) بين تركيا وأرمينيا.
3. الجُوديّ: جبلُ (باقردي) في أرض الجزيرة العربية.
4. الجُوديّ: جبلٌ في الهند.
5. الجُوديّ: جبلٌ في الشام، أو جبلٌ في اليمن، وأقوالٌ أخرى مختلفة.

وكلّ هذه الأقوال لا تعدو أنْ تكون أقوالَ بشرٍ لا تستند إلى دليل من القرآن الكريم، أو من السُّنة الصحيحة، ولا تعتمد على قرائنَ تصلُح للاستئناس بها.

وإذا أردنا أنْ نعرف مكان استواء السفينة، وفَهْم المُراد بالجُوديّ الذي هبط عليه نوح عليه السلام بسفينته، فلا بدّ من الرجوع إلى الآيات التي تناولت الحديث عن نوح عليه السلام في القرآن الكريم، فالقرآن نفسه يعطينا إضاءاتٍ وإشارات تُعيننا على فهم ما استعصى علينا فهمه في بعض الآيات، وتفتح لنا أبوابًا من العلم الذي يكشف لنا كثيرًا مما كان غامضًا علينا.

في سورة (المؤمنون) يبين لنا الله تعالى بشكل لا يقبل الردّ، ولا يصحّ معه الاجتهاد، أنّ المكان الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام كان مكانًا ومُنزلًا مُباركًا، وأنه عليه السلام لم ينزل بأرض عادية ككل الأرض، بل نزل بأرض مباركة، ومكان مبارك، يقول الله تعالى مخاطبًا نوحًا عليه السلام: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ {المؤمنون: 29}، فالمُنزَل الذي نزل به نوح عليه السلام مُنزَلٌ مبارك، بأرض مباركة.

وعند رجوعنا إلى القرآن الكريم للبحث عن هذا المُنزَل المُبارك، فإننا يمكننا الوقوف عند مكانين مباركين لا ثالث لهما، تتحدث آيات القرآن عن بركتهما، وأنهما مباركان من الله تعالى، وهما:

المكان الأول:

البيت الحرام في مكة:

فالبيت الحرام بيتٌ مبارك، وهو هدًى للعالمين، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران: 96}، ولكننا لا نظنّ أنّ يكون هذا البيت الحرام هو المُنزَل المبارك المقصود في دعاء نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ {المؤمنون: 29}، فهو في المنطقة التي كان يقيم فيها نوح عليه السلام، وهو منطلق رسالته، ومنه كانت بداية الطوفان، ولا يصلُح أنْ يكون هو المُنزَل المبارك الذي دعا نوح عليه السلام ربه أنْ يُنزِله فيه، وتستوي عليه سفينته بسلام.

المكان الثاني:

الأرض المباركة فلسطين (بيت المقدس وما حوله):

وقد وردت عدة آيات تذكر فلسطين بأنها أرض مباركة، ومنها:

1. يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ {الإسراء: 1}، ومعلوم أنّ المسجد الأقصى في بيت المقدس (القدس) بفلسطين، فهي أرض مباركة، ومُنزل مبارك.

2. يقول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ {الأنبياء: 71}، ومعلوم أنّ الأرض المباركة المذكورة في الآية هي أرض فلسطين، ومعلوم أنّ إبراهيم عليه السلام قد هاجر إلى فلسطين واستقرّ في منطقة الخليل بها، ولا يزال الحرم الإبراهيمي شاهدًا على وجوده عليه السلام، وأنّ لوطًا عليه السلام قد هاجر إلى فلسطين أيضًا، وأنه كان في منطقة (سَدُوم) بأريحا، وقصته مع قومه معروفة.

3. يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ {سبأ: 18}، والآية تتحدث عن قوم سبإ الذين يسَّر الله لهم الطريق بينهم وبين الأرض المباركة فلسطين، فجعل على طريقهم قُرًى وتجمُّعات سكانية تجعل السفر إلى فلسطين سهلًا، فلم يكونوا في حاجة لحمل الزاد، فما يبرحون قرية إلا ويصلون إلى أخرى.

هذه الآيات وغيرها تجعلنا على يقين من أنّ الله تعالى قد أنزل نوحًا عليه السلام بمكان ما من الأرض المباركة فلسطين، والاحتمال الأقوى أنْ يكون المُراد بالمُنزَل المبارك هو بيت المقدس، فهو محور البركة ومركزها.

ولا يوجد مكان في كل الأرض يمكن أنْ نقول إنه مُنزَل مبارك بعد بيت الله الحرام إلا أرض فلسطين، وما كان حول المسجد الأقصى من

أرض الشام وأكناف بيت المقدس، ولذا فلا يمكن أنْ يكون نوح عليه السلام قد نزل في أرض غير مباركة.

وإنّ السياق الذي جاء فيه الحديث عن استواء سفينة نوح عليه السلام بهذا المُنزَل المبارك (الأرض المباركة)، هو سياق الحديث عن نجاة نوح عليه السلام ومَن معه من المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ {العنكبوت: 15}، وهو ما يحملنا على القول: إنّ فلسطين هي الأرض المباركة، وهي أرض النجاة والاجتباء، فالله نجّي إليها نوحًا عليه السلام، ثم نجّي إليها إبراهيم ولوطًا عليهما السلام، ثم نجّي إليها بني إسرائيل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ {الأعراف: 137}، ثم أسْرَى الله تعالى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم إليها ليلًا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ {الإسراء: 1}، والإسراءُ إليها نجاةٌ واجتباء.

إشارة تستحق التأمُّل:

في سورة الإسراء إشارة واضحة إلى أنّ نوحًا عليه السلام قد نجّاه الله تعالى إلى الأرض المباركة، وأنّ موسى عليه السلام قد أرسله الله إلى

بني إسرائيل الذين سيُفسدون في الأرض مرتين من بعده، وهؤلاء هم أنفسهم ذرية الذين حملهم نوح عليه السلام معه إلى الأرض المباركة فلسطين، يقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ {الإسراء: 2-3}.

ما المُراد بالجُوديّ:

الجُوديّ: نِسبةٌ للجُود، وهو كثرة العطاء وسَعَته بلا عِوَض، والجُود: الكرم بسخاء، ويُقال للمطر الغزير جَوْد لما فيه من الخير الكثير.

وعندما نعلم أنّ نوحًا عليه السلام قد نجّاه الله تعالى ومَن معه مِن المؤمنين إلى الأرض المباركة، وأنّ سفينته استوت على الجُوديّ، فإنّ هذا يعني أنّه نزل بأرض الخير الكثير والنِّعمة والجُود والبركة، فالسلام والبركات من الله تعالى لنوح عليه السلام، ولمَن معه الذين يهبطون إلى الأرض المباركة، حيث الجُودُ والعطاء والبركات.

يعملونَ له ما يشاءُ مِن مَحاريبَ وتماثيلَ

يقول الله تعالى: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ {سبأ: 13}.

هذه الآية تتحدث عن سليمان المَلِك النبي عليه السلام، الذي دعا الله تعالى فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ {ص: 35}، فوهب الله تعالى له هذا المُلك، وسخر له الرّيح، وسخر له الجنّ الذين تتحدث عنهم الآية: (يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ).

وهؤلاء الجنّ هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ ﴾ {ص: 36-37}، فالجنّ قد سَخّرَهُم الله تعالى يتَلقَوْن الأمر من سليمان عليه السلام، فيعملون بين يديه، فيغوصون أينما يريد وكما يريد، ويبنُون له ما يشاء بإذن الله تعالى، وهذا ما لم يملكه غير سليمان عليه السلام، وهو ما نجده في الآية: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ {سبأ: 12}.

وما كان لسليمان عليه السلام أنْ يأمر الجنّ بعمل وصناعة أشياء إلا بما يعود على دعوته ونبوته ودولته العادلة بالقوة والمَنَعة والصلاح، فهو نبيٌّ كريمٌ مُوحى إليه، وهو مَلِكٌ عادلٌ صادقٌ أمين، ولذا نجد أنّ الله تعالى يقول له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ {ص: 39}.

يقول الله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ {سبأ: 13}.

في الآية الكريمة إشارة إلى أنّ هذه الأشياء لم تكن موجودة قبل سليمان عليه السلام، كما سيتبين لاحقًا، وأنه عليه السلام أراد الاستفادة من الجنّ الذين سخرهم الله تعالى له يطيعونه ويلتزمون أمره، فهُم يملكون من الطاقة والقدرات ما لا يملكه الإنسان، وهم أسرعُ حركةً، وأقدر على الوصول إلى أماكن لا يصل إليها الإنسان، وأكثر قوةً على الحمل، والنقل، والبناء، والغوص، والعمل.

فما هذه المحاريب، والتماثيل، والجفان، والقدور الراسيات؟

ولماذا أمر سليمان عليه السلام الجنّ بصناعتها له؟

أولًا: محاريب:

تعدَّدت الأقوال في بيان المُراد بقوله تعالى: (مَّحَٰرِيبَ)، وفي سبب حاجة سليمان عليه السلام لها، وسنذكر هنا أهم هذه الأقوال، وسنناقش

مدى موافقتها للسياق الذي جاءت فيه، لنعرف ماذا كان يريد سليمان عليه السلام من الجنّ، وكيف كان يريد أنْ يستفيد من قدراتهم وإمكانياتهم:

1. المِحراب هو مكان العبادة:

وهو كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ {آل عمران: 37}، وهو هنا مكان العبادة والصلاة والخلوات، وسُمّي محرابًا لأنّ الإنسان في المحراب يحارب وساوس الشيطان، ووساوس نفسه، ويجبر نفسه الأمارة بالسُّوء على ترك السُّوء، ويقهرها على التزام الصبر وفعل الخير والبُعد عن الشّر.

فهل المُراد بقوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ {سبأ: 13}، أنّ سليمان عليه السلام طلب من الجنّ أنْ يعملوا له هذا النوع من المحاريب المخصَّصة للعبادة؟ والتي يقوم بعملها الناس بكل سهولة ويُسر، دون الحاجة إلى الاستعانة بقدرات الجن!

2. المِحراب هو القلعة والحِصن:

وهو القلعة العالية، أو الحِصن المرتفع الذي يتحصّن فيه الناس في وقت الحروب خاصّة، ومن داخله يمكن لهم أنْ يدافعوا عن أنفسهم، ويحاربوا من يعتدي عليهم.

وقد كان الناس في زمن سليمان وقبله وبعده يتخذون هذه القلاع والحصون، دون الحاجة إلى مساعدة الجنّ في بنائها، لكنّه لا يُستبعَد أنْ يكون سليمان عليه السلام قد أراد من الجنّ أنْ يبنوا له مثل هذه القلاع، خاصة أنّ الله تعالى قد ذكر أنّ من صفات الجنّ المسخرين لسليمان عليه السلام البناء والغوص كما قوله تعالى: (وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ).

3. مرابِض فوق الأسوار:

والمِحراب هنا ما يُوضع فوق أسوار الحصون والقلاع والمُدن من مرابض خاصّة بالجنود، حيث يرابط الجنود فوقها لحراسة المدينة، ومراقبة العدو خارجها، وللمحاريب فوق الأسوار فتحات ينظر منها الجنود، ويصوّبون أسهمهم نحو العدو، فهي محاريب لأنها مرابض للحرب، في أماكن عالية ومرتفعة.

إنّ كل هذه الأقوال أقوالٌ مقبولة، ولا مُسوّغ لردِّها، فالله تعالى سخّر الجنَّ لسليمان عليه السلام ليعملوا له ما يريد، فهم في خدمته وطاعته، والناس فعلًا يستخدمون المحاريب في هذه السياقات المختلفة، ولكنّ الأمر هنا يتعلق أيضًا بقدراتٍ خاصّة وهبها الله تعالى للجنِ في التعامل مع المعادن كالنحاس والحديد وغيرها، في الصهر والصناعة، وأرى أنّ كلمة (مَّحَٰرِيبَ) لها علاقة وثيقة بما جاء بعدها في الآية وهي: (وَتَمَٰثِيلَ) و(وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ) و(وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ).

وعندما نرجع إلى اللغة المجردة نجد أنّ كلمة (مِحراب) جاءت على وزن مِفعال، وهي مثل: مِفتاح، الذي يُسمِّيه علماء اللغة (اسم آلة)، فهو أداة الفتح، وكذلك كلمة (مِحراب) فهي اسم آلة، وأداة للحرب، مثل: السيف والسهم والرمح والبندقية والمِدفع والصاروخ والدبّابة والقذيفة والقنبلة... وغير ذلك.

وأرى أنّ سليمان عليه السلام قد أمر الجنَّ الذين سخَّرَهم الله تعالى له، أنْ يعملوا له آلات حرب متطورة، وأدواتٍ قتالية مختلفة لا يملكها أعداؤه، فهو يأمرهم بصناعة مجانيق متطورة، وقاذفات لا تعرفها جيوش الدول المعادية، وعجلات، وآليات عسكرية لا نعلمها، لكنها تُظهر قوته وقوة دولته، خاصّة أنه يملك الحديد والنحاس (القِطر)، ولديه من الثروات والمواد الخام ما يؤهله لأنْ يكون صاحب دولة متطورة صناعيًا، وقوية عسكريًا، وهو يسعى لأنْ تكون دولته منيعة، عَصِيَّة، ذات هَيْبَة، ولذا فهو يأمر الجنّ بالاستفادة من هذه الثروات في صناعة المحاريب التي هي آلات وأدوات الحرب المتطورة.

ثانيًا: وتماثيل:

التمثال في اللغة: صورة الشيء، وهو اسم للشيء المصنوع على صورة خَلْق من خَلْق الله تعالى، يقول القرطبي: التمثال كل ما صُوّر على مثل صورة من حيوان، أو غير حيوان).

فما هذه التماثيل؟

ولماذا كان سليمان عليه السلام يأمر الجنَّ أنْ يعملوا له تماثيل؟

انطلاقًا من المدلول اللغوي السابق لكلمة (تماثيل)، وأنها تعني صورة الشيء ومثلَه، فإنّ الأمر يحتمل عدة احتمالات، على النحو التالي:

الاحتمال الأول:

لقد عاش سليمان عليه السلام في زمن كانت الشعوب فيه تتخذ من التماثيل رموزًا لها، لتدل عليها، وعلى مُلكها وقوتها أو ما تشتهر به، ويُحتمَل أنه عليه السلام كان يأمر الجنّ بعمل هذه التماثيل لتدلّ على قوته وقوة دولته، وقوة جيشه وجنوده من الجنِّ والإنس والطير، وأنّ مُلكه واسعٌ وكبير، وأغلب الظن بحسب هذا الاحتمال أنه عليه السلام كان يأخذ معه هذه التماثيل في حروبه وغزواته، فيكون معه تماثيل لأسود، وفهود، ونمور، وفِيَلة، ونسور، وصقور، وهو ما كان من عادات الشعوب في حروبها.

وقد كانت كثير من الشعوب تتخذ من التماثيل رموزًا للقوة والمَنَعَة، فالفراعنة المصريون اتخذوا تمثال (أبي الهول) رمزًا للقوة والعقل، فقد جعلوا رأسه رأس إنسان، وهو ما يرمز إلى العقل والذكاء والحكمة، وجعلوا جسده جسد أسد، وهو ما يرمز إلى القوة والمَنَعَة، ولا تزال بعض

الدول في العصر الحديث تتخذ تماثيل للأسود وغير ذلك من الطيور، ما يرمزون به إلى القوة، ويضعونها في الميادين.

وهذا الاحتمال احتمالٌ مقبول استنادًا إلى المدلول اللغوي لكلمة: (تماثيل)، وهو يجعل سليمان عليه السلام يُظهر قوته لأتباعه، ويرفع معنوياتهم ويُقوِّي نفوسهم، ومن ناحية أخرى فإنه يُرهب أعداءه من خلال هذه التماثيل التي ترمز للقوة والمَنَعَة.

وهو في الوقت ذاته لا يُشبه غيرَه من الملوك الذين يتخذون هذه التماثيل، وذلك بما وهبه الله تعالى من مُلكٍ عظيمٍ لا ينبغي لأحد من بعده، فقد قال عليه السلام لرسول ملِكة سبإ الذي جاءه منها بهدية: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ {النمل: 37}، لكنّ اتّخاذه للتماثيل بهذا المعنى يُمكِّنه من إظهار قوَّته وقدراته التي وهبها الله تعالى له، ويزيد في تخويف أعدائه.

الاحتمال الثاني:

أنْ يكون التمثال بمعنى: (نموذج)، وهو تصوُّر ذهني لجسم معين، أو أدوات معينة يُراد صناعتها، فدولة سليمان عليه السلام دولة صناعية، ولذا فهو يأمر الجنّ أنْ يعملوا له نماذج لهذه الأجسام والأدوات قبل أنْ يأمر بصناعة ما يشاء منها.

وهو احتمال يمكن أنْ يكون مقبولًا، لكنّ الجنّ عندما صنعوا المحاريب لم يمُرّ عملهم بمرحلة عمل نماذج صناعية، فهم قد صنعوا

المحاريب والتماثيل والجوابي والقدور، بمجرد صدور أمر سليمان عليه السلام لهم كما نفهم من الآية الكريمة.

الاحتمال الثالث:

وهو ما خطر لي عند تأمُّل المدلول اللغوي لكلمة: (تماثيل)، وهو أنْ تكون هذه التماثيل عبارة عن خرائط جغرافية للأرض، فتكون صُوَرًا مصغرة للأرض، وهو ما يفيد معنى التماثيل لُغويًا، فالخرائط صورةٌ للشيء ومثلُه، حيث يقوم الجنُّ بعمل هذه الخرائط بعد مسح الأرض التي يملكها ويحكمها سليمان عليه السلام، والمناطق المحيطة بدولته، ويقدمونها له عليه السلام، ما يجعله على معرفة ودراية بكل ما على الأرض، فيعرف مساحتها، وتضاريسها، وصحاريها، وبحارها، وأنهارها، وطرقها، فتساعده في اتخاذ القرار المناسب المبنيّ على علم ودراية وفَهْم، في مُلكه الواسع الشاسع، وهو ما نجده في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ {سبأ: 12}.

وهذا الاحتمال عندي أقرب من غيره لمنطقيَّته، وحاجة سليمان عليه السلام له، وقدرة الجنّ على القيام به.

ثالثًا: وجفانٍ كالجواب:

الجِفَان: جمع مفرده الجَفْنَة، وهي: القَصْعَة الكبيرة، والصَّحْفة، والوعاء، وفي علم الكيمياء: الجَفْنَة وعاءٌ يُصنع عادة من الخزف الصيني، ويستعمل للتبخير، أو لتسخين المواد. (المعجم الوسيط).

ولا أظن أنّ سليمان عليه السلام كان يأمر الجنّ بأنْ يعملوا له جِفانًا ليُوضَع فيها الطعام، فهي كثيرة وموجودة في كل البيوت، ولكنه عليه السلام يريد أنْ يستفيد من قدرات الجنّ الخارقة في صناعة ما يريد من جِفان، فيأمرهم بأنْ يعملوا له جفانًا واسعة وكبيرة كالجوابي، وليس مجرد جفانٍ ممّا اعتاد الناس عليها في استخداماتهم اليومية والحياتية.

إنه عليه السلام يريد جفانًا تشبه الجوابي في أحجامها وأشكالها، وهو أمر يُلفت النظر، ويثير التساؤلات، فما المُراد بالجَوابي في قوله تعالى: (وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ)؟

الجَوابي مفردها الجابِيَة، وهي الحُفرة الكبيرة من الأرض، يَجمع الناس فيها الماء، وتكون عند امتلائها بالماء كالبِركَة، ونحن نرى الفلاحين والمزارعين يحفرون هذه الجوابي، ويجمعون فيها المياه ليَسْقُوا زرعهم وحقولهم منها.

- فما هذه الجِفان التي يريد سليمان عليه السلام من الجنِ أنْ يعملوا له مثلها جِفانًا يبلغ حجمُها حجْمَ الجوابي الواسعة الكبيرة التي تُحفَر عادةً في الأرض؟

- ومن أيّ شيء سيصنعونها؟

- وفيم سيستخدمها سليمان عليه السلام؟

بعض المفسرين قالوا: إنّ سليمان عليه السلام كان يُقيم موائد كبيرة للفقراء، فيملأ هذه الجفان الكبيرة بالطعام، فيأكل منها الناس فلا يبقى

منهم جائع، وهو قولٌ غريب، ولو قبلناه فإننا نقع في إشكاليات منطقيّة، فلو افترضنا أنّ الجَفنة من هذه الجفان طولها عشرون مترًا، وعرضها عشرة أمتار، وارتفاعها ثلاثة أمتار أو يزيد، فكيف سيأكل الناس؟ وكيف سيأكلون من منتصفها البعيد عن أيديهم؟ وكم سيكون عمق هذه الجفان؟ وهل ستصل أيدي الناس الذين يأكلون إلى عمق هذه الجفان التي تشبه الجوابي في الشكل والحجم والاتساع؟ وهل من طبع البشر أنْ يأكلوا من جفانٍ كالجوابي؟

فما المُراد بهذه الجِفان التي تُشبِه الجوابي؟

لقد كانت دولة سليمان عليه السلام دولة صناعية، وهو عليه السلام يريد أنْ يستفيد من الجنِ ومن قدراتهم العالية في تطوير الصناعة عنده، ويريد أنْ يستفيد من المواد الخام التي سخّرها الله له كالحديد والقِطر (النحاس)، فيما يعود على دولته بالقوة والتمكين.

فما المانع أنْ تكون هذه الجفان التي ستقوم الجنُّ بعملها لسليمان عليه السلام هي لإجراء التجارب العلمية، وللقيام بعمليات معملية كيميائية؟

لقد كنا ونحن تلاميذ في المدارس نرى في المختبرات المدرسية كيف يأتي المعلم بجفنة أو بوتقة، ويضع فيها المواد التي يُريد أنْ نرى تفاعلها، مثل الأحماض، أو المعادن لصهرها كالقصدير والرصاص، وكانت هذه الجفان غالبًا من الخزف، أو الرخام، أو المعدن.

وقد تكون هذه الجفان التي تتحدث عنها الآية: (وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ) مُعَدَةً لصهر بعض المعادن، أو خلط المعادن المصهورة، خاصة أنّ الله تعالى يقول عن سليمان عليه السلام: (وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ)، والقِطر هو النحاس، فالله تعالى هيّأ لسليمان عليه السلام النحاس ليكون مُسالًا ومُذابًا، فيتم استخدامه فيما ينفعه من الصناعات.

وقد يكون المُراد أنّ الله تعالى قد هيّأ له إسالة وصهر النحاس ليصبح وكأنه عين جارية سائلة، ومعلوم أنّ النحاس عند صهره وتذويبه فإننا لا نستفيد منه إلا إذا صفَّيناه من الشوائب ابتداء، ثم إذا خلطناه بعد ذلك بمعادن أخرى، وهذا كله يحتاج إلى أماكن للتصفية والخلط، والتي يمكن أنْ تكون هي هذه الجفان الكبيرة التي تشبه الجوابي.

وعلى هذا فإنّ أغلب الظنّ أنّ المُراد بقوله تعالى: (وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ)، هي ما أمر سليمان عليه السلام الجنّ بعمله من بوتقات كبيرة لتصفية النحاس وخلطه بمعادن أخرى، أو ما شابة من عمليات التفاعل الكيميائية والصناعية.

رابعًا: وقدور راسيات:

إنّ أوّل ما يخطر بالبال عند ذكر القدور، أنها القدور التي يستخدمها الناس في طهي طعامهم، لا سيّما في الولائم والمناسبات، لكنّ هذا المعنى بعيد، خاصّة أنّ سليمان عليه السلام يريد أنْ يستفيد من

إمكانيات الجنّ العالية في صناعة هذه القدور، والتي لا بد أنْ يكون لها علاقة بتطوير الصناعة في دولته.

ولذا فإنّ أغلب الظنّ أنّ هذه القدور هي صهاريج كبيرة، مصنوعة من الخزف، أو من أنواع من الصخر، لتكون معامل، أو مفاعلات، أو مَصاهِر، وهي قدور راسيات لا تتحرك، ولا تُنقل من أماكنها، أمر سليمان عليه السلام الجنّ بعملها لصهر المعادن، أو إجراء العمليات اللازمة لبعض الصناعات، أو ما شابه.

ولسليمان الرِّيح غُدوُّها شهر ورواحها شهر

استجاب الله تعالى لدعوة نبيّه سليمان عليه السلام حين دعا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾ {ص: 35}، فكانت الاستجابة حاضرة وسريعة: ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ {ص: 36-39}.

فكيف كان تسخير الله تعالى الرِّيح لسليمان عليه السلام؟

الرِّيح: هي حركة الهواء في أيّ زمان ومكان، سواء كانت هذه الحركة طبيعية أو صناعية، رُخاءً أو عاصفة، ويمكن أنْ تكون الرِّيح باردةً زمهريرًا، ويمكن أنْ تكون حارَّة لافحة، وقد كان من مظاهر مُلك سليمان عليه السلام الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده، أنْ سخر الله تعالى له الرِّيح تجري بأمره، فيما ينفعه، وينفع دعوته ونبوَّته ومُلكه ودولته، في مجالات ووظائف مختلفة.

وفي القرآن الكريم نجد بعض الآيات التي تبيّن لنا وظائف الرِّيح، وكيفية الاستفادة منها، ما يُعيننا على فَهْم تسخير الله تعالى الرِّيح

لسليمان عليه السلام، كجزء من مُلكه العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ومن هذه الوظائف:

الوظيفة الأولى: (الصناعة)

سورة الكهف تُلفت نظرنا إلى الرِّيح التي كان يستخدمها ذو القرنين في الصناعة وتوفير الغازات اللازمة لصهر الحديد والنحاس، يقول الله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ {الكهف: 96}، وقوله تعالى: (ٱنفُخُواْۖ) يشير إلى استخدام ذي القرنين للرِّيح، والتي هي حركة الهواء بقوة وسرعة معينة، فالوظيفة هنا صناعية.

والله تعالى لم يسخّر الرِّيح لسليمان عليه السلام تَرَفًا، فهذا نبيّ مُوحى إليه، والرِّيح المسخرة له لا بدّ أنها ستُعينه في الصناعة، ليكون مُلكه قويًا، ودولته متطورة، ولا شكّ أنه استخدم الرّيح في عمليات صناعية، مثل صناعة الحديد والنحاس اللتين تحتاجان إلى كميات عالية من الأكسجين والغازات المختلفة في صهرهما وتصنيعهما، ولا بد أنّ هذه الريح كان سليمان عليه السلام يحرّكها بأدوات تمّت صناعتها لتحريك الهواء ونفخه، كما المَراوح والمُحركات في عصرنا الحاضر، أو ما شابه من آلات وأجهزة النفخ وتحريك الهواء ودفعه.

وفي نفس السياق فإننا نرى اليوم كيف استطاعت دولة هولندا أنْ تستخدم الريح، وأنْ تُوَسِّع من مساحة اليابسة عندها، وتدفع مياه البحر، من خلال استخدام الطواحين الهوائية التي تحرك الهواء بقوة، وفي الوقت نفسه، فإنها تستفيد من هذه الطواحين الهوائية في توليد الطاقة، ولا شك أنّ هذه أمثلة واضحة على وظيفة الرِّيح الصناعية، التي كانت متاحة لسليمان عليه السلام.

الوظيفة الثانية: (دفع السفن):

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ {الشورى: 32-33}، وفي الآية إشارة إلى أنّ من وظائف الريح (الهواء المتحرك) تسيير ودفع السفن التي تجري في البحر باستخدام الأشرعة اعتمادًا على حركة الهواء، وهو ما يجعلنا قادرين على تصور كيفية تسخير الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، بحيث يأمر الريح أنْ تتحرك بالسرعة التي يريد، لتدفع سُفُنَه إلى أيِّ مكان يريد.

الوظيفة الثالثة: (النقل الجويّ)

يقول الله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا ﴾ {سبأ: 12}، فالرِّيح مسخرة لسليمان عليه السلام يتحكم فيها وفي سرعتها واتجاهها، وهو يأمرها أنْ تقطع به مسافات شاسعة في وقت قياسي،

بحيث تقطع في غُدوِّها (ذهابها) في أوّل النهار، ما تقطعه الريح عادةً في شهر، وتقطع في رواحها (إيابها) في آخر النهار ما تقطعه الريح عادةً في شهر، فإذا كانت سرعة الريح اليومية الطبيعية تتراوح ما بين 20 و25 كيلو مترًا في الساعة، فهي تقطع في شهر واحد العالم القديم كله!، فكيف لو كانت السرعة عاصفةً غير طبيعية كما في قول الله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ {الأنبياء: 81}.

وهذا يشير إلى عظمة واتساع مُلك سليمان عليه السلام الذي وهبه الله تعالى مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده.

وبتسخير الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام فإنّ لنا أنْ نتصور أنه في يوم واحد كان يصل إلى أبعد ما يمكن في هذا العالم.

وقد رأينا في أيامنا هذه كيف يمكننا الانتقال من دولة إلى دولة، ومن قارة إلى قارة في عدة ساعات باستخدام الطائرات، وأنّ المسافة التي كانت قديمًا تستغرق شهرًا كاملًا للوصول إليها، فاليوم يمكننا الوصول إليها في ساعات قليلة، وقد كان الناس في مكة يضربون أكباد الإبل شهرًا إذا أرادوا الوصول إلى الشام، واليوم لا يحتاجون إلا إلى ثلاث ساعات تقريبًا، وهو ما يفسر قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ ﴾ {سبأ: 12}.

ومن خلال الآية الكريمة نستطيع القول:

إنّ الله تعالى سخر لسليمان عليه السلام بصفة خاصة الريح ليستخدمها في النقل والانتقال الجويّ والطيران.

وأنه عليه السلام كان يملك الأجهزة التي تستجيب للتحرك والانتقال في الفضاء بقوة الريح (الهواء).

وأنّ ما ذكره بعض المفسرين من أنّ سليمان عليه السلام كان عنده: (بساط الريح)، هو نفسه ما يمكن تسميته اليوم: (الطائرة).

وأنّ مُلك سليمان عليه السلام كان واسعًا وشاسع المساحات، وأغلب الظنّ أنه كان يشمل العالم القديم كله، وأنّه كان أكبر من أيّ مُلك جاء بعده، فهو أكبر من مُلك بريطانيا التي كانت لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، وأكبر من مُلك فرنسا التي تقاسمت العالم مع بريطانيا، وأكبر من مُلك الاتحاد السوفيتي الذي مَلك معظم أرض قارة آسيا، وأكبر من مُلك الولايات المتحدة.

الوظيفة الرابعة: (أداة حرب وعذاب)

جاء في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ {الحاقة:6-7}، وفي الآيات إشارة إلى وظيفة من

وظائف الرِّيح وهي العذاب والإهلاك، حيث أهلك الله تعالى قوم عاد بريح عاتية مسخّرة لإهلاكهم فأهلكتهم.

وفي سورة الأحزاب يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ {الأحزاب: 9}، فالأحزاب حاصروا المسلمين في المدينة، واستمرّ الحصار لأسابيع، فأرسل الله تعالى على الكافرين ريحًا اقتلعت خيامهم، وكَفَأت قدورهم، وأعمَت أبصارهم، فارتحلوا.

وقد سخر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، فهو يستخدمها في حروبه مع أعدائه عندما يلزمه ذلك، فقد قال الله تعالى له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ {ص: 39}.

ولا شك أنّ للرِّيح وظائف كثيرة لم نذكر منها إلا أمثلة على تسخيرها لسليمان عليه السلام، ويمكن أنْ يكون قد استفاد منها عليه السلام في مجالات حياتية أخرى كثيرة، كالزراعة ودفع السحب، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ {الحجر: 22}، فله أنْ يأمر الرِّيح أنْ تحمل اللقاح الذي يريد، إلى المزارع والأشجار في أيّ مكان يريد.

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ {الأعراف: 57}، وهي وظيفة من وظائف الريح، يتم فيها دفع السحب لتسقط الأمطار على المنطقة التي يريدها سليمان عليه السلام.

لقد سخر الله الرِّيح لسليمان عليه السلام تجري بأمره حيث أصاب، فهي مسخرة له، وهو يأمرها، ويستفيد منها في كل ما يعود على دعوته، ونبوته، ودولته، وحُكمه، ومُلكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده، بالقوة والمنعة.

ولو أنّ أهل الفيزياء يبحثون في أمر الرّيح واستخداماتها في الحياة، لاكتشفوا كثيرًا مما لم نذكره في هذا الكتاب، ولعرفوا الكثير عن تسخير الله تعالى الرِّيح لسليمان عليه السلام.

فطفق مسْحًا بالسُّوق والأعناق

يقول الله تعالى: ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ {ص: 31-33}.

تتحدث الآيات عن حضور سليمان عليه السلام لعرضٍ عسكري لبعض أركان جيشه، حيث الخيول الصافنات الجياد، ليطمئن على تدريبها، وقدراتها، واستعدادها، وفنون القتال عندها، فجاء جنوده بالخيول: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ {ص: 31}، يَعرضون عليه حركات خيوله وقدراتها العالية، فهي (ٱلصَّٰفِنَٰتُ) إذا نامت أو استراحت، فلا تنام ولا تستريح إلا وهي واقفة، ترفع أحد قوائمها وتتكئ بحافره على الأرض، وهي (ٱلۡجِيَادُ) تُقدّم أفضل ما عندها من العَدْو والإقدام، فكيف بها اليوم ونبيُّ الله سليمان عليه السلام يتفقدها بنفسه، ويرى عَدْوَها، ويسمع ضَبْحَها.

وقد اختار سليمان عليه السلام لهذا العَرْض وقت (العشي)، وهو ساعات النهار الأخيرة، حيث تكون الشمس قد ضعفت، وانكسرت حرارتها وأشعتها وقوتها، لئلا تتأثر الخيول بشدة الحرّ، ولتكون رؤية فقرات العرض أوضح.

وبدأ العرض، وبذلتْ خيول سليمان عليه السلام من الجهد ما أرضاه عنها، وقدمتْ من الفنون ما أعجبه، وظلتْ تعدو وتعدو إلى أنْ توارتْ بالحجاب، وغابت عن الأنظار بسبب ابتعادها وما يحجُبها من الغبار الذي تثيره وراءها.

عندئذ عبَّر سليمان عليه السلام لمن حوله عن سعادته بهذه الخيول المُدرَّبة، وهذا العرض الجميل، وعبر عن حُبِّه الكبير لهذا الخير الذي يراه، سواء في الخيول نفسها، أو فيما رأى عندها من الفنون القتالية التي يطمئن لها القلب، وتنشرح لها النفس، فقال: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ {ص: 32}، فكل مشاعره ترتبط بذكره لربه، وتأتي نتيجةً لأخذه بأوامر ربه، ولذا فهو قد أمر جنوده بأنْ يردُّوا خيوله عليه، فقال: (رُدُّوهَا عَلَيَّ)، وذلك ليكافئها، ويشجعها، ويعبِّر عن رضاه عنها، وحبِّه لها، وهو قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ {ص: 33}، أيْ أخذ عليه السلام يمسح على سُوقِها وأعناقها بيده، إشعارًا منه بحبِّه لها، ورضاه عنها، وعن أدائها، وهذه عادةُ كل مَن يعرف أطباع الخيول ويقوم بتربيتها وتدريبها وترويضها.

وأستغرب لما يقوله بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ {ص: 32}، حيث يقولون: إنّ سليمان عليه السلام قد ألْهَتْه الخيول عن ذِكْر ربه، وأنه نسي صلاة

العصر! فمن أين جاءوا بهذا؟ فليس في الآية ما يفيد ما ذهبوا إليه، وليس في الآية ما يدل على الإلهاء لسليمان عليه السلام عن ذِكْر ربه، بل إنّ في الآية ما يفيد أنّ سليمان عليه السلام كان كثير الذِّكر لربه.

ويكفينا أنْ نقف هنا عند الحرف: (عن) في قوله تعالى: (عَن ذِكۡرِ رَبِّي)، والذي يفيد السببية، لنعلم أنّ المُراد بالآية أنّ سليمان عليه السلام قد عبّر عن حبِّه للخير الذي كان بسبب ذِكْرِه لربه، وناتجًا عن ذِكْرِه لربه، فكأنه يقول: إنّ ربي هو الذي وهبني حبّ الخيل، وهو الذي أمرني بحبها.

ويمكننا فهم مدلول الحرف: (عن) وما يشير إليه من السببية عند تدبرنا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾ {النجم: 3}، أيْ إنّ القرآن الذي يتلوه عليكم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ليس صادرًا عن الهوى، أو بسبب الهوى، فهو لا ينطق به من عند نفسه بدافع الهوى، بل بوحي من الله تعالى.

وكما في قولنا:

- (أنا أتكلم معك عن علم ومعرفة)، أيْ بسبب ما عندي من علم ومعرفة.
- و(أنا أتكلم معك عن تجربة)، أيْ بسبب ما عندي من تجربة.

- و(أنا أتكلم معك عن حب واحترام)، أيْ بسبب ما عندي من حب واحترام لك.

وإنّ ما يدعو للاستغراب أكثر هو ما يقوله بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ {ص: 33}: أنّ سليمان عليه السلام قد عاقب الخيول بقتلها بعدما عُرضت عليه، فقال: رُدّوها عليّ، فقتلها وقطَّع سُوقها وأعناقها، لأنها قد ألْهَتْه عن ذِكْر ربه، وأنسَتْه صلاة العصر كما يزعمون.

ولنفترض أنّ سليمان عليه السلام قد نسِي صلاة العصر، وأنّ الخيل قد ألْهَتْه عن ذِكْر ربه، فما ذنب الخيل ليقوم سليمان عليه السلام بتقطيع سوقها وأعناقها؟

وهل التحلُّل من الذنب يكون في قتل الخيل؟ أم في محاسبة النفس والاستغفار والتوبة إلى الله تعالى؟ هل هذا ظننا بالنبي سليمان عليه السلام؟

وهل يُتَصَوَّر من نبيٍّ كريم أنْ يقوم بقطع سُوق وأعناق الخيل التي أقسم الله تعالى بها وامتدحها في سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ {العاديات: 1-3}، وهي التي

قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[1]

مَعاذَ الله أنْ نفتري على نبي الله سليمان عليه السلام الكذب، بل نُبرئُه مما يَفتري عليه المفترون، فالآية ليس فيها ما يذهبون إليه من إيذاء له باتهامه عليه السلام بأنه قتل الخيل، بل إنّ فيها ما يدُلّ على رحمته عليه السلام بالخيل، فكلمة (المَسْح) تعني تمرير اليد على الشيء، وهو ما جاء في المعجم الوسيط: (مسح الشيء، أيْ أمَرَّ يده عليه لإذهاب ما عليه من أثر أو غيره)، وفي القرآن الكريم استُعمل هذا الفعل بنفس هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ {المائدة: 6}، ومعلوم أنّ المُراد بمسح الرؤوس في الآية هو تمرير اليد عليها لا قطعها.

وليس في الآية: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ {ص: 33}، أيّ مُسَوّغ، أو قرينة تجعلنا نفهم أنّ كلمة (مَسۡحَۢا) هنا تعني القتل وتقطيع السُّوق والأعناق.

[1] صحيح البخاري 2860

لقد حاول اليهود ولا يزالون تشويه صورة نبي الله سليمان عليه السلام بكل صورة، فتارة يتهمونه بأنه قطّع سُوق وأعناق الخيل، وتارة يتهمونه بأنه يمارس السحر، وكان أكبر اتهاماتهم له أنهم اتهموه بالكفر، ولكنّ الله تعالى برَّأه فقال: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ {البقرة: 102}.

ماذا رأت ملكة سبإ في الصّرح؟

يقول الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ {النمل: 44}.

- ما الذي جعل ملكة سبإ تعلن إسلامها بعد دخول الصّرح؟
- ماذا حدث معها في الصّرْح؟
- ماذا رأت في الصّرْح؟
- ما هو الصّرْح؟

الصَّرْح من الفعل (صَرَح) وهو بمعنى: (الكشف والإبانة والظهور) نقول: صَرَح الشيء إذا صَفَا، وخلُص، وبَدَا، وظهر، وبان، ولا بد أنْ يكون من وظائف الصّرْح الإبانة والكشف والإظهار.

وليس صحيحًا ما يقوله البعض بأنّ الصّرْح معناه القَصْر، فقد كانت ملكة سبأ موجودة أصلاً في قصر سليمان عليه السلام عندما أراها عرشها قبل أنْ يصحبها إلى الصّرح، فالقصر شيء والصّرح شيء آخر، ولا يصِحُّ أنْ نقول: إنهما شيء واحد، ومعنى واحد.

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (قَصْر) عندما كان السياق يلزمه استعمالها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾{الحج: 45}، فلا يمكن أنْ تحُل مفردةٌ مكان مفردةٍ في القرآن الكريم.

وسليمان عليه السلام نبيٌّ كريمٌ صاحبُ هدفٍ ورسالة، وليس المُراد من جولته مع ملكة سبأ، أنْ يعرض عليها ما يَملك، أو أنْ يُثبت لها أنه مَلِك قويّ، ولكنه يدعو إلى الله تعالى في كل خطواته وتحركاته، ولذا فقد اصطحبها عليه السلام إلى الصَّرح، ليُريَها فيه ما يجعلها تؤمن بالله تعالى عن قناعة وعلم، فيكون إيمانها سببًا في إيمان كل قومها.

وواضح أنَّ الصّرح الذي أراد سليمان عليه السلام لملكة سبأ أنْ تدخله كان مصنوعًا من الزجاج المصقول والمُمَرَّد، لدرجة أنها لم تعرف أنه زجاج، وظنّت أنها أمام لُجّة من الماء المتحرك، فكشفت عن ساقيها لتتمكن من الدخول، لكنّ سليمان عليه السلام سرعان ما انتبه إلى حَيرة المرأة فقال: إنّه صَرْح مُمَرَّد من قوارير (زجاج)، ودخلت الصّرح بسلام.

ويبدو لي أنّ دخول ملكة سبإ الصَّرْح كان ليلًا، وذلك لما يلي:

1. يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ {النمل: 44}، فإنّ الذي جعلها تحسَب الصّرْح لُجّة أنّها رأت نجومًا تلمع وتتحرك، وهو نفس ما تراه على وجه الماء ليلًا إذا كانت السماء صافية.

2. لو كان دخول ملكة سبإ للصَّرْح نهارًا لكان في إمكانها معرفة إنْ كان الذي رأته زجاجًا، أم لُجَّة ماء، ففي النهار لن ترى لمعان النجوم وتحركها، وسيكون بإمكانها معرفة الزجاج وتمييزه.

3. إنّ من عوامل نجاح زيارة ملكة سبإ للصَّرْح أنْ تكون هذه الزيارة ليلًا، حيث سترى أمورًا خَطَّط لها سليمان عليه السلام، من شأنها أنْ تكون سببًا في إيمانها وإسلامها كما سنرى.

وعندما دخلت ملكة سبإ الصّرْح رأتْ أشياء جعلتها تُعلن إسلامها بقوة وعن قناعة راسخة، وتُعلن أنها كانت تظلم نفسها بكفرها ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ {النمل: 44}.

وفي كلامها نجد ثقافة جديدة ملأتْ عقلها وقلبها، فقد صارت تستعمل كلماتٍ تدلّ على الإيمان والتوحيد، مثل: كلمة (رَبِّ) التي تدلّ على الدعاء والتوجّه لله تعالى الذي آمنت به قبل قليل، و(إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي) التي توحي بالتوبة والاعتراف بالذنب، و(وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) وفيها إعلان للاستسلام لله تعالى، الذي هو رب العالمين كما تبيّن لها بعد دخولها الصَّرْح.

فماذا رأتْ ملكة سبإ في هذا الصَّرْح؟

وما هذا التحوّل الذي طرأ على عقيدة ملكة سبإ بعد دخولها الصَّرْح؟

من المعلوم أنّ ملكة سبإ كانت وقومُها يسجدون للشمس من دون الله تعالى، وكانوا من المشركين، يقول الله تعالى على لسان الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ {النمل: 24}، ويبدو أنَّ سليمان عليه السلام أراد أنْ يعرض على ملكة سبإ بعض الحقائق العلمية الكونية التي تثبت لها أنّ الشمس ليست إلهًا، وأنها مخلوق من مخلوقات الله في السماء الدنيا لوظيفة محددة، ولا ينبغي عبادتها والسجود لها.

وقد كان عليه السلام صاحبَ مُلكٍ عظيم، ودولةٍ متطورة علميًا وصناعيًا، وكان لديه من العلم ما يجعله متفوقًا في كل المجالات، ولم يقتصر علمُه على الأرض وما فيها، بل كان على عِلمٍ بالفَلَك والنجوم والكواكب والمدارات والدروب والمَجَرّات التي في السماء، وكان من خلال الصَّرْح الذي بناه يطّلع على ما في السماء من النجوم والكواكب، ويراقب حركة المجموعة الشمسية بشكل واضح.

ومن خلال الآية الكريمة: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ {النمل: 44}، يمكننا الاستدلال على ماهية الصَّرْح ووظيفته، كما يلي:

1. قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾ {النمل: 44}، يُشير إلى أنّ الصَّرْح مكانٌ يمكن الدخول فيه، والمشي عليه.

2. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً﴾ {النمل: 44}، يُشير إلى أنّ الصَّرْح كان على الأرض، وهو ما جعل ملكة سبإ تكشف عن ساقيها لئلا يبتلّ ثوبها، وأنها ما كانت لتحسَبه لُجّة ماء إلا لأنه كان أمامها على الأرض، يعكس صورة السماء فتتراءى فيه النجوم والكواكب.

3. قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ {النمل: 44}، يُشير إلى أنّ سليمان عليه السلام قد شرح لملكة سبإ ماهيَّة الصَّرْح ووظيفته فقال: (إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ)، أيْ: إنّه بناء مُعَدٌّ للكشف والإظهار، يُمكننا من خلاله رؤية ما في السماء من نجوم وكواكب، وهو مصنوعٌ من الزُّجاج المُنَعَّم المصقول.

وبعد دخول مَلِكة سبإ للصّرح، قام سليمان عليه السلام بعرض ما يظهر في الصّرح من النجوم والكواكب أمامها، حيث تنعكس صورة السماء على الصّرح المُمَرَّد من قوارير بشكل ظاهر ومكشوف، وقام بشرحٍ مفصّل لها عن المجموعة الشمسية، وعن الشمس وحركتها، وجريها، ودورانها، ودوران وسباحة النجوم والكواكب، وأنّ هذا الفَلَك من صنع الله تعالى وإبداعه.

لقد رأت ملكة سبإ في الصّرْح ما يجعلها تقتنع أنّ الشمس التي تعبدها ليست إلهًا، وأنّ الشمس ليست إلا مخلوق من مخلوقات الله الكثيرة في السماء، وأنّ الشمس عنصر من عناصر المجموعة الشمسية، وأنّ الشمس إنما تُشرق وتَغرُب بأمر الله تعالى وفق سنن كونية في الخلق.

وبعد هذا الشرح من سليمان عليه السلام، فقد دعاها لترك عبادة الشمس، وأنْ تعبد معه خالق هذا الكون الفسيح، وأخبرها أنه رسولٌ من رب العالمين أرسله الله تعالى لهداية الناس وتعريفهم بربهم وإلههم، ليُوحّدوه ويعبدوه ولا يشركوا بعبادته أحدًا.

عندها قالت بقلبها وعقلها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ {النمل: 44}.

تأكل مِنسَأته

يقول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ {سبأ: 14}.

هذه الآية تتحدث عن موت سليمان عليه السلام، والمشهور في كتب التفسير أنّه مات وهو يتكئ على منسأته، وأنّ دابّة الأرض ظلّت تأكل منها سنة كاملة ولا أحد يعلم بموته، إلى أنْ نَخَرتها، فخَرّ ووقع، وعندها فقط عرف الناس المحيطون به أنه مات عليه السلام.

هذا ما يوجد في كتب التفسير، وتتناقله الأجيال بعد الأجيال، ويتعلمه التلاميذ والطلبة في المدارس والجامعات، ويُعَلِّمه الوعاظ للناس في المساجد، وهو بلا شك أمرٌ غير مقبول، وغير منطقي، ولا دليل عليه من القرآن الكريم والسُّنة الصحيحة واللسان العربي السليم، ولا يحتمله السياق، وهو يدعو للدهشة والاستغراب! فكيف يُمكن لأحد القول بأنّ سليمان عليه السلام قد ظلّ مَيْتًا سنةً كاملةً، وهو واقف يتكئ على منسأته، دون أنْ يعلم بموته أحد؟! وهو ما يستدعي مزيدًا من النظر والتأمُّل وإعادة التدبر لهذه الآية الكريمة.

مُعطيَات ودلالات:

1. إنّ سليمان عليه السلام رجلُ دولة، وهو مَلِك ونبي، وإنّ غيابه عن إدارة مُلكه، وتكاليف النبوة، من شأنه أنْ يُلفت الأنظار لغيابه منذ اليوم الأوّل، ومنذ الساعات الأولى، فكيف يمكن قبول أو تصديق أنه ظل ميْتًا لسنة كاملة دون أنْ يفتقده أحد؟!

2. سليمان عليه السلام ليس رجلَ دولة ومَلِكًا فقط، بل كان قاضيًا يقضي بين الناس، ومن الطبيعي أنّ الناس والمتخاصمين سيأتونه ليقضي بينهم، وسيفتقدونه إنْ غاب، وسيسألون عنه، ما يجعل التصديق بأنه ظل ميْتًا لسنة كاملة دون أنْ يعلم بموته أحدٌ ضَرْبًا من المستحيل.

3. لقد كان سليمان عليه السلام زوجًا، وأبًا، وعنده بيت، وأسرة، وأقارب، وأرحام، وعنده معاونون وخَدَم؟ فهل يُعقل أنّ كل هؤلاء الذين يعيشون معه ويعيش معهم لم يعلموا بموته إلا بعد سنة؟، أَلَم يأتوا له بالطعام؟ أَلَم يتفقدوا نومه وراحته؟ أَلَم يفتقده أحد؟ أَلَم يسأل عنه أحد؟ أَلَم يشعر أحدٌ بغيابه عن العبادة؟

فهل يُعقل هذا؟

هل يُعقل أنْ تظلّ دابّة الأرض تأكل منسأة نبي الله سليمان عليه السلام، وتنخر فيها سنةً كاملة إلى أنْ يخرّ على الأرض فيعرف الناس والجنّ أنّه مات؟

إنّ الآية الكريمة لا تشير إلى هذا، لا من قريب ولا من بعيد، بل إنها تشير إلى سرعة وفورية معرفة المحيطين بسليمان عليه السلام أنّه مات، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ {سبأ: 14}.

وفي الآية عدة إشارات تدلّ على كيفية معرفة الناس بموته عليه السلام:

أولاً: لم يكن أحدٌ من جنود سليمان عليه السلام، أو من غيرهم، يجرؤ على الاقتراب منه أو من منسأته، لما أعطاه الله من الهيبة والقوة والمُلك العزيز، ففي حادثة الهدهد يقول الله تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ)، في إشارة إلى هيبة سليمان عليه السلام، حيث جعل الهدهد بينه وبين سليمان عليه السلام مسافةً كافيةً راعى فيها هذه الهيبة.

وفي قصة النملة يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ {النمل: 18}، فقد استشعرت النملة وجود سليمان عليه السلام قريبًا من مساكن النمل، وهذا يشير إلى أنّ جميع مَن في دولته عليه السلام كان يحسِب حسابه، ويستشعر هيبته، ويعرف بوجوده.

فلا يمكن لدابَة الأرض وحشراتها أنْ تقترب منه عليه السلام في حال حياته مجرد الاقتراب، بسبب ما وهبه الله تعالى من الهيبة، فضلًا عن كونها تأكل منسأته.

وقد استدل المحيطون بسليمان عليه السلام على موته من خلال اقتراب دابّة الأرض (حشرات الأرض) من منسأته، والبدء بالأكل منها، فَهُم يعرفون هيبة سليمان عليه السلام، وأنه لا ينبغي لأحد أنْ يعتدي عليه، أو على شيء يملكه، وهم لم يعهدوا على دواب الأرض مثل هذا من قبل، وهذه هي المرة الأولى التي يرَوْن فيها حشرات الأرض تجرؤ على الاقتراب من منسأة نبي الله سليمان عليه السلام والأكل منها.

إذن فسليمان عليه السلام قد مات، ولم يعد له هذه الهيبة التي كان كل مَن في دولته يستشعرها ويعلمها، وكذلك لم تعد منسأته منسأةَ النبي الذي وهبه الله تعالى مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وهو ما جعل المحيطين به يعرفون أنّه عليه السلام قد مات.

ثانيًا: إنّ الذي فعلته الدابّة هو الشروع بالأكل من المنسأة ليس أكثر، لكنها لم تأكل المِنسأة، ولم تَنْخَرْهَا، وهو ما نفهمه من الآية: (مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ)، أيْ أنها بدأت تأكل من المنسأة، وهو ما جعل المحيطين بسليمان عليه السلام من المُعاونين أو الأهل ينتبهون لهذا الفعل الغريب وغير المعتاد من دابّة الأرض، ويشعرون بموته عليه السلام، ولم يرد في الآية ما يدل على أنّ دابة

الأرض أكلت المنسأة ونخرتها كلّها، أو أنها استغرقت وقتًا في ذلك، فصيغة الفعل (تأكل) تدل على المضارع، لا على الماضي.

والآية لم تُشِر إلى أنه عليه السلام قد خَرّ بسبب الدابّة التي اقتربت من منسأته وأخذت تأكل منها، بل كان بسبب معرفة المحيطين به عليه السلام بموته، والذين جاءوا يستطلعون أمر موته، فيحركونه، أو يحملونه، فخَرّ من تحريكهم.

وكلمة (خَرَّ) تدل على الوقوع إلى سُفْل بصوت، وقد يكون عليه السلام قد مات وهو متكئ على منسأته واقفًا أو جالسًا، لكنّ الأقرب أنه كان واقفًا، أو قائمًا لله تعالى، فقد جاء في سورة يوسف: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ {يوسف: 100}، فقد خرّوا له سجودًا بعد قيام.

ذو القرنين..
هل هو نبيُّ الله سليمان عليه السلام؟

تتقاطع شخصية نبيّ الله سليمان عليه السلام مع شخصية (ذي القرنين) الذي تتحدث عنه سورة الكهف في كثير من الجوانب والمجالات بشكل لافت، ما يجعلنا بعد البحث والدراسة أنْ نقول بوحدة الشخصيتين، وأنّ أغلب الظنّ أنْ يكون ذو القرنين هو نبيّ الله سليمان عليه السلام، وأنّ اللقب (ذا القرنين) هو لقبٌ للتعريف والتمييز، يدلّ على أهم ما اشتُهر به سليمان عليه السلام في حكمه ومُلكه ونبوته.

فهل ذو القرنين هو سليمان عليه السلام فعلاً؟

في القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تُشير إلى أنّ ذا القرنين الذي تتحدث عنه سورة الكهف وسليمان عليه السلام شخصيةٌ واحدة، وأنّ الحديث عنهما يكاد يكون متماثلًا ومتطابقًا، وهو ما سنتأمّله ونتدبره خلال هذه الصفحات بإذن الله تعالى.

وقبل البحث في الأدلّة والقرائن والبراهين التي يمكننا الاستناد إليها في الترجيح والاختيار، فإنّ السؤال الأوّل والأهم الذي يجب أنْ نجيب عنه هو:

هل ذو القرنين نبيٌّ من أنبياء الله تعالى؟

الدليل الأول على نبوة ذي القرنين:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف: 86-88)، وفي هذه الآيات يمكننا الوقوف عند بعض الإشارات والدلالات:

1. قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾{الكهف: 86}، وفي الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى يخاطب ويُكلّم ذا القرنين: (يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ)، ويكلّفه ويُعطيه التعليمات وحيًا، وأنّ ذا القرنين يستجيب لأمر الله تعالى طائعًا: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ {الكهف: 87-88}، وهذا دليل على أنّ ذا القرنين نبيٌّ من أنبياء الله كان يُوحَى إليه من ربه، ويتلقّى الأوامر والتكليفات والتعليمات من الله تعالى.

2. في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾{الكهف: 86}، إشارة إلى أنّ ذا القرنين كان مفوَّضًا من الله تعالى في أنْ يعذّب

ويُعاقِب مَن يشاء، وأنْ يُكرِم ويكافئ مَن يشاء، وفي هذا التفويض دليل على نبوته، وأنّه يتلقّى الوحي من الله تعالى، فالله تعالى لا يُفوّض أمر تعذيب الظالمين، أو مجازاة المحسنين بالحسنى إلى غير الأنبياء والرسل.

الدليل الثاني على نبوّة ذي القرنين:

يقول الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ {الجن: 26-27}

في الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى لا يُظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول، وهذا يعني أنّه لا يعلم الغيب إلا رسولٌ قد خصَّه الله تعالى بهذا الغيب، وهو كالذي خَصَّ الله تعالى به رسوله محمدًا عليه الصلاة والسلام بكثير من أنباء الغيب.

وعند الرجوع إلى سورة الكهف نقرأ قول الله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ {الكهف: 98}، وفيه إشارة إلى معرفة ذي القرنين لأمر غيبيّ، وهو أنّ السّدّ له وقتٌ معلوم، وأنه لن يظلَّ قائمًا، وأنّ الله تعالى سيجعله دكّاءَ، وهذا من عِلم الغيب بلا شك، ولو لم يكن ذو القرنين نبيًا أو رسولًا، لما علم بهذا الغيب.

ومن هذين الدليلين الواضحين يتبين لنا أنّ ذا القرنين نبيٌّ من أنبياء الله الكرام، يُوحي الله تعالى إليه بما يشاء، ويُطلعه على ما يشاء من الغيب، وأنه صاحب قدرة وقوة وتمكين من الله تعالى.

وهو يعذب الظالمين كما يشاء بتفويض من الله تعالى، ويجازي المؤمنين كما يشاء بتفويض من الله تعالى.

ما المُراد بذي القرنين؟

كتب التفسير وغيرها من الكتب التي تهتم بالقصص القرآني مليئة بالاجتهادات والأقوال التي تحاول معرفة مدلول هذا اللقب وأسبابه، ومعظم هذه الأقوال لا تستند إلى قرينة لُغوية، أو دليل من سياق قرآني ظاهر، أو من حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والذي ترتاح إليه النفس أنّ كلمة (القَرن) جاءت في القرآن الكريم، وفي اللسان العربي، في السياقات التالية:

1. **القَرْن:** بمعنى (الأُمّة، والقوم)، كما في الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ {الأنعام: 6}، وواضح من الآية أنّ كلمة (القرن) تعني (الأمة) أو (القوم)، وهي لم ترد في القرآن

الكريم بغير هذه الدلالة، وهو ما يمكن الاعتماد عليه، والأخذ به، كونه استعمالًا قرآنيًا.

2. **القَرْن:** بمعنى (الجِيل)، فقد جاء في الحديث الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون)[1]، أيْ عشرة أجيال، وقال أيضًا: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[2]، والمُراد هنا أيضًا الجيل، ولا أظن أنْ يكون المُراد بلقب (ذي القرنين) ذا الجيلين، فالإنسان يُنسَب إلى جيل واحد، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حيث نَسَب نفسه إلى جيل واحد بقوله: (خير القرون قرني).

3. **القَرْن:** بمعنى (العظم البارز المُدبب) الذي يكون في رأس الثور والكبش والظباء والغزلان والأيائل وغيرها من الحيوانات، ولا أظن أنّ هذا القول يناسب أنْ يكون لقبًا لمَلِك عظيم تتحدث عنه سورة الكهف بالمَدح لعلمه، وإيمانه، وقوته، فضلًا عن كونه نبيًا كريمًا بحسب الأدلة السابقة.

4. **القَرْن:** بمعنى (مائة سنة)، وهو قول اصطلح عليه الناس اصطلاحًا، ولا نستطيع أنْ نعتمد عليه عند الحديث عن لقب (ذي القرنين)، فالسياق القرآني لا يُوحي بأنّ ذا القرنين عاش مائتي سنة، ولم

---

(1) السلسلة الصحيحة للألباني 3289

(2) تصحيح العقائد للألباني 36

يتحدث عن عمره، ولا عن مدة سنوات دعوته، ولا عن زمان مولده وموته، مما يجعلنا نستبعد هذا القول.

5. **القَرْن:** بمعنى (شرق الأرض أو غربها)، وقد أخضع الله تعالى لذي القرنين مطلع الشمس، ومغرب الشمس، بحسب ما نفهم من الآيات في سورة الكهف، وهو قولٌ مجازي لا نضطر لقبوله، ونترك استعمال القرآن الكريم لكلمة القرن بمعنى القوم والأمة.

وبعد هذا العرض لأهم الأقوال التي تحاول بيان المُراد باللقب: (ذي القرنين)، نختار القول الذي استعمله القرآن الكريم، وهو أنّ المُراد بالقَرْن هو: (الأُمَّة أو القوم).

و(الأمَّة) تكون من الإنس، وتكون من الجنّ كما هو معلوم، يقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ {الأحقاف: 18}.

و(القوم) كذلك يكونون من الإنس، ويكونون من الجن، يقول الله تعالى على لسان الجن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ {الأحقاف: 31}.

وعلى هذا فإنّ أغلب الظنّ أنّ المُراد بالقرنين في قوله تعالى: (قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ)، الإنس والجن، وهما أمَّتان تعيشان في الأرض، وكان ذو القرنين حاكمًا ومَلِكًا عليهما معًا، وكان لقبه ذا القرنين تعريفًا وتمييزًا

ووصفًا، ولم نعلم عن مَلِك حكم الإنس والجن غير نبيِّ الله سليمان عليه السلام.

لماذا لم يُذكَر اسمُ ذي القرنين صراحةً في سورة الكهف؟

تُستعمل (ذو) للتعريف والوصف والتمييز والتفريد، وهي كلمة يُتوَصَّل بها إلى الوصف، يُقال: فلان ذو مال، وذو فضل، وأسماء ذات النطاقين، وقد استعملها العرب في ألقاب ملوك اليمن القدامى، مثل: ذي يزن، وذي الكَلَاع.

وفي القرآن الكريم تم استعمالها مع الذات الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴾ {البروج: 15}، و﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ {الرحمن: 78}، وتمّ استعمالها مع جبريل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ﴾ {التكوير: 20}، وكل هذه الاستعمالات تمَّت مع وجود الاسم الأصلي، فذو العرش المجيد هو الله تعالى، وذو القوة المكين عند ذي العرش هو جبريل عليه السلام، ولكنّ استعمال (ذو) و(ذي) أبرَزَ وصفًا خاصًّا للمُسمَّى.

و(ذو القرنين) لقَبٌ لرجل معروف، له اسم معروف، ولكنه في سورة الكهف جاء لإبراز وصف خاص لهذا الرجل، وهو أنّه صاحب القومين: (الإنس والجن)، حيث كان حاكمًا لهما، ومَلِكًا عليهما، وسنرى عند الحديث عن بناء السدِّ كيف أنه كان معه من الإنس والجن ممَّن ساعده في البناء وصهر الحديد والنحاس.

وقد ذُكِرَت في القرآن الكريم أسماءٌ وألقابٌ لبعض الأنبياء، بحسب السياق الذي تتحدث فيه الآيات عنهم، وهذه أمثلة على ذلك:

1. يونس عليه السلام: وهو صاحب الحوت، وذو النون.
2. داود عليه السلام: وهو ذو الأيدي.
3. يعقوب عليه السلام: وهو إسرائيل.
4. إدريس عليه السلام: وهو إلياس.
5. عيسى عليه السلام: وهو المسيح ابن مريم، وكلمة منه، وروح منه.

فلا مانع في القرآن الكريم أنْ يُعرَف بعض الأنبياء بكُنية معينة، أو لَقَب معين في سياق معين، يُراد من خلاله إبراز وصف أو تعريف خاص، وهو ما نظنّ أنه وقع مع سليمان عليه السلام الذي وهبه الله مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فكان مَلِكًا على الجن والإنس، فقال الله تعالى له: يا ذا القرنين.

وجوه التماثل والتطابق بين ذي القرنين وسليمان عليه السلام:

التماثُل الأول: التمكين في الأرض:

يظهر التماثل بين شخصية سليمان عليه السلام وشخصية ذي القرنين في تمكين الله تعالى لهما في الأرض، بحيث كان التمكين للشخصيتين هو ذات التمكين، دون أيّ اختلافات أو فروق، وهو ما يوحي بأنّ الشخصيتين لشخص واحد معروف وهو سليمان عليه السلام، كما يلي:

لقد آتى الله تعالى سليمان عليه السلام من كل شيء، فقال: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ {النمل: 16}، فهو تمكين يستغرق كل أشكال التمكين في الأرض.

ونجد التمكين ذاته عند ذي القرنين، فقد آتاه الله من كل شيء أيضًا، ليستغرق كل أشكال التمكين، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ {الكهف: 84}، وهذا يشير إلى أنّ الحديث في الآيتين هو عن شخصية واحدة هي سليمان عليه السلام.

التماثُل الثاني: التنقُّل في الأرض بحُرية وسرعة:

كان سليمان عليه السلام يتنقل في أرجاء وأنحاء مُلكه البعيدة بحُرية وسرعة، وكان مُلكه يشمل العالم القديم، بحيث كان يقطع في غَدوةٍ واحدة من المسافات ما يلزم لقطعها شهرٌ كامل، وكان يقطع في رَوْحَةٍ واحدة كذلك، يقول الله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ {سبأ: 12}، وهذا يعني أنه عليه السلام كان يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وهو نفسه ما نجده عند ذي القرنين الذي كان يتنقل في مُلكه أيضًا بحُرية وسرعة، وقد وصل إلى مناطق في أقصى الشرق، وإلى مناطق

في أقصى الغرب، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ {الكهف: 86-90}، ولا شك أنّ هذا التماثل يدل على أنّ الحديث في الحالتين هو عن شخصية واحدة هي سليمان عليه السلام.

التماثُل الثالث: الدعوة إلى الله تعالى:

لقد كان سليمان عليه السلام نبيًا داعيةً إلى الله تعالى، وكان يحارب الشرك والمشركين، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولقد علم عنه هذا أتباعه وجنوده ومَن كان في دولته، ومنهم الهدهد الذي جاء سليمان بنبإ عن قوم سبإ الذين يسجدون للشمس، قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ {النمل: 24}، فما كان من سليمان عليه السلام إلا أنْ بدأ بالتحرك لدعوتها وقومها إلى الإسلام، وكان ما كان

من قصتها، حتى آمنت، واهتدت، وقالت: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ {النمل: 44}.

لكنه عندما رأى سليمان عليه السلام أنّ ملكة سبإ ترسل إليه بالهدايا، في محاولة منها لصرفه عن دعوته لها للإسلام، ردّ إليها الهدايا مع رسولها قائلًا: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ {النمل: 37}، فهو في الوقت الذي يدعو فيه إلى الله تعالى بالحسنى كما حدث في إرساله كتابه إلى ملكة سبإ مع الهدهد، فإنه عليه السلام في الوقت ذاته يحارب الشرك والمشركين، ويقرر قتالهم وإخراجهم أذلةً صاغرين.

ومثل هذا نجده عند ذي القرنين الذي كان يدعو إلى الله تعالى، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكافئ المؤمنين الذين يعملون الصالحات بما يستحقون من الحسنى، ويعذب ويعاقب الظالمين المشركين بما يستحقون من العقاب والعذاب، يقول الله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ {الكهف: 87-88}، وهو ما يؤكد أنّ ذا القرنين نبيٌّ

مرسل من الله تعالى، يقوم بما يقوم به الأنبياء المرسلون، وأنّ أغلب الظنّ أنْ يكون هو سليمان عليه السلام.

التماثُل الرابع: ألفاظ واحدة:

في القرآن الكريم لم يستعمل أحدٌ من الأنبياء كلمة: (أعذب) و(نُعذب) غير نبي الله سليمان عليه السلام، فقد قال في سياق التلويح بمعاقبة الهدهد: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ {النمل: 21}.

ونجد ذا القرنين يستعمل نفس الكلمة في سياق معاقبة الظالمين فيقول: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا ﴾ {الكهف: 87}، ولا شك أنّ هذه قرينة يمكن الاستناد إليها في التدليل على أنّ سليمان عليه السلام وذا القرنين شخصية واحدة.

التماثُل الخامس: عدم قبول الرشاوى والعطايا:

لقد وهب الله تعالى نبيه سليمان مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وفوّضه فيما أعطاه فقال: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ {ص: 39}، وعندما أرسلت إليه ملكة سبإٍ رشوة في شكل هدية ردَّها عليها ولم يقبلها، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ {النمل: 36}، فهو

يستغني بالله تعالى، ولا ينظر إلى ما في أيدي الناس، فما آتاه الله خير مما في أيديهم.

وذو القرنين أيضًا يستغني بالله تعالى، ويمتنع عن أخذ الخَرْج وهو الأجر والعطية مقابل بناء السدّ، ويُحدِّث بنعمه ربه عليه، وأنّ ما أعطاه الله تعالى خيرٌ مما عندهم من مال، يقول الله الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ {الكهف: 94-95}، وقول ذي القرنين: (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) يشبه قول سليمان عليه السلام: (فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم)، وهو يشير إلى أنّ صاحب الكلام هو نفسه في الآيتين، وهو سليمان عليه السلام.

التماثُل السادس: استعمال الحديد والقِطْر (النحاس):

جاء في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ {النمل: 16}.

فماذا ورث سليمان عن أبيه داود عليهما السلام؟

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (... وإنّ الأنبياء لم يوَرِّثُوا دينارًا، ولا درهمًا، إنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)[1]، ومعلوم أنّ الله تعالى قد خصَّ داود عليه السلام بعِلم تليين الحديد وصهره وتشكيله، (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ).

وسليمان عليه السلام ورث عن أبيه العلم، والنبوة، وكان مما ورث من العِلم تليينُ الحديد، و(صَنعةُ لَبُوس)، وهي صناعة السلاح التي بَرَع فيها داود عليه السلام بعد أنْ ألان الله له الحديد، ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾ {الأنبياء: 80}، وقد جاء في سورة سبإ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ {سبأ: 10}.

ثم خَصَّ الله تعالى سليمان عليه السلام بإسالة القطر وهو النحاس فقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ {سبأ: 12}، فصار عليه السلام مخصوصًا بعِلم تليين الحديد، وعِلم إسالة القطر معًا.

---

[1] الألباني، صحيح الجامع 6297

والآية لم تُشِر إلى كيفية إسالة القطر، ولا إلى وظيفته، ولا إلى كيف استفاد سليمان عليه السلام من القطر، ولكنها تشير إلى أنّ إسالة القطر كانت تسخيرًا من الله تعالى لسليمان عليه السلام، إلى جانب ما سُخِّر له عليه السلام من الرّيح والجنّ، وكل هذا لم يكن لغيره، بل كان جزءًا مما وهب له الله تعالى من المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده.

لكننا نتفاجأ في سورة الكهف بأنّ ذا القرنين هو الذي يستخدم القِطر في بنائه لردم يأجوج ومأجوج، ويستخدم الحديد أيضًا، وهما المعدنان اللذان خَصّ الله بهما سليمان عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ {الكهف: 96}.

فكيف جاء ذو القرنين بكل هذه الكميات الكبيرة من الحديد والنحاس؟

وهل كان استخراج الحديد والنحاس وجمعُه من الأرض أمرًا هيّنًا سهلًا في ذلك الزمن؟ خاصّة أنّ الرَّدم الذي تتحدث عنه سورة الكهف يحتاج إلى كميات هائلة وضخمة من الحديد والنحاس، فهو ردمٌ يصل بين جبلين، ولم تستطع يأجوج ومأجوج اختراقه أو تسلّقه: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ {الكهف: 97}.

وهل عملية النفح لصهر الحديد والنحاس كانت سهلة؟ أم أنها كانت تحتاج إلى أفران خاصة؟ ودرجات حرارة عالية جدًا تتراوح بين 3000 و5000 درجة مئوية؟

- وكيف سيكون النفخ؟

- هل سينفخون بأفواههم أم بالكير؟

أم أنّ ذا القرنين استخدم الرّيح (حركة الهواء) بالسرعة التي يحتاجها لدفع الغازات ورفع درجات الحرارة التي ينصهر عندها الحديد أو النحاس؟

لقد ساوى ذو القرنين بين الصدفين، وجعل من مكان الردم مكانًا لصهر زُبَر الحديد، ولما صار الحديد نارًا أيْ (منصهرًا)، قام بإفراغ النحاس المُسال عليه، وهذا يعني أنه قام بخلط النحاس المُسال، بالحديد المنصهر بين الصدفين.

إنّ هذا الأمر لا يتم بسهولة حتى في عصرنا الحاضر، وتحتاج أيّ دولة لإقامة مثل هذا الرَّدم إلى إمكانيات صناعية عالية المستوى، تستطيع من خلالها أنْ تكشف عن أطنان الحديد والنحاس في نواحي الأرض، وتنقله من أماكن وجوده ومناجمه، إلى أماكن صهره في الأفران الخاصة، وإفراغه في الرَّدم بطرق خاصة أيضًا.

فهل كان ذو القرنين يفعل كل هذا بقدراته البشرية لوحده؟

لقد وردت كلمة (قِطر) في القرآن الكريم مرتين:

1. المرة الأولى في سورة الكهف مع ذي القرنين، في قوله تعالى: (ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا).

2. المرة الثانية في سورة سبأ مع سليمان عليه السلام، في قوله تعالى: (وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ).

وعين القطر ممّا خَصَّ الله تعالى به سليمان عليه السلام عندما قال: (وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ)، وهو نفسه ما جاء على لسان ذي القرنين: ﴿ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾ {الكهف: 96}، والملاحظ أنّ إسالة النحاس وإفراغه شيء واحد، وهو ما يؤكد أنّ الشخصية واحدة في الآيتين، وهي شخصية سليمان عليه السلام.

إنّ ما قام به ذو القرنين هو ما سخره الله تعالى لسليمان عليه السلام من إسالة القطر، ومن قبله ما ورثه عن أبيه داود عليه السلام من تليين الحديد.

وإنّ ذا القرنين استخدم الجنّ المُسخَّرين له في بناء ردم يأجوج ومأجوج، حيث قاموا باستخراج الحديد والنحاس، وجمعهما، ونقلهما إلى مكان الردم، لصهرهما وخلطهما، وأتوقع أنْ يكون قد تم استخدام الجفان الكبيرة والقدور الراسيات في عمليات الصهر والإفراغ.

وبعد هذه الشواهد والقرائن الظاهرة، فإنه يمكننا القول: إنّ أغلب الظنّ أنْ يكون ذو القرنين الذي تحدثت عنه سورة الكهف هو سليمان

عليه السلام، فما كان ليُذكَره في سورة الكهف باللقب (ذي القرنين) دون الاسم إلا لأننا يمكننا بالتدبّر والتفكر معرفته والاستدلال عليه، وذلك من خلال البحث في السياقات القرآنية المختلفة عن العلاقة بين الآيات والسُّوَر، والربط بينها بما يكشف معانيها والمُراد منها، فالله تعالى لم يُنَزل القرآن للناس ليستعصي عليهم تدبُّره، بل أنزله ليتدبروه، ويقفوا على مُراد الله تعالى من آياته وأحكامه، فيكون لهم شِرعةً ومِنهاجًا، فهو القائل: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ { {القمر: 17}.

فكشفنا عنك غطاءك

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ {ق: 22}.

متى يكون هذا الكشف؟ هل في الدنيا أم في الآخرة؟

هذه الآية سبقتها آيتان فيهما إشارة إلى موعد كشف هذا الغطاء، وهو يوم القيامة حيث يكون البصر حديدًا حادًّا، كما في قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ {ق: 22}.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ {ق: 20}، يشير إلى يوم الوعيد الذي هو يوم القيامة، والمُراد بالنفخة هنا هي النفخة الثانية يوم يقوم الناس لرب العالمين كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ {يس: 51}، وهو ما يؤكد أنَّ كشف الغطاء يكون يوم القيامة، وليس في الحياة الدنيا، أو عند الاحتضار كما يمكن أنْ يخطر ببال البعض، حيث تأتي كل نفس معها مَلَكان: مَلَك يسوقها، ومَلَك يشهد عليها.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ ﴾ {ق: 21}، يشير أيضًا إلى يوم القيامة، الذي كان غائبًا عن عقل وقلب الكافر، وكان في دنياه غافلًا عن هذا السَّوْق وعن هذه الشهادة: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ {ق: 22}، أيْ إنك لم تكن في الدنيا تحسب حسابًا لهذا البعث وهذا الحساب، ولم تكن تؤمن باليوم الآخر، ولم تكن تعمل لأجله.

وفي هذا اليوم العصيب فإنّ الكافر سَيرَى قرينه من الجنّ وهو الشيطان الذي كان يلازمه في الدنيا، وسيحاولان الاختصام لدى الله تعالى عند انتهاء الحساب ومعرفة المصير، لكنّ الله تعالى يقول لهما: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ {ق: 27-28}، وهو ما يؤكد أنّ كشف الغطاء الذي تتحدث عنه الآية إنما يكون في يوم القيامة، حيث يرى الناس ما لم يكونوا يرون في الدنيا.

ما هذا الغطاء؟

يقول الله تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ {ق: 22}. ويدُلّنا على هذا الغطاء قول الله تعالى: (فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ)، و(حديد) أيْ: (حادّ) أيْ يرى بحدّة ودقة، ولقد صار هذا البصر حديدًا حادًّا الآن أيْ في يوم القيامة، إذ لم يكن حادًّا في الدنيا.

- فما الذي لم يكن يستطيع الإنسان أنْ يراه في الدنيا وهو اليوم (يوم القيامة) يراه بوضوح ودقة وانكشاف؟

- ما الذي لا نستطيع رؤيته الآن ونحن في الدنيا؟

في الفيزياء يقولون: إننا لا نستطيع أنْ نرى إلا ما له (كتلة أو كثافة)، أما الأشياء التي لا تتكثف، وليس لها كتلة فإننا لا نراها، ونذكر أمثلة على ذلك:

1. نحن لا نرى الهواء، رغم إيماننا بوجوده، وإحساسنا به من خلال التنفس أو الطيران، أو نفخه في إطار السيارات وغير ذلك، لكننا إذا كثّفنا هذا الهواء وكان كتلة كما في حالة الغاز الذي يتحول إلى حالة سائلة متكتلة فإننا نراه، خاصّة إذا كان في أنابيب زجاجية أو بلاستيكية شفافة حيث نرى تحركه.

2. نحن لا نرى بخار الماء الموجود في الجو، أو الذي يخرج من أفواهنا وصدورنا، لكننا نراه إذا تكثف في الجو البارد، أو على الأسطح الباردة مثل زجاجات الماء أو علب العصير البارد، ونرى هذا البخار على شكل سحاب في السماء إذا تكثف.

3. ولا نرى الملائكة رغم إيماننا بوجودهم معنا في بيوتنا، وفي مساجدنا، وأماكن عملنا...، تكتب أقوالنا وأفعالنا، وتُثبِّت المؤمنين وتحفظهم بأمر الله تعالى، وهم يستغفرون للذين آمنوا، ويتنزلون في الأرض في ليلة القدر وفي غيرها.

4. والملائكة مخلوقون من نور غير متكتل أمامنا، وليس له كثافة نراها، وإذا كان بعض الأنبياء والرسل قد رأوا الملائكة وتكلموا معهم فذلك فقط عندما تكتّلوا في صور بشر وآدميين، أو في صورهم الحقيقية المتكتّلة، وهو ما حدث مع الأنبياء إبراهيم ولوط ومحمد عليهم السلام، وحدث مع مريم عليها السلام حيث تمثل لها الروح بشرًا سويًّا.

5. وكذلك فإننا لا نرى الجنّ المخلوقين من النار، لأنهم لا يتكتلون أمامنا، وليس لهم كثافة لنراهم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ {الأعراف: 27}.

وعدم رؤيتنا للملائكة والجن يرجع إلى عدم تهيئتنا في هذه الأرض لأنْ نراهم، وعدم تهيئة البصر عندنا لذلك، بينما نجد أنّ بعض المخلوقات من الحيوانات والطيور ترى الملائكة، وترى الجنّ، وذلك بسبب ما أعدَّه الله تعالى في جهازها البصري من قدرات وإمكانات.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعتم صياح الدِّيَكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأتْ مَلَكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتَعوَّذُوا بالله من الشيطان الرجيم فإنه رأى شيطانًا)[1]، وهو ما يتوافق مع ما يشير إليه علماء الفيزياء من أنّ الشمس لها أشعَّات بألوان مختلفة، منها ما نراه في

[1] صحيح البخاري 3303

ألوان الطّيف السبعة المعروفة، ومنها ما لا نستطيع رؤيته مثل: الأشعّة الفوق البنفسجية، والأشعّة تحت الحمراء.

وواضح من الحديث أنّ الديك يرى ما فوق الأشعّة البنفسجية فيرى الملائكة المخلوقة من النور، في الوقت الذي يوجد بيننا وبينهم غطاء يمنع أبصارنا من رؤيتهم، لأننا لا يمكننا أنْ نرى ما فوق الأشعّة البنفسجية.

وواضح أيضًا أنّ الحِمار يرى ما تحت الأشعّة الحمراء فيرى الجنّ المخلوقين من النار، في الوقت الذي يوجد بيننا وبينهم غطاء يمنع أبصارنا من رؤيتهم ونحن في مكاننا الآن على الأرض في هذه المجموعة الشمسية، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ {الأعراف: 27}، والآية تفيد أنّه بالإمكان أنْ نرى الجنّ من مكان آخر نتحرّر فيه من هذه الأشعّات التي تُشكّل غطاءً على أبصارنا يمنعنا من رؤية الجنّ والملائكة، فالله تعالى لم يقل لنا: وأنتم لا ترونهم، بل قال: (مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)، و(حيث) تفيد المكانية، أيْ إنكم لن تروا الجنّ من المكان الذي تعيشون فيه الآن وهو الأرض التي تشرق عليها الشمس، ويصلكم منها أشعَّات مختلفة تغطي على أبصاركم فلا ترون الجن ولا الملائكة.

إنّ هذه الأشعَّات المنبعثة من الشمس إلى الأرض في هذه الحياة الدنيا والتي لا نراها في ألوان الطيف السبعة، هي هذا الغطاء الذي يمنعنا من رؤية بعض المخلوقات كالملائكة والجنّ، وهذا الغطاء هو الغطاء الذي سيكشفه الله تعالى عنا يوم القيامة، حيث تكون الشمس قد انطفأت وكُوِّرت، وتكون النجوم قد انكدرت، وتكون الكواكب قد انتثرت، فلا شمس ولا أشعة فوق بنفسجية، ولا أشعة تحت الحمراء، والأرض ستكون غير الأرض، وسيبدلها الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ {إبراهيم: 48}، وستشرق الأرض بنور ربها فينكشف الغطاء عن الناس، وترى الأبصار ما كان محجوبًا عنها.

كل الأشعَّات التي كانت تحجب عنا رؤية الملائكة والجنّ ستزول، وسيكون بإمكاننا أنْ نرى كل ما لم نكن نراه في الدنيا.

نحن اليوم في غطاء لا يمكننا بسببه أنْ نرى الملائكة، ولا أنْ نرى الجنّ، وكل من يدّعي ذلك فهو كاذب يفتري على الله الكذب، ولكننا عندما ننتقل إلى عالَم جديد وأرض جديدة يوم القيامة فسيُكشف هذا الغطاء، وسيكون البصر عند الناس حادًّا دقيقًا، وهو قول الله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ {ق: 22}.

أما ما يقوله البعض من أنّ كشف الغطاء يكون في وقت الاحتضار وخروج الروح، وأنّ المُحتَضَر يرى الملائكة أو الشياطين عند

الاحتضار، فهو كلامٌ غير صحيح، لأنّ الله تعالى يبين لنا بشكل صريح أنّ كشف الغطاء سيكون يوم القيامة فقط، يقول الله تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ {ق: 22}، وقد تبين لنا أنّ المُراد باليوم في الآية هو يوم القيامة، أيْ بعد النفخة الثانية، وبعد أنْ تجيء كل نفس معها سائق وشهيد، وليس عند الاحتضار في الحياة الدنيا .

فمُستقَرٌّ ومُستودَع

يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ {الأنعام: 98}.

هذه الآية من الآيات التي وقف المفسرون والعلماء عند تفسيرها كثيرًا، وخاصة قوله تعالى: (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)، وذلك لرحابة واتساع المعاني التي تحملها وتشير إليها اعتمادًا على الدلالات اللغوية:

مستقر: من الفعل الماضي (قرّ)، أيْ ثَبَت وسكَن وتمكّن واستقر.

مستودع: من الفعل (وَدَع)، أيْ ترك، ونقول: أودَع الرجل أمانة عند جاره، أيْ ترك أمانة عند جاره، ومعلوم أنّ المستودَع الذي تُركت عنده الأمانة لا يحق له ولا يستطيع التصرف في الأمانة (الوديعة).

وقد جمع الماوردي في تفسيره (النُكَت والعيون) أشهر التأويلات والأقوال التفسيرية لهذه الآية الكريمة على النحو التالي:

1. فمستقر في الأرض ومستودع في الأصلاب، قاله ابن عباس.
2. فمستقر في الرحم ومستودع في القبر، قاله ابن مسعود.
3. فمستقر في أرحام النساء ومستودع في أصلاب الرجال، قاله عطاء، وقتادة.
4. فمستقر في الدنيا ومستودع في الآخرة، قاله مجاهد.

5. فمستقر في الأرض ومستودع في القبر، قاله الحسن.

6. المستقر ما خُلِق، والمستودع ما لم يُخلَق، وهو مروي عن ابن عباس أيضًا.

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره (المنار): " وآخر ما خطر لي بعد تلخيص أقوال المفسرين أنّ المستقر هو الروح، والمستودع هو البدن، والجُملة مما يتسع المجال فيه للتفسير".

واختلاف التأويلات عند العلماء القدماء والمُحدَثين يشير إلى أنّ الآية قد أَشكَلت على المفسرين فتعدّدت فيها التأويلات ولم تتوقف، وهو ما يفتح الباب واسعًا للتدبر فيها من جديد، والاستفادة من كل علم أو اكتشاف يفيدنا في الوقوف على مُراد الله تعالى فيها.

والملاحظ أنّ قوله تعالى: (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) قد جاء تعقيبًا مباشرًا وسريعًا على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ {الأنعام: 98}، وأنّه متفرعٌ عن الإنشاء، فبعد الإنشاء مباشرة كان الاستقرار والاستيداع، حيث تم استعمال حرف العطف (الفاء) الذي يفيد التعقيب والترتيب والتفرّع.

وقد لفت انتباهي ما يقوله علماء الوراثة عند حديثهم عن الصفات الوراثية السائدة والمتنحية، وأنه يمكننا اعتبار الصفات السائدة صفات (مستقرة)، والصفات المتنحية صفات (مستودعة)، وهو ما يساعد في

تدبّر وفهم قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ ﴾{الأنعام: 98}، بشكل علمي ومقنع.

يقول الدكتور عماد محمد بابكر حسن: (ونحن نظنّ أنّ السّر الذي تحويه هذه الآية هو سرّ علم الجينات أو "الوراثة"، فقد أصبح ثابتًا ومتفقًا عليه بين جميع علماء الأحياء فيما يعرف بقانون "مندل" أنّ الصفات الوراثية التي تحملها الأمشاج تنقسم إلى نوعين:[1]

1. الصفات المستقرة "السَّائدة": وهي التي تستقر في تكوين المخلوق من إنسان أو حيوان أو نبات، وتحدد أيًّا من صفات الوراثة تظهر فيه من لون وشكل وحجم وطبائع وغيرها، فكل إنسان له صفات ظاهرة يراها كل الناس، ولكنّه يحمل في نطفته صفات مستودعة لم تظهر فيه، كأنْ تكون مثلًا عيون أحد الزوجين سوداء من جينات "مستقرة" تمكنّت في خلقه واستقرّت في تكوينه، ولكنّه يحمل صفات وراثية لعيون خضراء حملها عبر الأجداد من جَدِّه العاشر، ولا تظهر إلا فجأة.

2. الصفات المستودعة "المُتنحِّيَة": وهي الصفات التي تنتقل من جيل إلى آخر من غير أنْ تظهر في تركيبه، أيْ كأنَّه يحملها وديعة لا يتصرف بها إلى أنْ تأتي ظروف مختلفة، كأنْ تلتقي صفة مستودعة عند الأب مطابقة لصفة مستودعة عند الأم، فيؤدي ذلك إلى أنْ تستقر هذه الصفة المستودعة أو المتنحية في المولود فيولد بعيون خضراء مثلًا

[1] (آذان الأنعام)، عماد محمد حسن، ص264، دار عزة للنشر، الخرطوم، الطبعة الأولى

رغم أنّ أبويه عيونهما سوداء، ولكنهما حَمَلا هذه الوديعة أو (الصفة المستودعة) إلى أنْ استقرت حيث أراد الله لها أنْ تستقر في مولودهم.

إنّ هذا التفسير لا يتعارض مع التفسيرات التي قال بها المفسرون، لكنّه في ذات الوقت يفتح لنا أبوابًا جديدة للتدبُّر، ويعطينا أفكارًا علمية يمكن البناء عليها ونحن نقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ {الأنعام: 98}.

خصائص الرُّؤى المناميَّة في القرآن الكريم وفي رُؤى النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم

تُؤثِّر الرؤى المنامية في حياة الناس بشكل كبير، فنجد منهم مَن يبني كثيرًا من تصرفاته وعلاقاته وأفكاره على ما يرى في المنام.

فهل فعلًا أنّ كل ما يراه النائم في منامه يمكن اعتباره (رؤيا صادقة)، فيتم التعامل معها بجدية واهتمام من خلال تأمُّلها والبحث عن تأويل صحيح مقنع لها؟

أم أنّ الأمر لا يعدو أنْ يكون في كثير من الأحيان مجرد أضغاث أحلام؟

لقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا رأى أحدُكم شيئًا يكرهه فلْينفُث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوذ من شرها، فإنّها لا تضره)[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا ثلاث: فرؤيا حقٌّ، ورؤيا يُحدِّث الرجلُ بها نفسه، ورؤيا تَحْزينٌ من الشيطان، فمَن رأى ما يكره فليقُم فَلْيُصَلِّ...)[2]

---

[1] صحيح البخاري 5747

[2] صحيح مسلم 2263

ومعنى هذا أنه ليس كل ما يراه النائم في منامه يكون (رؤيا صادقة)، وهو نفسه ما عبَّرت عنه الآية: ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ {يوسف: 44}.، فما يراه النائم يمكن أنْ يكون رؤيا صادقة، وهو ما يمكن تسميته (رؤيا حق) كما جاء في الحديث الشريف، ويمكن أنْ يكون أضغاث أحلام، أو حديث نفس، أو وساوس نفس، أو تحزينًا من الشيطان.

كيف يعرف الإنسان أنَّ ما رآه في منامه هو رؤيا صادقة؟

وللإجابة عن هذ السؤال فإننا سنعرض فيما يلي الرؤى المنامية التي تحدَّث عنها القرآن الكريم، ورؤى النبي صلى الله عليه وسلم التي جاءت في الأحاديث الصحيحة، وسنناقش خصائص ملامح هذه الرؤى لتكون هاديًا لنا في القياس، فهي وإنْ كانت مختلفة العناوين والمواضيع، إلا أنها تشترك في نفس الملامح والخصائص:

أولًا: الرُّؤى المنامية في القرآن الكريم:

1- رؤيا نبيّ الله (إبراهيم) عليه السلام: حيث رأى في منامه أنه يذبح ابنه (إسماعيل) عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ {الصافات: 102}.

وقد كانت هذه الرؤيا المنامية وحيًا وأمرًا من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، لذا نجد إسماعيل عليه السلام يقول: (ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ) في إشارة إلى أنه فهم تأويل رؤيا أبيه، وعلم أنها أمر من الله تعالى.

وقد استجاب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه سبحانه، وتلَّ ابنه للجبين تنفيذًا للأمر، وأسلمَا هو وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله تعالى، فجاء النداء من الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ {الصافات: 104-107}.

2- رؤيا النبي محمد صلى الله عليه وسلم يدخل مكة: حيث رأى عليه السلام أنه يدخل مكة هو وصحبه الكرام، فحدثت رؤياه ووقعت كما هي دون الحاجة إلى فكّ رموزها وتأويلها، فقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في العام السابع للهجرة في عمرة القضاء.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ {الفتح: 27}.

3- رؤيا مَلِك مصر في عهد يوسف عليه السلام: والتي عجز عن تأويلها الملأ من قوم الملك وأخبروه بأنها أضغاث، أحلام وأنهم لا علم لهم بتأويل

الأحلام، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ {يوسف: 43}.

وقد أوَّلها يوسف عليه السلام بأنه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ {يوسف: 47-49}.

4- رؤيا صاحِبَي السجن: يقول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ {يوسف: 36}.

وقد أوَّلها يوسف عليه السلام لهما كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ {يوسف: 41}.

5- رؤيا يوسف عليه السلام: حيث رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا يسجدون له، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ ﴾ {يوسف: 4}.

وقد فهم يعقوب عليه السلام هذه الرؤيا، وعلم أنّ ابنه يوسف عليه السلام سيكون نبيًّا، وأنّ الله تعالى سيُمكّن له في الأرض، وعندها خاف عليه من كيد إخوته، ونصحه أنْ لا يقصص رؤياه عليهم لئلا يكيدوا له، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ {يوسف: 5}.

ثم تحققت هذه الرؤيا ووقعت فعلًا بعد أنْ جمع الله تعالى يوسف عليه السلام بأهله أجمعين في مصر، وخرُّوا له سُجَّدًا: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ {يوسف: 100}.

6- رؤيا النبي عليه السلام للمشركين: وقد كانت هذه الرؤيا تثبيتًا من الله تعالى لنبيه عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي

مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ {الأنفال: 43}.

وقد وقعت هذه الرؤيا فعلًا على أرض المعركة بشكلٍ آخر، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ {الأنفال: 44}.

7- رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم للشجرة الملعونة في القرآن: كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ﴾ {الإسراء: 60}.

والتي أوَّلها بعض العلماء والمفسرين كالماوردي، والأصّم، وابن الجوزي، والبَلْخي، بأنها شجرة اليهود (بني إسرائيل)، التي لُعنت على لسان داود وعيسى ابن مريم في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ {المائدة: 78}.

ويمكننا بعد عرض هذه الرؤى المنامية التي تحدث عنها القرآن الكريم أنْ نقف على مجموعة من الملامح والخصائص التي تميّز هذه

الرؤى، لتساعدنا في معرفة إنْ كان الذي نراه في منامنا هو (رؤى صادقة)، أم (أضغاث أحلام، وأحاديث نفس، وتحزين شيطان).

وأهم هذه الخصائص:

1. لا يُشترط أنْ يكون صاحب الرؤيا الصادقة مؤمنًا، أو مسلمًا، أو رجلًا صالحًا:

فقد رأينا في سورة يوسف أنَّ (المَلِك) – وَهو وَثني – قد أراه الله تعالى في منامه رؤيا صادقة كما في الآية: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ {يوسف: 43}.

وَرأينا أنّ صاحِبَي السجن – وكانا من الوثنيين – قد رأَيَا رؤى صادقة، فكانت رؤيا الأوّل: (إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ)، وكانت رؤيا الثاني: (وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ)، وقد كانت كل هذه الرؤى لهؤلاء الوثنيين رؤى صادقة، وقد أوَّلها يوسف عليه السلام لهم بما علمه الله تعالى من تأويل الأحاديث.

2. لا يشترط في الرؤيا الصادقة أنْ يكون صاحبها بالغًا أو كبيرًا، بل يمكن أنْ يكون غُلامًا صغيرًا:

وهذا ما نجده في رؤيا يوسف عليه السلام عندما كان طفلًا غلامًا، حيث رأى في منامه رؤيا صادقة حدَّث بها أباه يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ {يوسف: 4}، وبمجرد سماع يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام عَرفَ أنَّ ما رآه هو رؤيا صادقة، فوصّاه بأنْ لا يخبر أحدًا من إخوته بما رأى، لئلا يتعرض للأذى والكيد، وهو كما جاء في الآية: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾{يوسف: 5}.

وأعطى ولده إشارة من تأويل هذه الرؤيا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ {يوسف: 6}.

3. الرؤى الصادقة عبارة عن مشاهد ورموز لها دلالات عند تأويلها، وليس فيها أحاديث أو حوارات مطلقًا:

ونحن عندما نستعرض جميع الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم فإننا لا نجد فيها أيّ كلام أو تخاطب بين عناصر الرؤيا، فهي

(رؤيا) أيْ ما تقع عليه العين، لا ما تسمعه الأذن، أو ينطق به اللسان، وهذا نجده واضحًا في قول المَلك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ {يوسف: 43}، فالمَلك في رؤياه يرى فقط، ولم يسمع ولم يتكلم، ولم يدخل في حوارات مع غيره.

ونجد هذا في رؤيا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ {الصافات: 102}، فهو أيضًا يرى فقط، دون أنْ يخاطب أحدًا.

ونجد هذا في قول يوسف عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ ﴾ {يوسف: 4}، فهو يرى هذه الرموز، وتظل حاضرة عالقة في ذهنه ويحدّث بها لأبيه، لكنه لم يسمع في منامه شيئًا ولم يتكلم بشيء.

وفي قول صاحِبَي السجن: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا ﴾ {يوسف: 36}، نجد أنّ صاحبي يوسف عليه السلام لم يتكلما في منامهما بشيء مطلقًا، ولم يسمعا شيئًا، وكانت رؤيا كلٍّ منهما رؤيا عينية أو قلبية لا غير.

وكذلك ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من دخوله لمكة مع المؤمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ {الفتح: 27}.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يرى في منامه مشهدًا لدخوله مكة مع المؤمنين، والله تعالى يُؤَوِّل له ما رأى، ويحققه له على أرض الواقع.

وهكذا في جميع الرؤى التي تحدث عنها القرآن الكريم، فإننا لا نجد إلا رموزًا ومشاهد يمكن الاستدلال منها على التأويل المناسب لها، مثل: (بقرات، خبزًا، سنبلات، أعصرُ خمرًا، الشمس، القمر، كوكبًا، ...).

ولم نجد في أيٍّ من الرؤى المذكورة في القرآن الكريم ما يشير إلى الكلام أو الحوار، لا سماعًا، ولا نطقًا، وفي هذا إشارة إلى أنّ الرؤى الصادقة هي ما يرى النائم من مشاهد ورموز وأشياء ومخلوقات يمكن للعالِمين بالتأويل أنْ يربطوا بين أجزائها وتأويلها.

4. تأتي الرؤى المنامية في القرآن الكريم على صورتين:

الصورة الأولى:

صورة حقيقية، بمعنى أنّ الرائي يرى في منامه أمرًا يحدث في الواقع كما هو، وهو ما كان يحدث مع النبي صلى الله عليه وسلم في

بداية الرسالة، فقد صحَّ عنه عليه السلام ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها قالت: (أوّل ما ابتُدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمةً العباد به أنْ لا يرى شيئًا إلا جاءت كفلق الصبح...)[1]

وهو نفسه تجده في رؤيا كلٍّ من إبراهيم عليه السلام الذي رأى في منامه أنه يذبح ابنه، وفي رؤيا النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي رأى أنه يدخل مكة مع المؤمنين معتمرًا، وكِلاهما تَحَقَّق ما رأَيَاه في المنام.

وهذه الصورة الحقيقية لبعض الرؤى المنامية يمكن أنْ تحدُث مع غير الأنبياء، والواقع يشهد بهذا، فكثير من الناس يقولون: إنّ ما يحدث لنا الآن قد رأيناه سابقًا، أو يقولون: نحن رأينا هذه المشاهد قبل هذا في منامنا.

الصورة الثانية:

صورة رمزية، وهي أنْ يرى النائم في منامه مشاهد، أو رموزًا، أو مخلوقات وصورًا، وهو ما حدث مع المَلِك الذي قال: (إني أرى) حيث تكرر عليه الأمر مرارًا أنْ يرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ما جعله يجمع الملأ فيقول لهم: ﴿

(1) صحيح الترمذي 3632

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴾ {يوسف: 43}.

وكذلك ما حدث مع يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ {يوسف: 4}، فيوسف عليه السلام يرى رموزًا لها دلالات، مثل: الشمس، والقمر، والكواكب، واستطاع يعقوب عليه السلام أنْ يفهمها ويُؤَوِّلها بما علمه الله تعالى.

وكذلك نجد هذه الرموز واضحة في رؤيا صاحِبَي السجن اللذين رأيا خبزًا محمولاً فوق الرأس والطير تأكل منه، ومشهدًا لصناعة الخمر واستخراجها من العنب خمرًا معصورة، وهي رموز فهمها يوسف عليه السلام قائلاً: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ {يوسف: 41}.

5. تكرار الرؤيا في بعض الأحيان:

يستعمل القرآن الكريم الفعل: (أرى) و(أراني) عند إرادة الإشارة إلى تكرار الرؤيا، كما جاء في سياق الحديث عن رؤيا الملك: (وقال الملك إني أرى...)، ورؤيا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: (إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ)، وكما جاء في رؤيا صاحِبَي السجن: ﴿وَدَخَلَ

مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي﴾ {يوسف: 36}.

فالفعل: (أرى) فعل مضارع يشير إلى أنّ المَلِك قد تكررت عليه الرؤيا، ما جعلها في بؤرة اهتمامه وأولوياته.

وكذلك نجد هذا في رؤيا النبي إبراهيم عليه السلام الذي عبّر لابنه بالفعل: (أرى) قائلًا: (إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ)، وفي هذا إشارة إلى تكرار الأمر عليه، وأنه رأى هذا المشهد عدة مرات، ما جعله يصارح ابنه إسماعيل عليه السلام بالأمر، وقد فهم إسماعيل أنّ هذه الرؤيا هي أمر من الله تعالى لأبيه، فقال دون تردد: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ {الصافات: 102}.

ونجد هذا نفسه في تكرار الرؤى على صاحِبَي السجن اللذين استعمل كلٌّ منهما الفعل المضارع: (أراني) للدلالة على تكرار ما يراه في منامه.

6. وضوح الرؤيا، والقدرة على تذكّر رموزها:

في كل الرؤى المنامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم نجد الوضوح في المشاهد والرموز المرئية، ولم نجد أنّ الرائي متحيرًا بين أمرين أو مشهدين، بل نجده يصف ما رأى وكأنه أمامه الآن.

وعلى سبيل المثال فإننا نجد هذا في وضوح الأعداد بلا لبس أو اضطراب، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ ﴾ {يوسف: 4}، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ ﴾ {يوسف: 43}.

فالرؤى صادقة وواضحة وجليّة، يتذكرها الرائي ويصفها وصفًا دقيقًا، وهي هنا تختلف عن أضغاث الأحلام التي لا يتذكرها الرائي بتفاصيلها، وغالبًا ما يبدو عليه الاضطراب عند سردها.

7. القِصَر وعدم الطول:

عندما نرجع إلى كل الرؤى المنامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم نجد أنها رؤى قصيرة جدًا ومُرَكزَّة، وبعضها لا تتجاوز الكلمتين كما في قوله تعالى: (أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ) و(أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ)، وأطولها ما رآه المَلك حيث قال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ {يوسف: 43}، وما رآه يوسف عليه السلام إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ {يوسف: 4}.

وكذلك نجد هذا القِصَر في كل الرؤي المذكورة في القرآن الكريم، وهو ما لا نجده في الأحلام وأضغاث الأحلام التي تستغرق أحيانًا وقتًا طويلًا، وأحداثًا متلاصقة يسردها الراوي.

8. ليس للرؤية الصادقة وقتٌ محدَّد:

لم يحدثنا القرآن الكريم عن أوقات للرؤى المنامية الصادقة، وكل الرؤى التي وردت في القرآن الكريم لم يتم تحديد وقتها، ومعنى هذا أنّ الرائي قد يرى رؤيا صادقة في أيّ وقتٍ من ليل أو نهار.

أما ما ورد من روايات عن النبي صلى الله عليه وسلم تفيد بأنّ أصدق الرؤيا تكون في وقت السَّحَر فهي روايات ما بين ضعيفة، وضعيفة الإسناد، ومنكرة، وقد جاء في السلسلة الضعيفة فيما أخرجه الترمذي برقم (2274)، وأحمد (11258)، والدرامي (2146)، ما نصه: (عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أصدق الرؤيا بالأسحار)[1]، وهو حديث ضعيف لا يُبنى عليه.

9. ليس في الرؤى المنامية رؤيةٌ لله عز وجل:

لم نجد في الرؤى المنامية التي تحدَّث عنها القرآن الكريم أنّ بَشَرًا قد رأى الله عز وجل في منامه، وأنّ الرؤى المنامية الصادقة التي جاءت في القرآن الكريم كانت تختصّ فقط بما يمكن تخيّله ورؤيته، ولا تكون في تخيّل رؤية الله عز وجل، فالله تعالى ليس كمثله شيء، وهو أكبر من

[1] وهو نص قال عنه الألباني في السلسلة الضعيفة: حديث ضعيف.

تخيّلات البشر، ويستحيل على بشرٍ رؤيته لا في الحقيقة، ولا في الخيال، ولا في يقظةٍ، ولا في نوم، وقد سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل أنْ يأذن له بالنظر إليه، لكنه عزّ وجلّ قال له: لن تراني، وهو نفيٌ يشمل الحقيقة والرؤى المنامية، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ {الأعراف: 143}.

ثانيًا: الرُّؤى المناميَّة التي رآها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم:

ولا تختلف خصائص وملامح الرؤى المنامية التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم عن خصائص وملامح الرؤى المنامية في القرآن الكريم، بل إنها تحمل الخصائص والملامح ذاتها، وإنه من لوازم التعميم في هذا البحث العلمي أنْ نعرض لأهم ما صحَّ من هذه الرؤى، ثم نقوم باستنتاج الخصائص والملامح التي تتسم بها.

وفيما يلي بعض الأحاديث الصحيحة التي تتحدث عن رُؤىً مناميَّة رآها النبي صلى الله عليه وسلم:

1. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رَأَيْتُ ذاتَ لَيْلَةٍ، فِيما يَرَى النَّائِمُ، كَأنَّا في دارِ عُقْبَةَ بنِ رافِعٍ، فَأُتِينا

برُطَبٍ مِن رُطَبِ ابْنِ طابٍ، فأوَّلْتُ الرِّفْعَةَ لنا في الدُّنْيا، والْعاقِبَةَ في الآخِرَةِ، وأنَّ دِينَنا قدْ طابَ).[1]

وهي رؤيا لعدد من الرموز:

- (دار عقبة بن رافع)، والتي أوَّلَها النبي صلى الله عليه وسلم من خلال اسم صاحب الدار أنها الرفعةُ في الدنيا، والعاقبةُ في الآخرة.

- (رُطب ابن طاب)، والذي أوَّله النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ ديننا قد طاب.

ونلاحظ في هذه الرؤيا أنها اقتصرت على مشهد الإتيان بالرُّطَب للنبي عليه السلام في مكان محدّد وهو دار عقبة بن رافع، وأنها خَلَتْ من الكلام والمحاورة بين عناصر الرؤيا، وهو ما تتّسِم به الرؤى في القرآن الكريم.

2. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: (أرَانِي أتَسَوَّكُ بسِوَاكٍ، فَجَاءَنِي رَجُلَانِ، أحَدُهُما أكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأصْغَرَ منهمَا، فقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إلى الأكْبَرِ منهمَا).[2]

وهي رؤيا يسمع فيها النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام وهو يعلِّمه أنْ يُكبِّر، فيُعطي السواك للرجل الأكبر والذي يُحتمل

---

[1] صحيح مسلم ج4: ص 2270

[2] صحيح البخاري 246

أنْ يكون مَلكًا أيضًا، فهي وحيٌ وتعليمٌ من الله تعالى، وقوله عليه السلام: (فقيل لي)، يدلّ على أنه وحيٌ له من جبريل، ولا يعني أنه حوار بين عناصر الرؤيا، والنبي في الرؤيا لم يتحدث مع أحد، ولم يحدثنا فيها عن رموز، وليس فيها تأويلٌ من جبريل عليه السلام، أو من النبي صلى الله عليه وسلم، فهي رؤيا تعليم بطريق الوحي في المنام، ولذا فهي لا تنطبق عليها خصائص الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم.

3. عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رَأَيْتُ في المَنامِ أنِّي أُهاجِرُ مِن مَكَّةَ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهَلِي إلى أنَّها اليَمامَةُ أوْ هَجَرُ، فإذا هي المَدِينَةُ يَثْرِبُ، ورَأَيْتُ في رُؤْيايَ هذِه أنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ فإذا هو ما أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بأُخْرَى فَعادَ أحْسَنَ ما كانَ فإذا هو ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الفَتْحِ، واجْتِماعِ المُؤْمِنِينَ ورَأَيْتُ فيها بَقَرًا، واللَّهُ خَيْرٌ فإذا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَومَ أُحُدٍ، وإذا الخَيْرُ ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الخَيْرِ وثَوابِ الصِّدْقِ، الذي آتانا اللَّهُ بَعْدَ يَومِ بَدْرٍ).[1]

وفي هذه الرؤيا نجد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى مشاهد ورموزًا مختلفة، وأوَّلَها بما علَّمه الله تعالى، فالأرض التي بها نخلٌ أوَّلَها المدينةَ التي كانت دار هجرته عليه السلام، ورأى أنه يهزُّ سيفًا فينقطع صدره، فأوّلَه ما أصيب من المؤمنين في أُحُد، ثم يهزُّه أخرى فيعود

---

[1] صحيح البخاري 3622

أحسن ما كان، فأوّلَه ما جاء الله به من الفتح، ورأى بقَرًا، فأوّلَه النفرَ من المؤمنين يوم أُحُد.

وينسحب على هذه الرؤيا ما ينسحب على الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم من الملامح والخصائص، فلا كلام فيها ولا حديث، وهي رموز لها دلالاتها التي يمكن تأويلها.

4. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنِّي رأَيْتُ في المنامِ كأنّ جبريلَ عند رأسِي، وميكائيلَ عندَ رِجْلَيَّ، يقولُ أحدُهما لصاحِبِهِ: اضربْ لَهُ مَثَلًا، فقال: اسمعْ سمعَتْ أذنُكَ، واعقلْ عقِلَ قلبُكَ؛ إنَّما مَثَلُكَ ومَثلُ أمتِكَ كمَثَلِ مَلِكٍ اتخذَ دارًا، ثُمَّ بنى فيها بيتًا، ثُمَّ جعل فيها مائدةً، ثُمَّ بعثَ رسولًا يدعو الناسَ إلى طعامِهِ، فمنهم مَنْ أجابَ الرسولَ، ومنهم مَنْ تَرَكَهُ، فاللهُ هُوَ الملِكُ، والدارُ الإسلامُ، والبيتُ الجنةَ، وأنتَ يا محمدُ رسولٌ، مَنْ أجابَكَ دَخَلَ الإسْلامَ، وَمَنْ دخلَ الإسلامَ دخلَ الجنةَ، ومَنْ دخلَ الجنةَ أكلَ ما فيها).[1]

وفي هذه الرؤيا نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل وميكائيل، وهما مَلَكان كريمان، وسمعهما يتكلمان، وكان كلامهما وحيًا من الله تعالى إليه، ليسمع منهما، ويعلماه وهما يضربان له مَثَلَه ومَثَلَ أُمّته.

[1] صحيح الجامع 2465 صححه الألباني

ولا نجد في هذه الرؤيا رموزًا تحتاج إلى تأويل، فهي وحيٌ فيه تثبيتٌ وتبشيرٌ من الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم ليطمئن قلبه، فيثق بموعود الله تعالى، وأنه منصورٌ لا محالة، ولا ينطبق على هذه الرؤيا التعليمية ما ينطبق على الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم من خصائص وملامح.

5. عن سُمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأصْحابِهِ: هلْ رَأَى أحَدٌ مِنكُم مِن رُؤْيا قالَ: فَيَقُصُّ عليه مَن شاءَ اللَّهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَداةٍ: إنَّه أتانِي اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإنَّهُما ابْتَعَثانِي، وإنَّهُما قالا لي انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقْتُ معهُما، وإنَّا أتَيْنا علَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ها هُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى قالَ: قُلتُ لهما: سُبْحانَ اللَّهِ ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بكَلُّوبٍ مِن حَدِيدٍ، وإذا هو يَأْتي أحَدَ شِقَّيْ وجْهِهِ فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفاهُ، ومَنْخِرَهُ إلى قَفاهُ، وعَيْنَهُ إلى قَفاهُ، - قالَ: ورُبَّما قالَ أبو رَجاءٍ: فَيَشُقُّ - قالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلى الجانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ بالجانِبِ الأوَّلِ، فَما يَفْرُغُ مِن ذلكَ الجانِبِ حتَّى يَصِحَّ ذلكَ الجانِبُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى قالَ: قُلتُ: سُبْحانَ

اللَّهِ ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى مِثْلِ التَّنُّورِ – قالَ: فأحْسِبُ أنَّه كانَ يقولُ – فإذا فيه لَغَطٌ وأَصْواتٌ قالَ: فاطَّلَعْنا فِيهِ، فإذا فيه رِجالٌ ونِساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِن أسْفَلَ منهمْ، فإذا أتاهُمْ ذلكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قالَ: قُلتُ لهما: ما هَؤُلاءِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى نَهَرٍ – حَسِبْتُ أنَّه كانَ يقولُ – أحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وإذا في النَّهَرِ رَجُلٌ سابِحٌ يَسْبَحُ، وإذا علَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قدْ جَمع عِنْدَهُ حِجارَةً كَثِيرَةً، وإذا ذلكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتي ذلكَ الذي قدْ جَمع عِنْدَهُ الحِجارَةَ، فَيَفْغَرُ له فاهُ فيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَيْهِ كُلَّما رَجَعَ إلَيْهِ فَغَرَ له فاهُ فأَلْقَمَهُ حَجَرًا قالَ: قُلتُ لهما: ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ، كَأَكْرَهِ ما أنْتَ راءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وإذا عِنْدَهُ نارٌ يَحُشُّها ويَسْعَى حَوْلَها قالَ: قُلتُ لهما: ما هذا؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ، فيها مِن كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وإذا بيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لا أكادُ أرَى رَأْسَهُ طُولًا في السَّماءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِن أكْثَرِ وِلْدانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ قالَ: قُلتُ لهما: ما هذا ما هَؤُلاءِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا فانْتَهَيْنا إلى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ، لَمْ أرَ رَوْضَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْها ولا أحْسَنَ قالَ: قالا لِي: ارْقَ فيها قالَ: فارْتَقَيْنا فيها، فانْتَهَيْنا إلى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ ولَبِنِ فِضَّةٍ، فأتَيْنا بابَ المَدِينَةِ فاسْتَفْتَحْنا فَفُتِحَ لنا فَدَخَلْناها، فَتَلَقَّانا فيها رِجالٌ شَطْرٌ مِن خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ

ما أَنْتَ راءٍ، وشَطْرٌ كَأَقْبَحِ ما أَنْتَ راءٍ قالَ: قالا لهمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذلكَ النَّهَرِ قالَ: وإذا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأنَّ ماءَهُ المَحْضُ في البَياضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَيْنا قدْ ذَهَبَ ذلكَ السُّوءُ عنْهمْ، فَصارُوا في أحْسَنِ صُورَةٍ قالَ: قالا لِي: هذِه جَنَّةُ عَدْنٍ وهذاكَ مَنْزِلُكَ قالَ: فَسَما بَصَرِي صُعُدًا فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبابَةِ البَيْضاءِ قالَ: قالا لِي: هذاكَ مَنْزِلُكَ قالَ: قُلتُ لهما: بارَكَ اللَّهُ فِيكُما ذَرانِي فأدْخُلَهُ، قالَا: أمَّا الآنَ فلا، وأَنْتَ دَاخِلَهُ قالَ: قُلتُ لهمَا: فإنِّي قدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَما هذا الذي رَأَيْتُ؟ قالَ: قالَا لِي: أما إنَّا سَنُخْبِرُكَ، أمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الذي أتَيْتَ عليه يُثْلَغُ رَأْسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّه الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ ويَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ، وأَمَّا الرَّجُلُ الذي أتَيْتَ عليه، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ، ومَنْخِرُهُ إلى قَفَاهُ، وعَيْنُهُ إلى قَفَاهُ، فإنَّه الرَّجُلُ يَغْدُو مِن بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وأَمَّا الرِّجَالُ والنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ في مِثْلِ بنَاءِ التَّنُّورِ، فإنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّوَانِي، وأَمَّا الرَّجُلُ الذي أتَيْتَ عليه يَسْبَحُ في النَّهَرِ ويُلْقَمُ الحَجَرَ، فإنَّه آكِلُ الرِّبَا، وأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا ويَسْعَى حَوْلَهَا، فإنَّه مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الذي في الرَّوْضَةِ فإنَّه إبْرَاهِيمُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ علَى الفِطْرَةِ قالَ: فَقالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يا رَسولَ اللَّهِ، وأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟ فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ، وأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ

كَانُوا شَطْرٌ منهمْ حَسَنًا وشَطْرٌ قَبِيحًا، فإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عنْهمْ).[1]

وهذه رؤيا فيها مشاهد لأحوال أهل الطاعات، وما أعدّ الله لهم من الخيرات، ومشاهد لأهل المعاصي وما أعدّ الله لهم من العذاب، ورأى فيها إبراهيم عليه السلام، ورأى الجنة وقصره فيها وأنه سيدخله.

ولا شك أنها وحيٌ من الله تعالى، حيث أرسل الله سبحانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه مَلَكَين يعلّمانه، ويبيّنان له، ولا تنسحب على هذه الرؤيا ملامح وخصائص الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم.

6. عن سُمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قال: فيقصّ عليه من شاء، وإنّه قال ذات غداة: (إنّه أتاني ملكان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رجليّ للذي عند رأسي: اضرب مَثّل هذا ومَثّل أمُّته، فقال: إنّ مَثَله ومَثَل أُمّته كمَثَل قوم انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجُلٌ مُرَجَّل في حُلَّة حَبْرة فقال: أرأيتم إنْ وردتُ بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أتتبعوني؟ فقالوا: نعم، فانطلق بهم فأوردهم رياضًا معشبة وحياضًا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال

[1] صحيح البخاري 7047

فقلت لكم: إنْ وردتُ بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أتتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: إنّ بين أيديكم رياضًا أعشب من هذا، وحياضًا أروى من هذه، فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق، والله لنتبعن، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه).[1]

والرؤيا هنا تتحدث عن مَلَكَين أتَيَا النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، وأخذا يتكلمان أمامه وهو يسمع، ويضربان له مَثَلًا له ولأُمّته.

وليس فيها رموز تحتاج إلى تأويل، ولكنها وحيٌ من الله تعالى لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ {الإسراء: 74}.

7. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت غنمًا كثيرة سوداء، دخلتْ فيها غنم كثيرة بيض، قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: العَجَم).[2]

في هذه الرؤيا يرى النبي صلى الله عليه وسلم مشهدًا لغنم كثيرة سوداء، تدخل فيها وتتبعها غنم كثيرة بِيض، وعندما سأله الصحابة عن تأويل ما رأى أخبرهم بأنهم العَجَم، أي أنّ العجم سيدخلون في الإسلام مع العرب.

---

[1] حديث صحيح على شرط الشيخين – المستدرك على الصحيحين ج4: ص 439

[2] السلسلة الصحيحة 1018

وهي رؤيا فيها من الرموز والقِصَر والوضوح وعدم الكلام والتحدث ما يحقق فيها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي تحدث عنها القرآن الكريم.

8. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: (سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: بيْنَا أنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حتَّى إنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ في أظْفَارِي، ثُمَّ أعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قالوا: فَما أوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: العِلْمَ).[1]

وفي هذه الرؤيا يرى النبي صلى الله عليه وسلم مشهدًا واضحًا يُؤتَى فيه بقدح لبن فيشرب حتى يرتوي، ثم يُعطِي ما تبقَّى في القدح لعمر بن الخطاب، وعندما سأله الصحابة عن تأويل ما رأى قال لهم: العلم، أيْ أنه عليه السلام أوَّلَ ما أعطى لعمر رضي الله عنه بالعلم.

وفي الرؤيا نجد رموزًا كاللبن والقدح، ونجد القِصَر، ونجد الوضوح، وعدم الكلام، وهو نفس ما نجده في الرؤى المنامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم.

9. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بيْنَما أنا نائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وعليهم قُمُصٌ، مِنْها ما

---

[1] صحيح البخاري 82

يَبْلُغُ الثَّدْيَ، ومِنْها ما يَبْلُغُ دُونَ ذلكَ، ومَرَّ عَلَيَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وعليه قَمِيصٌ يَجُرُّهُ قالوا: ما أوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: الدِّينَ).[1]

وفي هذه الرؤيا يرى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وعليه قميص طويل يجُرّه، وأنّ غيره من الناس عليهم قُمُصٌ مختلفة الأطوال، فمنهم من تصل قُمُصُهم إلى الثدي، ومنهم أقل من ذلك، وعندما سأله الصحابة عن تأويل ما رأى لعمر قال لهم: الدين.

وهي رؤيا واضحة، وقصيرة، ولا كلام فيها، وتضُمّ رموزًا كالقُمُص بأطوال مختلفة، وفيها رمز الجرّ للقميص من عُمَر رضي الله عنه، وينسحب عليها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي يتحدث عنها القرآن الكريم.

10. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُرِيتُ في المَنامِ أنِّي أنْزِعُ بدَلْوِ بَكْرَةٍ علَى قَلِيبٍ، فَجاءَ أبو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، واللَّهُ يَغْفِرُ له، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فاسْتَحالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وضَرَبُوا بعَطَنٍ).[2]

(وفي هذه الرؤيا يرى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى أنه على بِئْرٍ يَستقِي منها، فجاء أبو بَكْرٍ وعُمَرُ رضِي اللهُ عنهما، فقام أبو بَكْرٍ

[1] صحيح البخاري 7008

[2] صحيح البخاري 3682

رضِي اللهُ عنه فنَزَع ذَنُوبًا أو ذَنُوبَيْنِ، أي: أَخْرَج من البِئر ذَنُوبًا من ماءٍ، وهو الدَّلْو، أو ذَنُوبَيْنِ، وفي إخراجِه للماءِ ونَزْعِه ضَعْفٌ، وفي قوله: "ضَعْف" إشارةٌ إلى قِصَرِ مُدَّةِ خِلافتِه، ثُمَّ جاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضِي اللهُ عنه فأَخَذ الذَّنُوبَ مِن يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فتحوَّل في يَدِه غَرْبًا، وهو الدَّلْوُ الكبيرُ الذي يُسقَى به البَعِيرُ، وهو أكبرُ مِن الذَّنُوبِ، ثم يقول النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "فلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا في الناسِ يَفْرِي فَرْيَه"، والعَبْقَرِيُّ هو الحاذِق المُتقِن لعملِه، والمعنى: لم أَرَ في النَّاسِ سَيِّدًا عظيمًا ورجلًا قَوِيًّا، وإنسانًا حاذِقًا يَعمل عملَه ويَقطع قَطْعَه. وقوله: "وضَرَبوا بعَطَنٍ"، والعَطَنُ: مَبْرَكُ الإبِلِ حولَ الماء، أي: ما زال يُخرِج للناسِ الماءَ حتى نَصَب الناسُ خِيامَهم، وأَقاموا إبلَهم حولَ الماء، وتأويلُ هذا: ما حَصَل مِن طُولِ خلافتِه رضِي اللهُ عنه، وما كان فيها من فَتْحٍ وخَيْر. وفي الحديثِ: إعلامٌ بخِلافتِهما رضِي اللهُ عنهما، وصِحَّةِ وِلايتِهما، وكثرةِ الانتفاعِ بهما).[1]

وفي الرؤيا نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى مشهدًا واضحًا وقصيرًا لا كلام فيه، وفيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ورأى رموزًا كالذَّنُوب، والغَرْب، والعَطَن، مما يجعل الرؤيا تتصف بملامح وخصائص الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم.

[1] (عن الموسوعة الحديثية – الدُّرَر السَّنِيَّة)

11. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رَأَيْتُ امْرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ، خَرَجَتْ مِنَ المَدِينَةِ حتَّى نَزَلَتْ بمَهْيَعَةَ، فَتَأَوَّلْتُهَا أنَّ وبَاءَ المَدِينَةِ نُقِلَ إلى مَهْيَعَةَ وهي الجُحْفَةُ).[1]

وهي رؤيا واضحة وقصيرة ولا كلام فيها، رأى فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم مشهدًا ورموزًا لامرأة سوداء ثائرة الرأس تخرج من المدينة، وقد أوَّلها النبي عليه السلام أنَّ وباء المدينة يخرج منها إلى الجُحفة بين مكة والمدينة، وأنّ الله قد أكرم نبيه والمؤمنين بالعافية من الوباء.

12. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيتُ في المنامِ كأنَّ في يديَّ سِوارينِ من ذَهبٍ فَهَمَّنِي شأنُهما فأوحيَ إليَّ أنْ أنفُخَهما فنفختُهما فَطَارَا، فأوَّلتُهما كاذبينِ يخرجانِ من بعدي يقالُ لأحدِهما: مَسلمةُ صاحبُ اليمامةِ، والعنسيُّ صاحبُ صنعاءَ).[2]

وهي رؤيا واضحة، وقصيرة، ولا كلام فيها، وفيها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي جاءت في القرآن الكريم، حيث يرى النبي صلى الله عليه وسلم مشهدًا لسِوارَين من ذهب في يديه، وأنّ الله أوحى إليه أنْ ينفخ فيهما فنفخ فيهما فَطَارَا.

---

[1] صحيح البخاري 7039

[2] صحيح الترمذي 2292صححه الألباني

وقد أوّلَها النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلين كاذبين يدَّعِيان النبوة من بعده، يقال للأول مسلمة (مسيلمة) من اليمامة، ويقال للآخر العنسي من صنعاء.

13. عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بَينا أنا نائمٌ رأيتُ عمودَ الكتابِ احْتُمِلَ مِن تحتِ رأسي فعُمِدَ بهِ إلى الشَّامِ، ألا وإنَّ الإيمانَ حين تقعُ الفتنُ بالشَّامِ).[1]

وفي رواية عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيتُ ليلة أُسرِيَ بي عمودًا أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قال: عمود الكتاب أُمِرنا أنْ نضعه بالشام، وبينا أنا نائم إذ رأيت الكتاب اختُلس من تحت وسادتي، فظننت أن الله قد تخَلَّى من أهل الأرض، فأتبعته بصري، فإذا هو نور بين يديّ، حتى وُضِع بالشام).[2]

وفي هذه الرؤيا يرى النبي صلى الله عليه وسلم عمودَ الكتاب تحمله الملائكة إلى الشام في نفس ليلة الإسراء والمعراج التي أسْرِي فيها إلى بيت المقدس، ليكون مُقدمةً لما سَيُرِيه الله تعالى من الآيات في هذه الرحلة العظيمة، فهو يرى ما سيحدث في الشام، ويشهد لهم بالإيمان عند

(1) صحيح الترغيب والترهيب 3094 صححه الألباني

(2) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (3092)، وصححه البيهقي في دلائل النبوة (6/447)

وقوع الفتن، وكأنَّ عمود الكتاب يرمز إلى الإيمان والقوة والثبات، وأنّ عمود الكتاب مكانه الأرض المباركة فلسطين.

وهي رؤيا تتحقق فيها ملامح وخصائص الرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم، إذ لا كلام فيها، وهي مشهد واضح، وقصير، وفيه رموز مثل: عمود الكتاب.

14. عن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها أنها قالت: (نَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَوْمًا قَرِيبًا مِنِّي، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَتَبَسَّمُ، فَقُلْتُ: ما أَضْحَكَكَ؟ قالَ: أُنَاسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هذا البَحْرَ الأخْضَرَ كَالْمُلُوكِ علَى الأسِرَّةِ قالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ، فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا، فأجَابَهَا مِثْلَهَا فَقالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، فَقالَ: أَنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ، فَخَرَجَتْ مع زَوْجِهَا عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ غَازِيًا أَوَّلَ ما رَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ مع مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِن غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ، فَنَزَلُوا الشَّأْمَ، فَقُرِّبَتْ إلَيْهَا دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَصَرَعَتْهَا، فَمَاتَتْ).[1]

وفي الحديث نجد أنّ رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم تتكرر، فيَرى في مرتين أنّ أناسًا من أمّته يركبون البحر الأخضر كالملوك على الأَسِرَّة، وقد حدّث عليه السلام برؤياه لأمّ حرام بنت مَلحان وهي إحدى

(1) صحيح البخاري 2799

محارمه، فسألته الدعاء لها أنْ تكون من هؤلاء الغزاة، فقال لها: أنت من الأوّلين.

وقد تحققت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في زمن خلافة معاوية رضي الله عنه حيث ركبت أم حرام رضي الله عنها وزوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه البحر مع المقاتلين في غزو الروم، فلما خرجت من البحر وقعت عن دابتها فماتت.

وهي رؤيا قصيرة، وواضحة، ولا كلام فيها، ولا محاورة، وفيها رموز مثل: الملوك والأسِرَّة، وتنطبق عليها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي تحدَّث عنها القرآن الكريم.

ملامح وخصائص رؤى النبي صلى الله عليه وسلم:

وبعد هذا العرض لبعض ما صحَّ من رُؤى النبي صلى الله عليه وسلم، فإننا نجد أنّ ملامح وخصائص رؤاه عليه السلام تتوافق مع ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم، ولا تتعارض معها في شيء.

ويمكننا أنْ نُقسِّم هذه الرؤى إلى قسمين:

القسم الأول:

وفي هذه الرؤى نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه المَلَك جبريل، أو المَلَكَان جبريل وميكائيل فيكلمانه، أو يتكلمان فيما بينهما أمامه، والنبي عليه السلام يسمع لكلامهما، فيتعلم منهما، ثم يُحدِّث

صحابته بما رأى أو سمع، ولم يرد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى الله تعالى أو سمعه في منامه، لكنه سبحانه كان يرسل الملائكة له بالوحي والتعليم.

وهو ما نجده في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل وهما يضربان له مَثَلَه ومَثَلَ أمّته.

ونجده في حديث سُمرة بن جندب رضي الله عنه حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم مَلَكَين يأتيانه، فينطلق معهما، ويُريانه مشاهد مختلفة، ثم يؤوِّلانها له.

وكذلك نجده في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه يعطي السواك للرجل الأصغر، لكنه يسمع جبريل عليه السلام يقول له: كبِّر، فيدفعه للأكبر منهما.

وهذه الرؤى بلا شك وحيٌ من الله تعالى لنبيه عليه السلام من خلال الملائكة المرسلين، وهو ما لا ينبغي إلا لنبيٍّ أو رسول، وهي رؤى لا تنسحب عليها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي يتحدث عنها القرآن الكريم، والأمثلة في ذلك كثيرة.

القسم الثاني:

وهي رؤى منامية مجرّدة، يرى فيها النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد أو رموزًا يُؤوِّلها هو بنفسه بما علَّمه الله تعالى من تأويل الأحاديث، وهي رؤى كثيرة ذكرنا بعضًا من الأمثلة عليها.

ومن هذا ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُتِي برُطَب فأوَّله الرفعةَ في الدنيا والعاقبة في الآخرة.

وكذلك ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه يهاجر إلى يثرب، ورأى أنه يهز سيفًا فينقطع صدره، فأوّله ما أصيب من المؤمنين في أحد، ثم يهزه أخرى فيعود أحسن ما كان، فأوّله ما جاء الله به من الفتح، ورأى بقرًا، فأوّله النفر من المؤمنين يوم أحد.

ونجد هذا في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حيث رأى عمود الكتاب يُحتَمَل من تحت رأسه، فأوّله الإيمان حين تقع الفتن بالشام.

والرؤى في هذا القسم تنسحب عليها ملامح وخصائص الرؤى المنامية التي يتحدث عنها القرآن الكريم، فهي عبارة عن مشاهد قصيرة وسريعة، وفيها رموز وإشارات، ولا كلام فيها.

الخلاصة:

خصائص الرؤى المنامية في القرآن الكريم، وفي رؤى النبي صلى الله عليه وسلم:

ويُمكننا بعد هذا الاستقراء للرؤى المنامية، أنْ نُلخِّص الملامح والخصائص المشتركة للرؤى المنامية المذكورة في القرآن الكريم، وفي رؤى النبي صلى الله عليه وسلم كما يلي:

1. الرؤى المنامية الصادقة هي في معظمها عبارة عن مشاهد ورموز لها دلالات عند تأويلها.
2. ليس في الرؤى المنامية الصادقة أحاديث وقصص، أو كلام، أو حوارات.
3. لا يُشترط في الرؤى الصادقة أنْ يكون أصحابها من أهل الإيمان.
4. الرؤى الصادقة يراها الغلام الصغير، والرجل الكبير.
5. يمكن أنْ تأتي الرؤى المنامية على صورتين: صورة حقيقية لما يحدث في الواقع، وصورة رمزية يمكن أنْ يتم تأويلها وفهمها بحسب طبيعة الشخص وحياته وبيئته.
6. قد يحدث أنْ تتكرر الرؤيا على الرائي في بعض الأحيان.
7. الرؤى المنامية الصادقة تتسم بالوضوح وقدرة صاحبها على تذكّر مشاهدها وتفاصيلها.
8. تتسم الرؤى المنامية الصادقة بالقِصَر وعدم الطول.

9. ليس للرؤيا الصادقة وقتٌ محدد، فقد يراها الرائي في أيّ وقت ينام فيه من ليل أو نهار.

10. الطهارة قبل النوم ليست شرطًا للرؤيا الصادقة.

11. تختصّ رؤى الأنبياء بالوحي ورؤية الملائكة وسماعهم والتعلُّم منهم، ولا يكون هذا لغيرهم.

12. لا نجد في القرآن الكريم ولا في الرؤى المنامية التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم أنه يمكن لبشر أنْ يرى الله عز وجل في منامه، وأنّ الرؤى المنامية الصادقة تختصّ فقط بما يمكن تخيّله ورؤيته، ولا تكون في تخيّل رؤية الله عز وجل، فالله تعالى ليس كمثله شيء، وهو أكبر من تخيّلات البشر في الدنيا، ويستحيل على بشر رؤيته لا في يقظة ولا في نوم، وقد سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل أنْ يأذن له بالنظر إليه لكنه عز وجل قال له: لن تراني، وهو نفيٌ يشمل الحقيقة والرؤى المنامية، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ {الأعراف: 143}.

هذه هي أهم الملامح والخصائص التي يمكن استقراؤها من خلال تأمُّل الرؤى المنامية التي تحدّث عنها القرآن الكريم، والرؤى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا نستطيع أنْ نستقرئ كل ما يراه الناس في منامهم، لكنه يكفينا ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء في الصحيح مما رأى النبي صلى الله عليه وسلم، والذي لا يُختَلَف على صحته عند أهل الحديث.

وعلى هذا فنحن لا نعتمد على ما يرى الناس في منامهم، ولا نأخذ منه، ولا نقف عنده، إلا ما اتصف بخصائص الرؤى المنامية الصادقة السابقة، فأكثر ما يرى الناس يأتي في سياق أضغاث الأحلام، وحديث النفس، وتحزين الشيطان.

فَوَيْلٌ للمُصَلِّين

يقول الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ {الماعون: 4-5}.

جاءت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن المشركين الذين يُكذِّبون بيوم الدين، فهم قبل كل شيء مشركون ومكذّبون بيوم الدين، فلا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يعملون لما بعد الموت.

وتمضي سورة "الماعون" تَذكُر صفات هؤلاء المكذبين التي تكشف شخصياتهم ونفوسهم التي تنكر البعث، فهم لا ترِقّ قلوبهم لليتيم الذي انقطع عنه النصير، وانكسر قلبه، فيقهرونه بكل طريقة، فيدُعُّونه ويبعدونه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ {الماعون: 2}، وهذه صفة كل جبان لئيم.

وهم في الوقت نفسه لا يبحثون إلا عن مصالحهم الضيّقة، ولا يهمُّهم فقر الفقراء، ولا ضعف المساكين، وكل همّهم أنْ يتمتعوا ويأكلوا كما تأكل الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ {محمد: 12}.

وهم يَستقْوُوْن على كل ضعيف بما آتاهم الله من جاهٍ وسلطانٍ ومال، ففي الوقت الذي لم يسلَم منهم يتيم، فإنهم لا يُطعمون المساكين،

ولا يشجعون غيرهم على إطعامهم، ولا يعملون على حل مشكلاتهم أو مساعدتهم، وكل هذا لأنهم يكذّبون بيوم الدين، فلا شيء يدفعهم لفعل الخير، وهم لا يحسبون حسابًا للموت، ولما بعد الموت.

إنّ هؤلاء المكذّبين بيوم الدين – ومع هذه الأخلاق الدنيئة – فهم يُصلُّون عند البيت الحرام، ويطوفون بالكعبة، لكنهم يسْهَوْن عن حقيقة ما فرضه الله تعالى عليهم من صلاة أو زكاة أو حج أو أخلاق، فيُصلّون صلاةً هم صنعوها، ويؤدّون حركات من عند أنفسهم، ويُخرِجون في صلاتهم أصواتًا عن هوىً في نفوسهم، يقول الله تعالى عن هؤلاء المشركين: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ {الأنفال: 35}.

فصلاتُهم (مُكاءٌ وتَصدية) أيْ: صفيرٌ وأصواتٌ يُخرجونها من أفواههم، وتصفيقٌ بأيديهم، وضجيجٌ يُحدِثونه عند البيت الحرام ليحُلَّ محلَّ الدعاء والتسبيح والاستغفار، وهم بهذا المُكاء وهذه التَّصدية إنما يَسْهَوْن عن الصلاة التي جاء بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عن الله تعالى، ويَسْهَوْن عن معناها وأركانها وطريقتها، وينحرفون عن مُراد الله تعالى فيها، وهو ما صرّحت به الآيات: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ {الماعون: 4-5}.

والسَّهو هنا بمعنى ترك ما يجب عليهم القيام به، فهم تركوا الصلاة التي فرضها الله تعالى، وجاءوا بصلاة من عندهم، فاستحقوا الويل من الله تعالى.

وهم في ذات الوقت يسْهَوْن متعمدين عن الطواف الصحيح الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويُغيّرون فيه كما يشاءون، فيطوفون عراة، ويرمون ثيابهم التي عَصَوْا ربهم بها، ويتركونها مُلقاة على الأرض، ولا يأخذونها، ويذرونها تُداس بالأرجل حتى تَبْلَى، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة، فتقول، مَن يُعِيرُني تِطوافًا؟ تجعله على فرجها، وتقول: اليوم يبدو بعضُه، أو كلُّه، فما بدا منه فلا أُحِلّه، فنزلت الآية: (خذوا زينتكم عند كل مسجد)[1]

وهؤلاء المشركون الذين يُكذّبون بيوم الدين، ويُصلُّون صلاة مُكاء وتصدية، ويطوفون بالبيت وهم عراة، فإنهم يَسهَوْن أيضًا عن الزكاة التي فرضها الله عليهم وعلى آبائهم، فيَدُعُّون اليتيم، ولا يَحُضُّون على طعام المسكين، ويُراءُون بصلاتهم وطوافهم، ويمنعون كلَّ عَوْن عن المحتاجين، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ

[1] صحيح مسلم 3028

لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ {فصلت: 6-7}.

وهذه الآيات من سورة "فصلت" تساعدنا في فهم الآيات في سورة الماعون بلا أيّ لبس أو حَيرة، ويمكننا أنْ نلمح التشابه في الدلالات بين الآيات في السورتين من جهات:

1. الآيات في سورة "الماعون" تتحدث عن المكذبين الذين يكذبون بيوم الدين، والآيات في سورة "فصلت" تتحدث عن المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة.

2. الآيات في سورة "الماعون" تتحدث عن منع المكذبين للزكاة، ودعِّهم اليتيم، وحرمان المسكين، ومنع الماعون، والآيات في سورة "فصلت" تتحدث عن منع المشركين للزكاة.

3. الآية (فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ) في سورة الماعون تنتهي عند: (المصلين)، ثم تأتي الآية التي بعدها لتبيّن لنا مَن هؤلاء المصلين، وأنهم الساهون عن صلاتهم، الذين يراءون ويمنعون الماعون، والآية (...وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ) في سورة فصلت تنتهي عند (المشركين)، ثم تأتي الآية التي بعدها لتبيّن مَن هؤلاء المشركين، وأنهم الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة كافرون، وفي هذا إشارة إلى أنّ المصلين الذين تتحدث عنهم سورة الماعون هم مشركون.

إنّ الزكاة لم تُفرض فقط بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بل هي مفروضة على المشركين من قبل، ولكنهم انحرفوا وسَهَوْا عنها كما انحرفوا وسَهَوْا عن الصلاة فصَلُّوها مكاء وتصدية، وكما انحرفوا وسَهَوْا عن الحج والطواف فطافوا بالبيت وهم عراة، وها هم ينحرفون ويَسْهَوْن عن الزكاة ولا يؤتونها فيدُعُّون اليتيم ولا يحُضُّون على طعام المسكين ويمنعون الماعون، يقول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ {فصلت: 6-7}.

إنّ سورة "الماعون" تتحدث عن المشركين الذين يكذبون بيوم الدين، وتصف أخلاقهم وجبنهم ولؤمهم، فهم يدعُّون اليتيم المنكسر، ولا يحضّون على طعام المسكين الضعيف، ومع هذا كله فهم يُصَلُّون عند البيت صلاةً هم صنعوا أركانها وحركاتها وأصواتها، فاستحقوا الويل من الله تعالى.

وهؤلاء المصلُّون الذين تتحدث عنهم سورة "الماعون" ليسوا من المسلمين، ولا من أهل الإيمان الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويقيمون الصلاة كما أخذوها عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وليسوا هم الذين يُؤخِّرون الصلاة عن وقتها، أو الذين لم تنهَهُم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، فهؤلاء يمكن أنْ نسمِّيَهم بالعصاة، أو مرتكبي الصغائر والكبائر من أهل الإسلام الذين يخلطون عملاً صالحًا وآخر سيِّئًا.

وهم ليسوا المنافقين، فالمنافقون يُصَلُّون كما يصلّي المسلمون تمامًا، ويحضرون معهم الجماعات والجُمَع، ومصطلح النفاق لم يعرفه المسلمون إلا في المدينة بعد أنْ قويت شوكة المسلمين، أما سورة الماعون التي نزلت فيها هذه الآيات فهي سورة مكية، ومن أوائل السور التي نزلت في مكة، وتتحدث في كل آياتها عن المشركين الذين يكذبون بيوم يوم الدين.

إنّ هؤلاء المُصَلِّين الذين تتحدث عنهم سورة "الماعون" هم مشركون وكافرون يُكذّبون بيوم الدين، كانوا يصلّون عند البيت صلاةَ مكاءٍ وتصديةٍ، وكانوا يطوفون بالبيت عُراة، وكانوا لا يُؤتون الزكاة، ولا يُطعمون المسكين، فاستحقوا من الله التهديد بالويل والثبور: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ {الماعون: 4-5}.

لقد خلقنا الإنسان في كَبَد

يقول الله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴾ {البلد: 1-9}.

ما المُراد بقوله تعالى: (فِي كَبَدٍ)؟

هل الكَبَد هو المشقة، والتعب، والنَّصَب، والمعاناة؟

هل خلق الله تعالى الناس في شقاء؟

في معاجم وقواميس اللغة نجد أنّ معنى كلمة (الكّبَد) هو: الوَسَط والتوسُّط، والاستواء، والاستقامة، والاعتدال.

نقول: كَبِدَ الشيءُ، أيْ: عظُم وسَطُه وغلظ، وكبدت الشمسُ السماءَ، أيْ: صارت في وسطها، وأصاب الرجلُ كَبِدِ الحقيقة، أيْ: أصاب وسَطَها وصُلبها، ومكابدةُ المشكلات أيْ: تَوسُّطها ومواجهتها.

فالكَبَد وسَط كل شيء، ولذلك يُقال عن كَبِدِ الإنسان بأنه (كَبِد)، فهو يتكبَّد ويتوسط الإنسان.

وهذا يعني أنّ الله تعالى خلق الإنسان في وسَطيّة وتوسُّط واستواء واستقامة واعتدال، وقد أخبرنا الله تعالى بهذا الأمر في سورة البلد بعد أنْ

أقسم بالبلد الحرام وبوالد وما ولد، فقال: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾ {البلد: 1-4}.

وهو نفسه ما نجده في سورة التين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ {التين: 1-4}، حيث يُخبرنا الله تعالى أنّه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وقد جاء هذا الإخبار بعد أنْ أقسم الله تعالى في أوّل السورة بالتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين.

واللافت للانتباه في سورتي البلد والتين أنّ الإخبار من الله تعالى بخلق الإنسان جاء جوابًا للقَسَم، وهو ما يُشير إلى عظمة هذا الخَلق وتميّزه، والله تعالى يمُنّ علينا في السورتين بهذا الخَلْق الذي جاء في أحسن تقويم وأوسط صورة، ولو كان المُراد بكلمة (كَبَد) أنّها الشقاء، لما كان السِّياقُ سِياقَ تَفَضُّلٍ ومَنٍّ مِن الله تعالى على الإنسان، فالله تعالى لا يمُنَّ على الإنسان بأنّه مخلوق في شقاء، بل يَمُنُّ عليه بأنّه مخلوق في استواء واعتدال وأحسن صورة، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ {الانفطار: 6-8}.

وفي سورة البلد التي وردت فيها كلمة: (كَبَد) ما يُشير إلى أنّها لا تعني الشقاء، ولا الآلام والمعاناة، بل تُشير إلى أنّها تعني التوسُّط والاستواء، فقد جاء بعدها قول الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ {البلد: 5-9}، فالآيات السابقة كلّها تتحدث عن الإنسان السويّ المستقيم المكتمل المُنَعَّم الذي وهبه الله القدرة، والعينين، والشفتين، والهداية، وتطالبه بأنْ لا يتعالى على الله تعالى، ولا يضلّ الطريق، بل يلزمه أنْ يحمد الله كثيرًا.

والقرآن الكريم يُبيّن لنا أنّ الله تعالى لا يُشْقِي الناس، بل يُسعدهم ويكرمهم، وأنّ الناس هم مَنْ يُشْقُون أنفسهم بكفرهم ومعاصيهم، وتصرفاتهم الخاطئة، وعدم أخذهم بالأسباب، يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ {هود: 106-108}.

ففي قوله تعالى: (شَقُواْ) نجد أنّ الفعل مبنيٌّ للمعلوم، وأنّ الفاعل في الفعل هم الناس، وليس الله تعالى، ويدلّ على ذلك أنّ حرف الشين في (شَقُوا) جاء مفتوحًا، وحرف القاف جاء مضمومًا، أما في قوله تعالى: (سُعِدُواْ) فالفعل جاء مبنيًا لما لم يُسَمَّ فاعلُه، وأنّ الناس ليسوا هم الفاعل، وأنّ الذي أسعدهم هو الله تعالى، ويدلّ على ذلك أنّ حرف السين في (سُعِدوا) جاء مضمومًا، وحرف العين جاء مكسورًا.

لقد خلق الله تعالى الناس ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، ولم يخلقهم ليكونوا أشقياء، يقول الله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ {طه: 1-3}، وإنّ المُراد بقوله تعالى: (لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ) أيْ: إنّ الله تعالى قد خلق الناس في أحسن تقويم، وأجمل صورة، وأوسط تركيب، وهو ما يُوجِب عليهم شُكرَه وعبادتَه والتحدّثَ بنِعَمِه عليهم.

لو اطّلَعْت عليهم لَوَلّيت منهم فِرارًا

ما الذي يجعل الناظر إلى أصحاب الكهف وهم رقود يمتلئ بالرُّعب منهم فيُولّي منهم هاربًا لمجرد الاطلاع عليهم؟!

لقد هيّأ الله تعالى لهؤلاء الفتية مجموعةً من الحِمَايات التي من شأنها أنْ تمنع أحدًا من الظَّفْر بهم، أو القبض عليهم وإيذائهم، وهي على النحو التالي:

الحماية الأولى: (فأْووا إلى الكهف):

لقد أرشد الله تعالى الفتية المؤمنين إلى الكهف فقال: ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ {الكهف: 16}، فالكهف في منطقة غير مطروقة، وبعيدة عن المدينة، وغالبًا ما يكون مغارةً في الجبال، أو تحت صخرة كبيرة، فهم في حماية من أعدائهم، والله تعالى أشعرهم بأنّ هذا الكهف سيكون مأوى لهم يحتمون فيه: (فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ)، ففيه إيواء واحتماء.

الحماية الثانية: (وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد):

جعل الله تعالى لأصحاب الكهف حارسًا لهم وهو كلبهم: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ {الكهف: 18}، أيْ بباب الكهف، وكلّ مَن يحاول الاعتداء عليهم أو الاقتراب منهم، فإنّ كلبهم بباب الكهف

يحرسهم، وينبُّههم قبل أنْ يصل إليهم المعتدون، فضلًا عن بُعد الكهف أصلًا عن العيون.

وقوله تعالى: (وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ) يدل على أنّ الكلب كان في وضع الاستعداد والتحفُّز بشكل دائم، ولم يكن مستلقيًا أو نائمًا على أحد جنبيه، وهو ما يُشكِّل حماية للفتية وهم رقود في الكهف.

الحماية الثالثة: (لو اطّلعت عليهم لوَلّيت منهم فرارًا ولمُلئت منهم رعبًا)

وهو الرُّعب الذي يُصيب مَن يطّلع عليهم كما جاء في الآية: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ {الكهف: 18}، فكلّ مَن يطّلع عليهم وهم رقود، فلنْ يملك القدرة على الاعتداء عليهم أو إيذائهم، بل سَيُولّي منهم فارًّا وهو مملوءٌ بالرُّعب!

فما السِّرّ في ذلكُ؟

- هل كانت أظفارهم طويلة ومخيفة؟
- هل كانت أشعارهم ولحاهم طويلة ومخيفة؟

الآيات في سورة الكهف لم تحمل هذه الإشارات مطلقًا، بل تحمل ما يدل على أنّ أشعارهم وأظفارهم كانت عادية وطبيعية، والدليل على ذلك:

أوّلاً: يقول الله تعالى على لسان أصحاب الكهف: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ {الكهف: 19}، فهُم لم يشعروا بمُدّة رقودهم الطويل، بل ظنّوا أنّهاَ

مُدَّةٌ لم تتجاوز يومًا واحدًا، ولم يستغرب أحدهم من شكل أخيه، أو أشعاره وأظفاره، فالأمور كانت عندهم طبيعية.

ثانيًا: عندما نهض أصحاب الكهف من نومهم شعروا بالجوع، فانتدبوا أحدهم ليذهب بعملتهم المتداولة إلى المدينة في سِرِّيَّة وتلطّف، حتى لا يشعر بهم أحدٌ من جنود المَلِك وعيونه، ولو كانت أشعارهم وأظفارهم طويلة ومخيفة لما خاطروا بدخول المدينة التي هربوا منها، فهم يرَوْن أنفسهم كما كانوا بالأمس دون تغيّر أو اختلاف.

ولم يُسَجّل لنا القرآن الكريم أنّ أهل المدينة استغربوا من شكل أحدهم لمّا رأوه، بل إنّ الاستغراب كما تُوحي الآيات كان بسبب العُملة التي كانت معه، وقد مضى عليها أكثر من ثلاثمائة من السنين.

إذنْ.. ما الذي يُمكن أنْ يجعل الناظر إلى أصحاب الكهف وهم رقود، يشعر بالرُّعب والخوف فيُولّي منهم فرارًا؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ {الكهف: 18}، فهم نائمون نومًا حقيقيًا، لكنّ الناظر إليهم يظنُّهم أيقاظًا، وذلك من عيونهم المفتوحة، وهو ما تُشير إليه لفظة (أَيْقَاظًا)، وهذا أمرٌ صحيح بلا شكّ، لكنْ:

هل مجرد العيون المفتوحة للنائم تملأ من يطَّلع عليه بالرُّعب؟ وتجعله يُولّي هاربًا مِن هَوْل ما رأى؟!

والتَّصوُّر الذي يُمكن أنْ يكون مقبولاً ومقنعًا، وسببًا لما يحدث من الرُّعب لدى مَن يطَّلع على هؤلاء الفتية وهم نائمون، هو:

يقول الله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ {الكهف: 11}، فالضرب كان على الآذان فقط، بحيث ينامون مطمئنين فلا يسمعون شيئًا، ولم يضرب الله تعالى على أبصارهم، ولم يضرب على جفونهم، بل الضرب كان على الآذان، وفي هذا إشارة إلى بقاء عيونهم مفتوحة.

إنّ الفتية فعلًا كانوا نائمين، وكانت عيونهم مفتوحة، ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ {الكهف: 18}، ولكنها لم تكن مفتوحة بشكل عادي، وإلا فلو كانت مفتوحة طوال الوقت، لجَفَّت وعجزت عن الإبصار والرؤية، والأطباء يقولون: إذا ظلَّت العين مفتوحة ومُعَرَّضَة للضوء لفترة طويلة، فإنّ الإنسان يُصاب بالعَمَى.

وأغلب الظنّ أنّ عيون الفتية كانت مفتوحةً شاخصةً، ولكنّها مقلوبةٌ إلى الداخل، فلا يَظهَر فيها بؤبؤ العين، والذي يظهر من عيونهم هو بياض العين فقط، ولا شكّ أنّ هذا أمرٌ يُشعر بالرُّعب، ويُؤدّي إلى الفرار، خاصة أنهم كانوا جميعًا يفتحون عيونهم بنفس الطريقة، فالذي يطلع عليهم وهم رقود يظنهم أيقاظًا بسبب عيونهم المفتوحة، ومن ناحية أخرى فإنه يشعر بالرعب مما يرى من شكل عيونهم.

ويُضاف إلى عيونهم المقلوبة المخيفة، احتمالية أنْ تكون أفواهُهم مفتوحةً بشكلٍ لافتٍ في حال نومهم، وذلك لكي تدخل أكبر كميّات من الأكسجين لرئاتهم وأجسامهم، ما يجعل الذي يطّلع عليهم يشعر بالخوف ويمتلئ بالرعب.

وهذا كان حماية من الله تعالى لهم وهم نائمون في كهفهم، فكلّ مَن يحاول دخول الكهف عليهم سيظُنّ أنّهم أيقاظٌ، وسَيَرَى لهم عيونًا مخيفة، وأفواهًا واسعة مفتوحة، فيُولّي هاربًا وهو مملوء بالرُّعب.

ولا تقولوا لِمَن يُقتَل في سبيلِ الله أمواتٌ.. لماذا؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ {البقرة: 154}.

إنها آية تستوقف كل مُتدبّر للقرآن الكريم، فلا يستطيع أنْ يمُرَّ عليها دون أنْ يتفكر فيها وفي أسرارها العظيمة، فيفهم المُراد من النهي فيها، ويعي حقيقته وحكمته، ويعلم طبيعة الحياة التي تتحدث عنها الآية الكريمة، ويجد إجابات شافية للأسئلة التالية:

1. لماذا لا يجوز أنْ نقول لمَن يُقتل في سبيل الله أموات؟
2. ما طبيعة حياة الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؟
3. لماذا نقول عن الذين لم يُقتلوا في سبيل الله من المؤمنين أموات؟

ما هو الموت عند البشر؟

الموت عند البشر هو انفصال الروح عن الجسد، والحالة التي تكون فيها الروح خارج الجسد هي حالة الموت، وهذه الحالة تحدث للإنسان مرّتين كما في الآية: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ {البقرة: 28}.

فالموت يكون مرتين، والحياة تكون مرتين:

فأما الموت الأول:

فيكون للأرواح قبل أنْ تأتي بها الملائكة وتنفخها في أجساد الأجنّة وهي في بطون الأمهات عند تمام الشهر الرابع، أما قبل نفخها في الأجساد فتكون الأرواح في حالة موت، وهو ما جاء واضحًا في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أحدَكم يُجْمَع خَلْقُه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكًا فيُؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح ...).[1]

والموت الثاني:

ويكون عند خروج الأرواح من أجساد البشر في نهاية أعمارهم وآجالهم، حيث تنفصل الأرواح عن الأجساد فتكون في حالة موت.

وأما الحياتان اللتان يحياهما البشر فهما:

الحياة الأولى:

وهي هذه الحياة التي يحياها الناس والمعروفة بالحياة الدنيا، حيث تكون الأرواح في الأجساد، وتمتد هذه الحياة من لحظة نفخ الملائكة للروح في جسد الجنين وهو في رحم أمه، إلى أنْ يُخرجها مَلَك الموت من الجسد عند نهاية العمر.

---

[1] صحيح البخاري 3208

الحياة الثانية:

وتكون بعد أنْ يبعث الله الناس يوم القيامة، حيث يَرُدُّ أرواحهم إلى أجسادهم، وفي هذه الحياة يكون المؤمنون في الجنة، والكافرون في النار، يقول الله تعالى:﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ {غافر: 11}.

والمؤمن عندما يموت فإنّ روحه تخرج من جسده، فتحملها الملائكة إلى الجنة، والكافر عندما يموت فإنّ روحه تخرج من جسده، فتحملها الملائكة إلى النار، ففي الحديث الشريف عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيّتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان...، وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح (الأثواب الخشنة)، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيّتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب...).[1]

---

[1] صحيح الجامع /الألباني 1676

والمؤمنون في مصير أرواحهم قسمان:

أولاً: المؤمنون العاديُّون الذين يموتون بشكل طبيعي:

وهم الذين يموتون من مرض، أو هرم، أو سقوط، أو حادث طرق، أو هدم، أو غرق، أو حرق، أو لدغ، أو ما شابه ذلك مما لا ينطبق عليه القتل في سبيل الله تعالى.

وهؤلاء المؤمنون الذين يموتون موتًا طبيعيًا فإنّ أرواحهم التي أُخرِجت من أجسادهم تكون في حالة موت ما دامت منفصلة عن الأجساد، فلا تأكل، ولا تشرب، ولا تُرزق، لأنّ الرزق إنما يكون للأرواح في حال وجودها في الأجساد لا غير.

وهؤلاء فإنّ أرواحهم بعد خروجها من أجسادهم بواسطة مَلَك الموت فإنها تكون في الجنة على شكل طيور تَعْلَق في أشجار الجنة، وتظل منفصلة عن الأجساد التي أُخرِجت منها إلى يوم القيامة، حيث يُرجِعها الله تعالى إلى أجسادها التي أخرجت منها، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّما نَسَمَةُ المؤمن طائرٌ يَعْلَق في شجر الجنة، حتى يبعثَه الله إلى جسده يوم يبعثه).[1]

وفي رواية أخرى: (إنَّما نَسَمَة المؤمن طيرٌ يَعْلَق في شجر الجنة، حتى يُرجِعَه الله إلى جسده يومَ يبعثه).[2]

---

(1) صحيح الجامع 2373، صححه الألباني.

(2) الاستذكار 614/ 2، صححه ابن عبد البر.

والمُراد بقوله عليه السلام: (نَسَمَة المؤمن) أيْ: روح المؤمن.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (طيرٌ يَعْلَق في شجر الجنة) أيْ: يكون على شكل طائر يتعلّق في شجر الجنة.

فهي أرواح منفصلة عن الأجساد، مُعَلَّقة في أشجار الجنة على شكل طيور، إلى أنْ يُرجعها الله إلى أجسادها يوم البعث.

وهو ما يُبيّنه النبي صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى أيضًا حيث يقول: (إنّ أرواح المؤمنين في شكل طيور تَعْلَق بشجر الجنة).[1]

فأرواح المؤمنين في الجنة، وفي فسحة الجنة، ولكنها في حالة موت، أيْ أنها منفصلة عن أجسادها، ولذا لم ينْهَنا الله تعالى عن القول عن المؤمنين الذين أُخرِجت أرواحهم من أجسادهم أنهم أموات، بل إننا نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ {الزمر: 30}، فالمؤمنون الذين يموتون موتًا طبيعيًا من غير قتلٍ في سبيل الله هم أموات، لأنّ أرواحهم قد أخرجت من أجسادهم، ولم تدخل في أجساد جديدة، فتظلّ منفصلة عن الأجساد إلى يوم القيامة.

وهذا القِسم يدخل فيه أكثر المؤمنين، فإنّ معظم نهاية آجالهم يكون بالموت، لا بالقتل في سبيل الله.

---

(1) فتح الباري 3/287

ثانيًا: المؤمنون الشهداء (الذين قتلوا في سبيل الله):

وهم شهداء المعركة الذين قتلوا في سبيل الله في حربٍ وقتالٍ، أو غَزْوٍ، أو دَفْعٍ للعدو ومقاومةٍ له، فإنّ الله تعالى يكافئهم بأنّ لهم الجنة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ {التوبة: 11}.

وهؤلاء المؤمنون الشهداء ليسوا كالمؤمنين الذين يموتون موتًا طبيعيًا، ولذا فهم عندما تخرج أرواحهم وتنفصل عن أجسادهم فإنها تدخُل وتُنفخ في أجساد جديدة بمجرد دخولها الجنة، فتتحقق فيهم الحياة، ويُرزقون عند ربهم كما في قول الله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران: 169)، ولكننا لا نشعر بذلك ولا نراه: وهو ما عبرت عنه الآية: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ {البقرة: 154}.

وهذه الأجساد الجديدة التي تدخل فيها أرواح المؤمنين الشهداء هي أجساد من طيور خُضر، تتحرك في الجنة بسرعة وخفة بإمكانيات عالية لا يمكن تصورها، وتغدو إلى رياض الجنة الواسعة، وتأوي إلى قناديل معلَّقة بالعرش، وهذا ما لا يحظى به غيرهم من المؤمنين، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ

أرواح شهداء المسلمين في حواصل طير خضر تغدو إلى رياض الجنة، ثم يكون مأواها إلى قناديل معلقة بالعرش، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى: أتعلمون كرامةً أفضل من كرامةٍ أُكْرِمْتُمُوها؟ فيقولون: لا إله إلا أنت، إنا وَدَدْنَا أنك أعدتَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى في سبيلك).[1]

وفي الحديث تصريح من النبي صلى الله عليه وسلم أنّ أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله - وليس غيرهم - تكون في حواصل وأجواف طير خضر، تغدو، وتتحرك، وتطير، وتتنقل من روض إلى روض تأكل وتشرب وتتنعَّم، وتذهب وتؤوب، وتروح وتجيء في أنحاء الجنة، وأنّ هذه الطير الخُضر أجساد جديدة تدخل فيها أرواح شهداء المسلمين، وتظلّ في حواصلها وأجوافها إلى أنْ تقوم القيامة، فتُرَدّ كل الأرواح إلى أجسادها الأولى بعد أنْ يُنبتها الله تعالى من جديد.

وفي تفريق واضح بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ أرواح المؤمنين في شكل طيور تَعْلَق بشجر الجنة، وأرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت).[2]

---

(1) أورده ابن حجر العسقلاني في تسديد القوس 1/290، وأصله في مسلم

(2) فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني 3/287، صححه ابن باز

وفي الحديث تفريق واضح بين أرواح المؤمنين، وأرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، فأرواح المؤمنين تكون على شكل طيور مُعَلَّقة بشجر الجنة، ولكنها ليست في داخل أجساد غير أجسادها التي أخرجت منها في الدنيا، فهي أرواحٌ في حالة موت لانفصالها عن الأجساد، ولذا فإنّ الله تعالى لم يَنْهَنا عن تسمية المؤمنين الذين خرجت أرواحهم من أجسادهم بالأموات، لأنهم فعلاً أموات.

أما أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله فإنها تكون في أجواف طير خُضر تسرح وتتحرك في الجنة حيث شاءت، فتأكل وتشرب وتُرزَق، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ {آل عمران: 169-170}.

وهؤلاء الشهداء هم الذين نهانا الله تعالى عن تسميتهم بالأموات، لأنهم فعلاً ليسوا أمواتًا، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، وأرواحهم بعد موتهم في حالة حياة، لأنها قد دخلت واستقرّت في أجساد جديدة في الجنة، وهي الطير الخُضر.

وليالٍ عشر

ليس في القرآن الكريم أو في السُّنة الصحيحة دليلٌ صريحٌ يُبيّن المُراد بهذه الليالي العشر، والمُلاحَظ أنها جاءت نكرةً، وهو ما يُوحي بتعظيمها وتكريمها من غير تعيينٍ أو تحديد..

والمفسرون فيها على أقوال عديدة مختلفة، أذكر أشهرها، لمناقشتها واختيار القول الذي يتّفق مع الدليل:

أولاً: أنّها الليالي العشر الأواخر من رمضان، وهو قولُ الرازي والضحاك، وفيها ليلة القدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف فيها، ويقومُها، وكان إذا دخلت العشر الأخيرة من رمضان شدّ المئزر وأيقظ أهله.

وهذا القول لا دليل فيه يشير إلى أنها الليالي التي أقسم الله تعالى بها في أوّل سورة الفجر، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعتكف الليالي فقط، بل كان يعتكف الأيام العشر الأواخر من رمضان، فيصوم نهارها، ويقوم ليلها.

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ): التي أقسم الله تعالى بها جاءت نكرة، وغير مُعرَّفة، أما الليالي العشر الأخيرة من رمضان فتكون معروفة ومحددة لكل للناس.

ثانيًا: أنّها العشر الأوائل من شهر (المُحرّم)، وهو قول ابن جرير الطبري وقتادة، وفيها يوم عاشوراء الذي نجّى الله فيه موسى عليه السلام من فرعون، وهو قول مردود وغير مقبول، لأنّ العشر الأوائل من المحرّم أيامٌ نصوم بعضها كيوم عاشوراء، وليست ليالي.

ثالثًا: أنّها العشر الأوائل من ذي الحجة، وفيها يوم التروية، ويوم عَرَفة، ويوم النحر، وهو ما قاله مجاهد، والسّدي، والكلبي، وابن عباس، والبيضاوي ....، لكنّنا نلاحظ أنَّ العشر الأوائل من ذي الحجة هي أيامٌ نصوم بعضها كيوم عَرَفة، وليست ليالي، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بفضل هذه الأيام فقال: (ما من أيام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله من هذه الأيام يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله، قال ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء).[1]

وهو ما يجعل هذا القول ضعيفًا أيضًا، ولا يوجد فيه دليل صحيح يشير إلى أنّ الله تعالى أقسم بليالي عشر ذي الحجة.

رابعًا: أنّها العَشَرَة الكاملة التي يصومها الحاج، كما في قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ {البقرة: 102}، وهذا قولٌ مردودٌ أيضًا لأنّ الحديث هنا عن أيام يصومها الحاج، وليس عن ليالٍ.

(1) صحيح أبي داود/ الألباني 2438

خامسًا: أنّها الليالي العشر التي أتمّها الله لموسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ ﴾ {الأعراف: 142}، وهو قولُ مسروق، ومجاهد، وهنا جاءت (عشْر) نكرة، وجاء الكلام عن ليالٍ وليس عن أيام، كما في قوله تعالى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)، وهو قولٌ مقبولٌ يُوافق القرآن الكريم، وينسجم مع قواعد اللغة ولا يصطدم معها.

سادسًا: أنَّها الليالي حالكة الظلام والسواد، وتلك خمس من أوائل الشهر وخمس من أواخره، وهو قول القاسمي في محاسن التأويل، وهذا القول لا يمكن قبوله، لأنه لا يعتمد على قرينة أو دليل من القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة، أو اللغة.

سابعًا: قال البقلي في روح البيان: هي ليالٍ ستٌ خلق في أيامها السموات والأرض، وليلةٌ خلق فيها آدم عليه السلام، وليلة يومها يوم القيامة، وليلة كلم الله فيها موسى عليه السلام، وليلة أسري فيها بالنبي عليه السلام، وهو قولٌ لا يمكن قبوله، لأنه يأتي بأمور غيبية لا نجدها في كلام الله تعالى، أو في كلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثامنًا: يقول الدكتور محمد راتب النابلسي في تفسيره: "والليالي العشر هي الليالي الفارقة بين السَّنة القمرية والسَّنة الشمسية، فالقمر يدور حول الأرض دورة كل شهر، وينشأ من دورانه سنةٌ قمرية، والأرض تدور حول

الشمس، وينشأ من دورانها سنةٌ شمسية، وكلكم يعلم أنّ رمضان في كل عام يقترب عشرة أيام، فهذه الأشهر القمرية إذا وازنّاها مع الأشهر الشمسية فالفارق ليالٍ عشر...".

وهذا القول أيضًا نردّه فنقول: إنّ الفارق بين السنة القمرية والشمسية يزيد عن أحد عشر يومًا، وليس عشرة أيام، ثم إنّه لا تدل الآثار والنصوص الصحيحة على تعظيم هذه الليالي الفارقة، ولا يوجد في هذا القول دليل على أنّ هذه الليالي هي الليالي التي أقسم الله تعالى بها.

تاسعًا: يقول الشيخ محمد عبده في تفسيره: والمُراد والله أعلم من (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) ليالٍ يتشابه حالها مع حال الفجر، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطاردًا لظلام الليل إلى أنْ تغلبه الظلمة، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل، ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء إلى الليل، وضوء الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أنْ يغلبه فيسدل على الكون حجبه.

وهذا القول يصطدم مع كون الليالي التي أقسم الله تعالى بها جاءت نكرة، وهذا القول يحددها بأنها هي الليالي الأوائل من كل شهر، ولا يوجد فيه دليل على صحته.

عاشرًا: إنَّ المُراد بقوله تعالى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) ليالي العشر من ذي الحجة وهي نفسها التي أتمها الله لموسى عليه السلام، فيكون قد واعده الله ثلاثين ليلة في شهر ذي القعدة، وأتمها بعشر ذي الحجة، وهذا القول محتمل، لكنه لا يعدو أنْ يكون محاولة للجمع بين قولين من غير دليل.

القول الراجح:

وبعد هذا العرض لأهم أقوال المفسرين والعلماء، فإنني أذهب في تفسير قوله تعالى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) إلى ترجيح القول الخامس الذي فسّر قوله تعالى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) بأنّها تلك الليالي التي أتمَّها الله تعالى لموسى عليه السلام، خاصّة أنّها جاءت نكرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ {الأعراف: 142}، أيْ أتممناها بليال عشر، وفيها التمام الذي يقتضي القسَم والتعظيم، وهي ليالٍ بشكل صريح، ولا يتطرق إليها الاحتمال بأنها أيام، أو جزء من أيام.

إلى المسجد الأقصَى

يقول الله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ {الإسراء: 1}.

إنَّ الذي يشُدُّ الانتباه في هذه الآية الكريمة هو ارتباط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى ارتباطًا عضويًا لا انفكاك له، وهو ارتباط يشير إلى بداية الانطلاق نحو الغاية، فالمسجد الحرام في الآية هو المُنطلق، والمسجد الأقصى هو الغاية.

وكما أنَّ المسجد الحرام سُمِّي مسجدًا منذ البداية، فإنّ المسجد الأقصى سُمّي مسجدًا منذ البداية، فالبداية سجود وخضوع لله تعالى، والغاية الأقصى سجود وخضوع لله تعالى.

جاء في الحديث الصحيح عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: " قلت يا رسول الله، أيّ مسجد وضع في الأرض أوَّل أيْ للصلاة فيه؟ قال: المسجد الحرام، فقلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم حيثما أدركتَ الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد".[1]

---

[1] صحيح البخاري 3366

فهو مسجدٌ يمتدّ إلى عهد آدم عليه السلام، وإنّ أكثر ما يثير الاهتمام ويدعو إلى التأمّل هو اسم المسجد (الأقصى)!

- لماذا سمَّاه الله تعالى (المسجد الأقصى)؟

لا يشك أحدٌ في أنَّ المسجد الأقصى هو الأبعد والأقصى جغرافيًّا عن مكة من المسجد النبوي، وهو من المساجد الثلاثة التي تُشَدّ الرحالُ إليها، وإنّ من أقرب وأصحّ التفسيرات لتسمية المسجد الأقصى بهذا الاسم هو أنه الأقصى والأبعد جغرافيًا عن المسجد الحرام بمكة، ولكننا في هذا المقال أردنا أنْ نتدبر كلمة: (ٱلۡأَقۡصَا) ونستنبط منها بعض المدلولات والمعاني والأبعاد التي يمكن أنْ تُضاف إلى البُعد الجغرافي للمسجد الأقصى، على النحو التالي:

إنَّ المسجد (الأقصى) ليس محدودًا زمنيًا بوقت نزول السورة الكريمة، بل هو الأقصى في كلِّ الأوقات، وهو وإنْ كان الأقصى من الناحية الجغرافية، لكنه الأقصى أيضًا من الناحية العملية على أرض الواقع، وإلا فماذا يقول الذين لا يستطيعون الوصول إليه والصلاة فيه من أهل فلسطين وبيت المقدس وأكنافه؟ هل هو بعيد عنهم جغرافيا؟! أم أنّه بعيد عنهم من حيث حرية الوصول إليه، ومن حيث عدم سيادة أصحابه من المسلمين وأهل الديار عليه؟!

ولئنْ كانت الصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة، فإنَّ للمسجد الأقصى كرامةً خاصَّةً، حيثُ الرباطُ والجهاد وبذل الأرواح

والمُهَج والدماء والأموال دفاعًا عنه، وذودًا عن أبوابه، وفي هذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يُلفت الأنظار إلى هذه المعاني ليظلّ الأقصى في نظر المسلمين في كلّ الأزمان أكبر وأقصى من كلّ الغايات، فعن أبي ذر رضي الله قال: تَذَاكَرْنَا وَنَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ، وَلَنِعْمَ الْمُصَلَّى، وَلَيُوشِكَنَّ أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ شَطَنِ فَرَسِهِ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ يَرَى مِنْهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا – أَوْ قَالَ: خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا).[1]

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: (وليُوشِكَنَّ أنْ يكونَ للرجل مثلُ شَطَن فَرَسه من الأرض حيثُ يرى منه بيت المقدس خير من الدنيا جميعاً) أيْ أنَّ المسجد الأقصى سيكون من العسير على المسلمين أنْ يَصِلُوا إليه لِيُصَلُّوا فيه، بل إنَّ بعضهم ستكون أكبر أمنياتهم أنْ يرَوْه بأعينهم مجرد الرؤية، فهو في الأَسْر وتحت الاحتلال، ولا يستطيع أنْ يَصِل إليه المسلمون حتى من أبناء الأرض المقدسة (فلسطين)، وأحيانًا حتى من أبناء المدينة المقدسة ذاتها.

وفي هذا الحديث حثٌّ على حبِّ الأقصى والسعي إليه، والمزاحمة من أجله ومن أجل الوصول إليه، والرباط فيه والدفاع عنه، ومن استطاع

(1) المستدرك على الصحيحين 554/4

أنْ يمتلك مساحة صغيرة مثل زمام الفرس، أيْ (مترًا مربعًا) أو زدْ عليه قليلًا، بحيث يرى منه بيت المقدس، – وإنْ لم يستطع الوصول إليه – فهو خيرٌ له من الدنيا بحذافيرها.

وفي كل هذا من الأجور والثواب ما يجعل الأقصى غاية الغايات، ومنتهى الأهداف لكلِّ المسلمين، فَحَوْلَه وفي أكنافه ستكون دولتهم وقوتهم وعزتهم، وهو منتهى الأجر والتجارة مع الله تعالى إنْ كُتب لأحدٍ أنْ يُستشهَد على أبوابه، وهو أقصى القداسة والطهارة، وأقصى البَرَكَة ومركزُها، وهو الأقصى زمانًا، حيثُ تَنزِل الخلافة ببيت المقدس، ويَنزِل عيسى بن مريم عليه السلام إلى الأرض المقدسة، فيقيم العدل، ويحكم بالقسط بإذن الله تعالى.

ليس عبثًا بعد هذا كلِّه أنْ يكون الأقصى هو نهايةَ رحلة الإسراء، وبداية الرحلة إلى السموات العُلا، فالمسجد الأقصى هو أقصى الرحلة ومبتغاها، وهو أقصى الجهاد، وأقصى وأفضل الرباط، وأقصى الظهور على الحق، ثمَّ هو الأقصى حيث سيكون الحشر والنشر لكلِّ البشر.

وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ {الإسراء: 4}.

ما المُراد بقوله تعالى: (وَقَضَيْنَآ) و (فِى ٱلْكِتَٰبِ)؟

يقول الرازي في التفسير الكبير: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ {الإسراء: 4}، أيْ أعلمْناهم وأخبرناهم بذلك، وأوحينا لهم.

ويقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "وتَعْدِيَة (قضينا) بحرف إلى، لتضمين (قضينا) معنى (بلَّغنا)، أيْ: قضينا وانتهينا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ {الحجر: 66}.

فالله تعالى بعلمه القديم يعلم أنَّ بني إسرائيل سيُفسدون في الأرض مرتين، وهو يحذرهم ويوحي إليهم في التوراة أنَّ هذا سيكون.

ومعلوم أنَّ عِلم الله بمعصية العصاة لا يعني رضاه عن معاصيهم، بل إنهم يتحمّلون عواقب هذه المعاصي، وسيحاسبهم الله عليها في الدنيا، أو في الآخرة.

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن: "وهذا القضاء إخبارٌ من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم، لا أنه قضاءٌ قهريٌّ عليهم، تنشأ عنه أفعالهم، فالله سبحانه لا يقضي

بالإفساد على أحد: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ {الأعراف: 28}.

والمُراد بقوله تعالى: (فِي ٱلْكِتَٰبِ): هو التوراة، وهو الكتاب الذي أُنزل على نبيّ الله موسى عليه السلام، وهو نفس الكتاب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ {الإسراء: 2}.

يقول الأستاذ سيِّد قطب: "ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين".

ولا يستقيم أنْ نقول: إنَّ الكتاب هنا هو القرآن الكريم، فالقرآن الكريم لم يكن نازلًا في زمن موسى عليه السلام، ولم يكن بين أيدي بني إسرائيل، والذي كان بين أيديهم يقرؤون فيه وَحْيَ الله إليهم هو التوراة لا غير.

ولا يَصْلُحُ أيضًا أنْ نقول: إنَّ الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، أو الكتاب المكنون، لأنّ المُراد أنْ يعلم بنو إسرائيل في كتابٍ بين أيديهم بهذا القضاء، فيكونوا مسؤولين أمام الله تعالى عن أيِّ إفساد يقع منهم في الأرض المباركة.

وقد أخبرنا الله تعالى بهذين الإفسادين لبني إسرائيل في القرآن الكريم، لأنهما يخُصَّانِ المسلمين، وخاصّة الإفساد الثاني منهما، ليكونوا على علم وانتباه واستعداد، لمواجهة هذا الخطر الكبير الذي يستهدف أرضهم المباركة ومقدساتهم وأقصاهم.

فإذا جاء وعدُ أُولاهُما

اجتهد المفسرون قديمًا وحديثًا في تحديد كلٍّ من الإفساد الأوَّل، والإفساد الثاني لبني إسرائيل، لكنهم متفقون تقريبًا على تحديد الإفساد الأول، حيث إنَّ هذا الإفساد قد زال وانتهى على يد (نبوخذ نصًر) ملكِ بابل في 586 ق.م الذي قتل وسبى الآلاف من بني إسرائيل، وجاس خلال الأرض المقدسة (بيت المقدس)، وخرَّب كلّ شيء أو حرّقه.

يقول الرازي: (إنَّ بني إسرائيل تعظَّموا وتكبَّروا واستحلُّوا المحارم، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وذلك أوّلُ الإفسادين، فسلّط الله عليهم (بُخْتنصَّر)، فقتل منهم أربعين ألفًا ممن يقرأ التوراة، وذهب بالبقية إلى أرض نفسه، أيْ بابل) [1].

ويقول القرطبي: (هم أهل بابل، وكان عليهم بُختنصّر في المرة الأولى، قاله: ابن عباس) [2].

ويقول الطاهر بن عاشور: (الأشوريّون أهل بابل وهم جنود بختنصّر)[3]، وكذلك قال جمعٌ غفير من المفسرين منهم: (مقاتل في تفسيره، والنسفي في تفسيره، والسَّعْدي في تفسير كلام المنان، وابن كثير

---

[1] الرازي، فخر الدين، (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب) المجلد العاشر، ص354، دار الحديث، القاهرة.

[2] القرطبي، أبو عبد الله محمد، (الجامع لأحكام القرآن) المجلد الخامس، ص555، دار الحديث، القاهرة، 2002م.

[3] ابن عاشور، الطاهر محمد، (تفسير التحرير والتنوير) المجلد السابع، ص31، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

في تفسير القرآن الكريم، والزمخشري في الكشاف، وأبو الفرج ابن الجوزي في زاد المسير، والزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، والدكتور محمد سليمان الأشقر في زبدة التفاسير، والشيخ محمد أبو زهرة في زهرة التفاسير، وأبو البركات التلُّوي في أبدع البيان لجميع آي القرآن، والمرغني في تاج التفاسير، والبغوي في معالم التنزيل، ود. وهبة الزحيلي في التفسير المنير، ... وغيرهم كثير).

ومن علماء أهل الأرض المباركة المعاصرين الذين تناولوا تفسير هذه الآيات من سورة الإسراء بشكلٍ منطقيٍّ وعلميٍّ مُقنعٍ كلٌّ من الدكتور يونس الأسطل، والأستاذ بسَّام جرَّار حفظهما الله.

يقول الدكتور يونس الأسطل: (إنَّ المُرجَّح أنَّ تحطيم الفساد الأوّل قد مضى، حيثُ سَلَّط الله عليهم كفرة المجوس من البابليين والأشوريين، وجاس بهم (نبوخذ نصَّر) خلال ديار اليهود، وتركها خاوية على عروشها مائة عام، كما في قصة العُزَير أو غيره، حين مرَّ على بيت المقدس وهي خاوية على عروشها، وتساءل: أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، فوجد العمران قد أُعيد من جديد، فقال: أعلم أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير) [1].

ويقول الأستاذ بسَّام جرَّار: (وهكذا نشأت مملكة (إسرائيل) في الشمال، ومملكة (يهوذا) في الجنوب وعاصمتها القدس، وكان الفساد،

---

[1] الأسطل، يونس، (فلسطين من منظور إسلامي)، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر: فلسطين.. لن يطول ليل الغاصبين، في ذكرى النكبة الحادية والستين، 2009/05/21م، 25 جمادي الأولى 1430هـ.

فكان الجوس من قِبَل الأعداء الذين اجتاحوا المملكتين في موجات بدأها المصريون، وتولّى كُبْراها الأشوريون والكِلدانيون القادمون من جهة الفرات، ففي سنة 722 ق.م هاجم الأشوريون مملكة (إسرائيل) في الشمال ودمروها، وفي سنة 586 ق.م زحف الجيش البابلي على مملكة يهوذا في الجنوب، وقَضَوْا عليها...) [1].

ويُمكنني تلخيص ما جاء في كتب التفســير القديمة والحديثة عن الإفســاد الأول لبني إسرائيل كما يلي:

من المعروف أنّ الله تعالى لم يأذن لموسى عليه السلام دخول الأرض المقدسة (بيت المقدس) حين خذله بنو إسرائيل، ولم يعُدْ يمْلِك إلا نفسه، وأخاه هارون، وأنّ يوشع بن نون عليه السلام هو الذي دخل المدينة المقدسة بعد التيه، ومعه الأسباط من بني إسرائيل.

وظلَّ الأمر مستقِرًا لبني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين) إلى أنْ تُوفي سليمانُ عليه السلام سنة 935 ق.م، وتولَّى ابنُه المُلك بعده، وسرعان ما تمرَّد عليه شعبُه، وخلعوا طاعته.

وانقسمت دولته بعده إلى دولتين:

أ. دولة في الشمال: وتُسمَّى (إسرائيل) وعاصمتها (سَبَسْطِيَة) وكانت تضُمُّ عشرة أسباط.

ب.دولة في الجنوب: وعُرفَت بـ (يهوذا)، وعاصمتها (بيت المقدس)، وتضمُّ سِبْطَين، هما سِبط يهوذا، وسِبط بنيامين.

---

[1] جرار، بسام، (زوال إسرائيل 2022م... نبوءة أم صدف رقيمة)، ص9، ط3، 2002م.

وكان أوَّلُ مَلكٍ على مملكة (إسرائيل) في الشمال رجلًا يُقال له (يرْبَعام)، خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان في مملكة (يهوذا) في الجنوب، إذا صعدوا إلى بيت المقدس في الأعياد، ليعبدوا الله، ويُقرّبوا ذبائحهم هناك، فأقام في مملكته عجلين من ذهب، وأمر بعبادتهما، ورتَّب لهم أعيادًا احتفاليةً وكَهَنَة.

وقامت حروب كثيرة بين ملوك هاتين المملكتين لبني إسرائيل، وكان يَتَخَلَّلُهما من الملوك مَنْ ينزع عبادة الأوثان، إلا أنّه لا يلبث الحال حتى يأتي مَلِكٌ جديد، فيُعيد الوثنية.

واستمرَّتْ مملكة (إسرائيل) في الشمال نحْوًا من مائتين وخمسين سنة، وفي نهاية أمرهم عظُمَت خطيئاتُهم، فسلَّط الله عليهم مَلك أشور، ففتح السامرة – دولة الشمال – وسباهم إلى بابل، وانقرضت مملكة الأسباط العشرة، ولم يُسمَع ذِكرُهم بعد.

وأما مملكة (يهوذا) فبقيت بعد انقراض مملكة (إسرائيل) ما يزيد على عشرين عامًا، وفي أواخر أيامها قام فيها مَلك شرير، فزحف إليه مَلك بابل (نبوخذ نصَّر)، فسَبَى قسمًا من شعبه، وكان هذا هو السَّبْيَ الأوّل.

ثم جاء بعد ذلك المَلك الشرير ابنُه، فسار على طريقه أبيه، فعاد إليه مَلِكُ بابل (نبوخذ نصَّر) وأَسَرَه هو وآلَه وجنودَه، وقسمًا من الشعب، وكان هذا هو السّبْيَ الثاني بعد ثماني سنين من السّبْي الأوّل، ثم قام فيهم ملِكٌ أكثر شَرًّا وسُوءًا ممَّن تقدَّم، وهو آخر ملوكهم، واسمه (صِدْقِيَا).

وفي آخر أيامه حاصر (نبوخذ نصَّر) بيت المقدس، ودخل على (صِدْقِيَا) وقلع عينيه، وقيَّده، وأَسَرَه إلى بابل، وأحرق المدينة، وسَبَى كلَّ شعب مملكة (يهوذا) ما عدا مساكين الأرض، وهذا هو السّبْيُ الثالث والأخير، وكان في سنة 586 ق.م، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ {الإسراء: 5}.

بعثنا عليكم عبادًا لنا أُولي بَأس شديد

اختلف العلماء والمفسرون في المُراد بقوله تعالى: ﴿ بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ {الإسراء: 5}، وفي تحديد هؤلاء العباد، على أقوال متباينة، وتأويلات مختلفة، لكنَّ بعض هذه الأقوال والتأويلات مرفوضة غريبة، لمخالفتها للحقائق التاريخية، ولمنطوق الآية الكريمة ومفهومها، ومنها هذان التأويلان:

التأويل الأوَّل:

حاول بعض المفسرين الكرام ممَّن يرَوْن أنَّ الإفساد الأوَّل لبني إسرائيل كان في المدينة المنورة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يُثبتوا أنَّ المُراد بقوله تعالي: (عِبَادًا لَّنَآ) هم المؤمنون المتّصفون بصفات التقوى والصلاح.

وهذا يتعارض مع الحقائق التاريخية الثابتة من أوْجُه ثلاثة:

1. لم يكن لبني إسرائيل دولةٌ أو مُلْكٌ في المدينة على مرِّ التاريخ، لا قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا في حياته، ولا بعده.

2. إنَّ المدينة المنورة لم تكن ساحةً للإفساد الإسرائيلي وعلوّهم الكبير في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانوا خاضعين للدولة الإسلامية، وكان بينهم وبين المسلمين عهدٌ معروف، وميثاقٌ مكتوب.

3. من المعلوم بداهةً أنَّ إفساد بني إسرائيل في المرّتين مكانُهُ الأرض المباركة (فلسطين)، وأنَّ خصوصية المسجد الأقصى لا بدَّ أنْ تكون حاضرةً في المرّتين لقوله تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ {الإسراء: 7}، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يدخل على اليهود في المسجد الأقصى لا في إفسادهم الأوّل ولا في إفسادهم الثاني.

وهو ما يجعلني أذهب إلى عدم قبول هذا التوجيه للآيات الكريمة، لمخالفته الحقائق على الأرض، ولمخالفته الحقائق التاريخية المعروفة، ولمخالفته لمنطوق ومفهوم الآية: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ {الإسراء: 7}.

التأويل الثاني:

ومن المفسرين مَن جعل الإفساد الأوّل لبني إسرائيل قد وقع في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنّه هو الذي أزال إفسادهم وقضى عليه، وهذا غير صحيح أيضًا من أوْجُهٍ أربعة، كما يلي:

1. لم يكن لبني إسرائيل أيُّ شكلٍ من أشكال الفساد أو العلُوِّ في فلسطين في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن بنو إسرائيل هم الذين يسيطرون على بيت المقدس، ولا على فلسطين، بل كانوا لا

يزالون في الشتات من بعد سَبْيِهم وزوال إفسادهم الأوّل على يد نبوخذ نصَّر.

2. عندما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس كان الذين يحكمون هناك هم النصارى وليس اليهود، وقد تسلّم عمر بن الخطاب مفاتيح بيت المقدس بنفسه من حاكمها النّصراني (صفرونيوس).

3. إنَّ العُهدة العمرية التي كتبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أُعطيت للنصارى، وليس لليهود.

4. إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل بيت المقدس سِلْمًا، وليس حربًا، ولم يحدث منه جَوْسٌ خلال الديار، كما في الآية: ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ {الإسراء: 5}، فلا وجْهَ للقول بأنَّ الإفساد الأوَّل كان في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(عِبَادًا لَّنَآ):

كلُّ المفسرين الذين قالوا بأنَّ زوال الإفساد الأوّل لبني إسرائيل كان على يد ملك بابل وجنوده لم يفهموا من قوله تعالى: (عِبَادًا لَّنَآ) أنّهم أهل إيمان وإسلام وصلاح، بل على العكس، فقد فهموا أنّهم كفارٌ وثنيُّون.

يقول السّعدي في تفسيره: (واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المُسَلّطين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار).[1]

ويقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: (والمقصود بعباد الله هنا الأشوريون)، ومعلوم أنَّ الأشوريين كانوا من أهل الشرك.[2]

وقوله تعالى: (لَّنَآ): هو عبارة عن الضمير (نا) المتصل بحرف الجر(اللام)، وهو تركيب لا يفيد التزكية والامتداح والتقريب، بل يفيد المِلكية، فقوله تعالى: (عِبَادًا لَّنَآ) أيْ: إنّهم مملوكون لنا، ويتصرَّفون وفق مشيئتنا، ومن صفاتهم كونُهم ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ {الإسراء: 5}، أمّا التزكية والامتداح والتقريب، فنجده في الضمائر المتصلة بالأسماء في بعض الأحيان مثل: (بِعَبۡدِهِۦ) في قوله تعالى مقرِّبًا نبيّه محمدًا صلّى الله عليه وسلّم: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ {الإسراء: 1}.، ومثل: (عَبۡدَنَا) في قوله تعالى عن النبي داود عليه السلام ممتدحًا وشاكرًا: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ {ص: 17}، وكما في قوله تعالى عن عباده المتوكِّلين على الله تعالى

---

[1] تفسير السعدي، ص453، دار ابن الجوزي، القاهرة

[2] تفسير التحرير والتنوير، المجلد الخامس، ص 28، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس

فلا يجعلون للشيطان سلطانًا عليهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ {الحجر: 42}.

وإنَّ قوله تعالى: (عِبَادًا لَّنَآ) لا يعني أنَّهم مؤمنون بالضرورة، للأسباب التالية:

أولاً: وردت كلمة (عباد) في سياقات عديدة في القرآن الكريم، ومنها ما يدلُّ على فسق هؤلاء العباد أو كفرهم، كما في الآيات التالية:

أ- ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ {الفرقان: 17}، وواضح أنهم ضالُّون، ولا يقول أحدٌ بأنّهم مؤمنون أو مهتدون.

ب- ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ {الزمر: 53}، فهم مُسرفون على أنفسهم بالمعاصي.

ت- ﴿ نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ {الشورى: 52}، فهناك عبادٌ لم تحدثْ لهم الهداية، فهم ليسوا مؤمنين، ولفظ العباد في الآية يشمل غير المهتدين.

ث- ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ {الحجر: 42}، فالذين سيتَّبعون الشيطان هم عبادٌ أيضًا، ولا يقول أحدٌ

بصلاحهم أو تقواهم، وذلك باعتبار الاستثناء متَّصلًا غير منقطع، أيْ أنّ ما بعد (إلّا) من جنس ما قبلها.

ثانيًا: جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه النوّاس بن سمعان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم: (... إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ...)،[1] أيْ أنَّ الله تعالى قد أخرج يأجوج ومأجوج الذين لا يَقْوَى أحدٌ من البشر على قتالهم ومواجهتهم، لكثرتهم وقوّتهم، ومعلومٌ لكلِّ المسلمين أنَّ يأجوج ومأجوج ليسوا مسلمين أو مؤمنين، لكنّهم عبادٌ لله كما في الحديث.

ثالثًا: جاءت صفة البأس الشديد في غير سورة الإسراء لغير المؤمنين، كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ {النمل: 33}، فلا تقتصر صفة البأس الشديد على المؤمنين، فقد اتَّصف بهذه الصفة جنود ملكة سبإ الكافرون الذي كانوا يسجدون للشمس كما في الآية السابقة، وهو ما نجده أيضًا في قول الله تعالى في حق جنود نبوخذ نصر الوثنيين: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ {الإسراء: 5}.

---

[1] صحيح مسلم2937

رابعًا: ذكر ابن عبد ربِّه في العقد الفريد، أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد: (واعلموا أنّ عليكم في مسيركم حفظةً من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحْيُوا منه، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إنّ عدوّنا شرٌ منّا فلنْ يُسلّط علينا وإنْ أسأنا، فرُبَّ قومٍ سُلّطَ عليهم شرٌّ منهم، كما سُلّط على بني إسرائيل لمّا عملوا بمساخط الله كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً).[1]

إنَّ استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالآية من سورة الإسراء يشير إلى أمرين:

أ. يعلم عمر رضي الله عنه أنَّ الله تعالى قد سمَّى المبعوثين على بني إسرائيل لإزالة إفسادهم عبادًا له، كما في قوله عزّ وجلّ: (عِبَادًا لَّنَآ)، ولكنّه في الوقت نفسه يقول عنهم: (كفرة المجوس).

ب. يعلم عمر رضي الله عنه أنَّ الإفساد الأوّل لبني إسرائيل كان قبل الإسلام، ولذا فهو يستشهد بما حدث لبني إسرائيل لما أتَوا مساخطَ الله.

وممَّا سبق يتضح لنا أنَّ المقصودين بقوله تعالى: (عِبَادًا لَّنَآ) لم يكونوا مؤمنين، بل كانوا أهلَ وثنية وكفرٍ وشرك، وهذا يؤكد القول بأنَّ الإفساد الأوّل لبني إسرائيل في فلسطين قد حدث قبل الإسلام، ولم يكن

---

[1] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، المجلد الأول، ص117، دار الكتب العلمية، بيروت

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو في عهد عمر الخطاب رضي الله عنه، أو بعد ذلك.

إنَّ قوله تعالى: (عِبَادًا لَّنَآ)، يدلُّ على أنّهم خاضعون لإرادة الله تعالى فيهم، ليكونوا آلةَ تأديبٍ وتهذيب لمَنْ يخرجون عن الهداية، ويقعون في الفساد والإفساد، ولذا كانوا من أهل البأس الشديد، والقوة، والشجاعة، والجُرأة، وهو ما يُسْتَأْنَس به في ترجيح القول بأنَّ هؤلاء العباد هم البابليون والأشوريون، وأنّ العامل المشترك بينهم وبين العباد الذين يسُوءون وجوه بني إسرائيل في وعد الآخرة هو أنّهم عبادٌ أولو بأس شديد، ولا يَمنع أنْ يكونوا في الوقت نفسه عبادًا مؤمنين، وهو ما نراه بأعيننا، ونشهده بأنفسنا في الأرض المباركة.

ثُمَّ رَدَدْنَا لكُم الكَرَّة عليهم

انتهى الإفساد الأوَّل لبني إسرائيل في الأرض المباركة فلسطين، وزال على يد البابليين بقيادة المَلك (نبوخذ نصَّر) الذي قتل وسَبَى الآلاف من بني إسرائيل، وحرَّق وخرَّب وجاس خلال ديار اليهود، فسقطت دولتهم سنة 586 ق.م.

وتمضي القرون بعد القرون من الشتات وسَوْم العذاب، حيث تفرَّقوا في الأرض أُمَمًا وفِرقًا بلُغاتٍ وثقافات مختلفة، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ {الأعراف: 168}، إلى أنْ جاء وعد إفسادهم الثاني والأخير في الأرض المباركة فلسطين، فرَدَّ الله لهم الكرَّة على مَنْ أزال إفسادهم الأوَّل، وأمدّهم بالأموال والبنين، وجعلهم أكثر نفيرًا.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾:

والخطاب في الآيه من الله تعالى مُوَجَّهٌ لبني إسرائيل يُخبرهم فيه أنهّ قد ردَّ لهم الكَرَّة في وعد الآخرة على ذرية البابليين، (أيْ على هؤلاء الذي جاسوا خلال الديار، لا على أشخاصهم وإنَّما على ذريّتهم)[1].

---

(1) عباس، فضل، (المنهاج، نفحات من الإسراء والمعراج)، ص122، مؤسسة الرسالة، 1987م.

ويمكننا الوقوف عند عدة إشارات في هذه الآية الكريمة، منها:

الإشارة الأولى: الحرف ﴿ ثُمَّ ﴾: حرف عطف يفيد التراخي، وهو هنا يدل على التراخي في الزمن، أيْ أنَّ ردَّ الكرَّة لبني إسرائيل سيكون بعد فترة متراخية، لا يعلم وقتها ومدَّتَها إلا الله تعالى.

الإشارة الثانية: قوله تعالى: ﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ ﴾ أيْ سيكون الأمر لصالحكم، وسيرُدُّ الله لكم ما كنتم عليه من القوة والسيطرة على الأرض المباركة فلسطين.

الإشارة الثالثة: ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾: فيها تكرار ورجوع إلى نفس المكان، أي الرجوع إلى الأرض المباركة فلسطين، (والكرَّة يُعبَّر بها عن الدولة كما يقول علماء اللغة، والتاريخ يشهد أنَّه لم تكن لليهود دولة في تاريخ المسلمين، والواقع يقول: إنَّ هذه الدولة إنما كانت في أيامنا هذه) [1].

الإشارة الرابعة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾: فيها عُلُوٌّ وغَلَبة وانتصار، والضمير في (عليهم) يعود على من أزال إفساد بني إسرائيل الأوَّل، وهم البابليون.

فمَنْ هم البابليُّون؟

البابليُّون هم الكِلدانيون الذين ورثوا دولة أشور في العراق، وهم قبائل عربية جاءت من الجزيرة العربية، وسيطرت على منطقة العراق، فهم عرب من أصول عربية، وهم أجداد أهل العراق والشام الحاليين.

---

[1] عباس، فضل، (المنهاج، نفحات من الإسراء والمعراج)، ص122، مؤسسة الرسالة، 1987م

يقول د. مروان عقراوي: (تاريخيًا: الأشوريون والكِلدانيون كانوا دولتين أو نظامين سياسيين لبلد واحد، ولغة واحدة، وحضارة واحدة، في حقبتين متتابعتين زمنيًا، وللتوضيح: إنَّ مَن يقول بأنّ قوميته أشورية أو كِلدانية كمَن يقول: إنّ قوميته أموية أو عباسية، حيث كما هو ثابت أنَّ الدولة الأموية والدولة العباسية كانتا دولتين عربيتين في فترة الحضارة العربية الإسلامية، فليس للأموية أو العباسية لغة خاصة أو حضارة خاصة) [1].

ويقول أيضًا: (إنَّ سكان شمال العراق في الفترة الأشورية وما سبقها ينحدرون من هجرات العرب العَمُوريين الذين هاجروا من عرب الجزيرة العربية شمالاً باتجاه العراق والشام، أما الكِلدانيون فينطبق عليهم ما ينطبق على الأشوريين، فهم ينحدرون من هجرات من الجزيرة العربية التي استقرَّت في وسط العراق وجنوبه، وهجرتهم تزامنت مع هجرة الآراميين، أو أنَّهم من الآراميين، وقد استطاع زعيم عائلة (كالدو) أنْ يسيطر على النظام السياسي، وهو ما نُطلِق عليه في زماننا الدولة البابلية الجديدة).

(وينحدر من بيت (كالدو) المَلك البابلي الشهير (نبوخذ نصَّر)، و(كِلدان): جمعٌ لكلمة (كالدو) أو (كلدي)، وهو اسم عائلة (نبوخذ نصَّر)، فالكِلدان هم أقوام خرجت من شبه الجزيرة العربية، وقد اندفعوا

[1] عقراوي، مروان، مقال بعنوان: من هم الأشوريون والكلدان؟ وهل هم قوميات، شبكة النصرة منبر العراق الحر، 2014/12/27م.

من هذه المنطقة، ودخلوا العراق خلال الألف الأوَّل قبل الميلاد، متخذين طريق ساحل البحر العربي، ثم الخليج العربي الذي أصبح مقترنًا باسمهم فسُمّي بالبحر الكلدي)[1]

(ويرى الدكتور أحمد سوسة أنَّ موطن الكِلدان الأصلي هو شواطئ الخليج العربي جنوب العراق، وينقل الباحث جواد علي عن (سترابو) أنّ مدينة (الجَرْها) التي تقع في القطيف في ساحل الخليج العربي في السعودية هي موطن الكِلدان الأصلي) [2].

يقول الأستاذ بسَّام جرَّار: (وأُحِبُّ أنْ يعلم القارئ أنَّ الأشوريين والكِلدانيين هم قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية إلى منطقة الفُرات، ثم انساحت في البلاد، حتى سيطروا على ما يُسمَّى اليوم العراق وسوريا الطبيعية، وقد أسلم معظم هؤلاء، وأصبحوا من العرب المسلمين)[3]

وأخلُص ممّا سبق إلى نتيجتين:

أولاً: إنَّ الله تعالى قد ردَّ الكرَّة لبني إسرائيل في إفسادهم الثاني والأخير: (وعد الآخرة) على مَن أزال مُلكَهم وإفسادهم الأوَّل، فعادوا إلى نفس المكان الذي قُتلوا فيه، وسُبُوا منه.

---

(1) عقراوي، مروان، مقال بعنوان: من هم الأشوريون والكلدان؟ وهل هم قوميات، شبكة النصرة منبر العراق الحر، 2014/12/27م.

(2) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، من هم البابليون والأشوريون والكلدانيون؟

(3) جرار، بسام، (زوال إسرائيل 2022، نبوءة أم صدف رقمية)، ص14، ط 3، 2002م.

ثانياً: إنَّ المُراد بقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ هم العرب، والذين يُعرَفون اليوم بأسماء بلادهم ودولهم: (الفلسطينيون، والأردنيون، والسوريون، واللبنانيون، والعراقيون، والمصريون، والخليجيون، والمغاربيون ...)، وقد كانوا في مراحل من التاريخ يُعرف بعضهم بالبابليين، أو الأشوريين، أو الكلدانيين، أو الآراميين.

وممّا يُقوِّي هذا القول، الحقائق الثلاث التالية:

1. إنَّنا لا نجد في التاريخ أنَّ الله تعالى قد ردَّ الكرَّة لبني إسرائيل في الأرض المباركة فلسطين على أحدٍ غير العرب، وقد رأينا هذه الكرَّة بأنفسنا في سنة 1948م، حيثُ أعلن اليهود دولتهم في فلسطين من جديد، وهي المَرَّة (الثانية)، أو(الإفساد الثاني والأخير) لهم في فلسطين، بل إنَّنا قد رأينا مظاهر هذه الكرَّة لبني إسرائيل بوضوح على العرب تحديدًا عندما شارك في حرب فلسطين 1948م سبعة جيوش عربية، لكنهم انهزموا أمام كرَّة هؤلاء المُفسدين اليهود، وهاجر مئات آلاف العرب من أهل الأرض المباركة فلسطين إلى مناطقَ مختلفةٍ من العالم العربي وغيره.

2. منذ نزول سورة الإسراء على قلب محمد (ﷺ)، فإنّنا لم نَرَ أنَّ الكَرَّة قد رُدَّت لبني إسرائيل على العرب في فلسطين إلا في سنة 1948م.

3. إنْ لمْ يكن الضمير في قوله تعالى: ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يعود على العرب، فعلى مَن يعود؟ وماذا نسمّي هذا الإفساد الذي نراه الآن لليهود في فلسطين؟!

4. وإنْ لم تكن حروب اليهود على العرب هي الكرَّةَ المردودةَ لهم عليهم، فماذا يمكن أنْ تكون؟!

5. وإنْ لم تكن هذه هي المرَّةَ الثانيةَ للإفساد اليهودي في فلسطين بعد سيطرتهم عليها واحتلالها، فماذا تكون؟!

6. لكنَّنا نجدُ اضطرابًا واضحًا عند بعض المُفسرين في تحديد الإفساد الثاني (الآخِر) لبني إسرائيل في الأرض المباركة، وخاصَّة عند المفسرين القدامى الذين يقولون بوقوع الإفسادين الأوَّل والثاني، وهم في نظري معذورون، فهُم لم يَرَوْا هذا الإفساد اليهودي الذي نراه الآن، وفي نفس الوقت هم لم يكونوا لِيتصوَّروا أنْ يكون لليهود في يوم عُلوٌّ في الأرض المباركة فلسطين، خاصَّة وأنَّ اليهود كانوا يعيشون تحت حكم المسلمين، وكانوا أهلَ ذمَّة يُعْطُون الجزية للدولة الإسلامية عن يدٍ وهم صاغرون، وكانت فلسطين يومئذ جزءًا من الدولة الإسلامية القويَّة.

ومن الأمثلة على هذا الاضطراب:

1. رأى بعض المفسرين أنَّ الإفساد الثاني (الآخِر) لبني إسرائيل قد وقع في زمن النبي (ﷺ) في المدينة المنورة، وقد ناقشت هذا القول عند الحديث عن مدلول قوله تعالى: (عبادًا لنا)، حيث لم تكن المدينة في يومٍ

ساحةً لإفساد بني إسرائيل وعُلُوِّهم، وأنَّ زوال الإفسادين لا بد أنْ يكون فيه دخولٌ لبيت المقدس (المسجد) كما في الآية: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ {الإسراء: 7}، وهذا ما لم يحدث في المدينة المنورة، لا قبل النبي (ﷺ)، ولا في حياته، ولا بعده.

2. ومن المُفسرين من اعتبر أنَّ الإفساد الثاني لبني إسرائيل قد وقع في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد ناقشت هذا القول أيضًا عند الحديث عن مدلول قوله تعالى: (عبادًا لنا)، حيث إنَّ عمر رضي الله عنه دخل بيت المقدس سِلْمًا، ولم يكن منه جوسٌ خلال الديار، ولم يقتل أحدًا، ولم يسْبِ أحدًا، بل تسلَّم مفاتيح بيت المقدس بطريقة سلمية من حاكمها (صفرونيونس) النصراني، وأعطى أهل إيلياء (بيت المقدس) ما يُعرف بالعُهدة العُمَريَّة.

ولا يمكن اعتبار دخول عمر رضي الله عنه لبيت المقدس إزالةً للإفساد اليهود الثاني (الآخر)، فلم يكن في زمن عمر رضي الله عنه كيانٌ، أو وجودٌ سياسي، أو إفسادٌ وعلوٌّ كبير لبني إسرائيل في فلسطين.

3. اعتبر بعض المُفسرين أنَّ الإفساد الأوَّل لبني إسرائيل كان بقتلهم زكريا عليه السلام، فأرسل الله عليهم جالوت، وهذا أمرٌ غير صحيح، ويتعارض مع الحقائق التاريخية المعروفة، فالذي قتل جالوت هو داوود

عليه السلام في زمن طالوت: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ {البقرة: 251}، والمعروف بداهةً أنَّ زكريا عليه السلام من نسل داوود عليه السلام، وجاء بعده بألف سنة تقريبًا.

يقول ابن عجيبة الحَسني: (وقول الجلال السيوطي: وقد أفسدوا في الأولى بقتل زكريا فبُعث عليهم جالوت وجنوده، لا يصحُّ، لأنه يقتضي أنَّ داوود تأخّر عن زكريا، وهو باطل) [1].

إنَّ زكريا عليه السلام هو والد يحيى عليه السلام، ويحيى وعيسى عليهما السلام هما أبناء الخالة، وعيسى بن مريم هو آخر أنبياء بني إسرائيل، فيكون زكريا عليه السلام من آخر أنبياء بني إسرائيل، فلا يُعقَل أنْ يكون أسْبَقَ من داوود عليه السلام، وداوود أقرب إلى موسى عليه السلام، بدليل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ {البقرة: 246}، وفي ذلك الوقت كان داوود عليه السلام شابًا مقاتلاً تحت راية طالوت، وآتاه الله المُلك والنبوة بعد المعركة، فهو قريب من زمن موسى عليه السلام.

---

(1) ابن عجيبة الحسني، أبو العباس أحمد، (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) المجلد الرابع، ص80، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

4. وبعض المُفسرين يقولون: إنَّ بني إسرائيل أفسدوا في أوّل مرّة، فبعث الله عليهم (تيتوس) الروماني سنة 70م، ثمَّ أفسدوا في الثانية، فبعث الله عليهم (هادريان) الروماني سنة 135م، وهذا يعني أنَّ الله قد بعث على بني إسرائيل الرومان مرَّتين، لكنَّنا لا نجد بين هاتين المرّتين أنَّ الله تعالى قد ردَّ الكَرَّة لليهود على الرومان كما تبيّن لنا الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ {الإسراء:6 }، ما يجعل هذا القول واهيًا لا رصيد له تاريخيًا أو قرآنيًا، إنّما كان ذلك في إطار سُنَّة الله الماضية في المُفسدين أنْ يعاقبهم لعلهم يرجعون، ولو بأنْ يُولِي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون.

ومهما يكنْ من أمر، فإنَّ ما نراه اليوم بأعيننا من إفسادٍ وعُلُوٍّ لبني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين)، يجعلنا نُرجِّح بقوة أنَّه هو وعد الآخرة الذي حدثتنا عنه سورة الإسراء.

فإذا جاءَ وعْدُ الآخِرَة

هذا هو الإفساد الثاني والأخير لبني إسرائيل، ولم يقل الله تعالى: (فإذا جاء وعد الثانية) أو: (فإذا جاء وعد ثانيتهما)، بل قال: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ {الإسراء: 7}، أيْ الثانية والأخيرة.

إنهما إفسادان، لا ثالثَ لهما: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ {الإسراء: 4}، وهذه هي المرّة الثانية والأخيرة لكم يا بني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين).

وقد سُبِق هذا الوعد بزوال إفسادكم أنْ ردَّ الله لكم الكرَّة على مَن أزال إفسادكم الأوّل، وأمدّكم بالأموال والبنين وجعلكم أكثر نفيرًا.

وها أنتم تَجْنُون ثمرة إفسادكم وعُلُوكمّ الكبير واستكباركم، فيبعث الله عليكم عبادًا له، كما بعث عليكم في المرّة الأولى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ {الإسراء:5 } .

لقد جاء وعد الآخرة، وهو الوعد بزوال مُلكِكم، ونهاية إفسادكم وعلوِّكم الكبير، وتشريدكم من جديد، وتتبير كلِّ مظاهر إفسادكم في الأرض المباركة فلسطين.

سيبعث الله عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ بنفس الصفات والمواصفات التي كان عليها العباد الذين أزالوا مُلككم وإفسادكم الأوّل: ﴿ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ {الإسراء:5 }، وسيُزيلون كيانكم الفاسد، ولن ينفعكم استكبارُكم وعلوُّكم، ولن تنفعكم أموالُكم ولا بنوكم، ولا كثرةُ نفيرِكم.

إنّهم موصوفون بكونهم: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ {الإسراء: 5}، سيُبعَثون عليكم من جديد بمهمّاتٍ وتكاليفَ محدَّدةٍ لهم من الله تعالى بدقة، وهي ثلاثة كما يلي:

أوَّلاً: ﴿ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ {الإسراء: 7}.

ثانياً: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ {الإسراء: 7}.

ثالثًا: ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ {الإسراء: 7}.

وسيكون زوالكم في المرّتين متماثلًا ومتشابهًا، فإساءة الوجه هي ذات الإساءة، والجَوس خلال الدِّيار هو ذات الجَوس، ودخول المسجد (بيت المقدس) هو ذات الدخول، والقتل هو القتل، والتتبير هو التتبير، والإخراج هو الإخراج، والرحيل هو الرحيل.

ولا أشكُّ في أنَّ الإفساد الثاني والأخير لبني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين) هو هذا الإفساد الذي نراه بأعيننا الآن، وهو المتمثِّل

في هذا الكيان الجاثم فوق الأرض المباركة، والمُسمَّى (إسرائيل)، والذي تمَّ الإعلان عنه في 1948/5/15م.

وإنَّ ممَّا يجعلني متيقِّنًا من أنَّ الكيان الإسرائيلي القائم الآن على أرض فلسطين هو الإفساد الثاني والأخير لبني إسرائيل ما يلي:

1. هذا الإفساد الذي نراه قد سَبقَه ردٌّ للكرَّة لبني إسرائيل على العرب، وهو ما صرَّحت به هذه الآية: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ {الإسراء: 6}

2. الإمداد الواضح لبني إسرائيل بالأموال والبنين، وهو ما جعلهم أكثر نفيرًا، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ {الإسراء: 6}.

3. اليهود هم الأكثر نفيرًا من العرب، والأكثر نفيرًا واستنفارًا للعالم كلِّه لشنِّ الحروب منذ سنة 1948م وما قبلها، فهم الذين يُشعلون الحروب دائمًا، وهو ما صرَّحت به الآية: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾{المائدة: 64}.

4. إساءة الوجوه التي يتعرض لها اليهود على يد أهل فلسطين، والمقاومة الفلسطينية يومًا بعد يوم، فقد انكشفت سوءاتُهم أمام الكثير من شعوب العالم، وعُرِف عنهم الوحشية، وظهرت عوراتُهم، ولم يعودوا هم الجيشَ الذي لا يُقهَر، كما كانوا يزعمون دائمًا.

5. إنَّ مجيء اليهود لفيفًا إلى فلسطين من كلّ مكانٍ يؤكد أنَّ هذا الإفساد الذي نراه هو الإفساد الثاني والأخير لبني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين) كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ {الإسراء: 104}.

وممّا سيكون في وعد الآخرة بإذن الله تعالى:

1. دخول عباد الله أولي البأس الشديد لبيت المقدس، وتحريره من المفسدين، والجَوس خلال الديار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ {الإسراء: 7}

2. تتبير الإفساد الإسرائيلي في فلسطين، وإهلاكه وزواله بإذن الله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ {الإسراء: 7}

3. خروج اليهود من فلسطين والرحيل عنها بإذن الله تعالى، وهو ما نفهمه من قول الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ {الإسراء: 8}، فرحمة الله تعالى لهم ستكون بانهزامهم وزوال مُلكهم وانتهاء إفسادهم، لا بإبادتهم وإفنائهم.

ومن العلماء الذين يقولون بأنَّ الإفساد الحالي هو الإفساد الثاني والأخير لبني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين):

أ-الشيخ محمد متولي الشعراوي [1]. (راجع تفسير الشعراوي).

ب- الأستاذ بسام جرار [2]. (راجع كتاب: زوال إسرائيل 2022م نبوءة أم صدف رقمية).

ت- الدكتور أحمد نوفل [3]. (راجع موقع إسلاميات، تفسير سورة الإسراء، الآية 7).

ث- الشيخ سعيد حوى [4] (راجع كتاب الأساس في التفسير).

ج- الشيخ عبد الله بن محمد الطوالة [5].

ح- الدكتور يونس الأسطل، حيث يقول:

(وإنَّ من المُرَجَّح كذلك أنّنا اليوم على موعد مع تتبير العُلوِّ الكبير لبني إسرائيل في هذا الإفساد الثاني، حيثُ إنَّ من أماراته أنْ يأتي الله بهم لفيفًا، ولا شكّ أنَّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين ما كانت يومًا كما كانت في العقود الأخيرة ...) [6].

---

[1] الشعراوي، محمد متولي، (خواطري حول القرآن الكريم)، ص8368 ، دار الأخبار اليوم، القاهرة.

[2] جرار، بسام، (زوال إسرائيل2022، نبوءة أم صدف رقمية)، ص21، ط 3، 2002م.

[3] نوفل، أحمد، (تفسير سورة الإسراء)، موقع إسلاميات،2014/8/15م.

[4] حوى، سعيد، (الأساس في التفسير)، المجلد السادس، ص3044، دار السلام، القاهرة.

[5] الطوالة، عبد الله محمد، (تأملات في سورة الإسراء)، 2017/12/14م.

[6] الأسطل، يونس، (فلسطين من منظور قرآني)، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر: فلسطين لن يطول ليل الغاصبين، في ذكرى النكبة الحادية والستين، 25 جمادى الأولى 1430هـ، الموافق 2009/5/21م.

ويقول أيضًا: (لكنَّ الذي أودُّ الإشارة إليه أنّهم منذ تحطيم العلوّ الأول لم يقُمْ لهم كيان سياسي إلا في زماننا هذا ...).

إنَّ هذا الكيان اليهودي القائم في فلسطين الآن، لا يمكن أنْ يكون خارجًا عن السياق التاريخي الذي تتحدث عنه سورة الإسراء، ولا يمكن أنْ يكون خارج قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ {الإسراء:4}، فهو إفساد بني إسرائيل الأخير بلا شكٍّ، بعيدًا عن التأويلات المخالفة للواقع والتاريخ، فإنَّ خير التأويل ما كان حادثًا واقعًا تشاهده العين، وتدركه الحواس.

جئنا بكم لفيفًا

قول الله تعالى: ﴿ جِئۡنَا بِكُمۡ ﴾ يُوحي بأمرين:

الأول: إنكم يا بني إسرائيل قبل وعد الآخرة لم تكونوا في الأرض المباركة فلسطين، بل كنتم في الشتات أممًا مُقطّعين في الأرض بعد زوال إفسادكم الأوّل، وهو ما حدث فعلاً، فقد بدأ تجمُّع اليهود في فلسطين منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن.

الثاني: ﴿ جِئۡنَا بِكُمۡ ﴾: الفاعل في المجيء هو الله تعالى، فأنتم لم تجيئوا، بل جِيء بكم، وإنَّ هذا المجيء بكم إلى الأرض المباركة هو من مشيئة الله تعالى، وحكمته، وعلمه، فما كان لكم أنْ تدخلوا فلسطين لولا مشيئة الله تعالى لتحقيق وعد الآخرة: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ {الروم: 4}.

وقوله تعالى: ﴿ لَفِيفًا ﴾: له دلالاتٌ مختلفة، منها:

1. إنّ بني إسرائيل كانوا قبل وعد الآخرة متفرِّقين في أماكنَ مختلفةٍ، لا أرضَ تجمعهم، ولا كيانَ يضُمُّهم، كما قال عزّ شأنه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا ﴾ {الأعراف: 168}، فجاء الله بهم ﴿ لَفِيفًا﴾، أيْ تجميعًا بعد تباعدٍ وتفرُّق.

وقد جاء في المعجم الوسيط: (لفَّ الشجرُ لفًّا) أي الْتَفَّ واجْتَمَع، والْتَفَّ الشيءُ، أيْ تَجَمَّع وتكاثف، ونقول: التفَّ الشجر بالمكان، أيْ كثُر وتضايق، والْتفَّ عليه القوم: اجتمعوا عليه) [1].

إنَّ كلّ هذه التراكيب، والاستخدامات اللغوية، تُوحي بمعنى التجمُّع والتجميع لبني إسرائيل من أماكن شتى، وهذا فعلاً ما نراه في الواقع، فقد تجمَّع اليهود في فلسطين قبل سنة 1948م وبعدها من كلِّ مكان، من الشرق، ومن الغرب، فنجد أنَّ يهودًا قَدِمُوا من الاتحاد السوفيتي، ومن أفريقيا، ومن البلاد العربية، ومن الأمريكيتين، ومن كلِّ جهات العالم.

2. كلمة: ﴿لَفِيفًا﴾: فيها معنى الكثرة والخَلْط: جاء في المعجم الوسيط (لفَ الرجلُ في الأكْل: إذا أكثر وخلَّط) [2].

وقد رأينا معنى الكثرة فعلاً خلال الهجرات اليهودية المتكررة إلى فلسطين، حتى وصل عددهم في سنة 1948م إلى أربعة ملايين نسمة.

ومع هذه الكثرة، فقد كانوا مخلَّطين من أصولٍ مختلفة، وقد أحصى بعض العلماء قوميّاتِهم ولغاتِهم، فوجدوهم ينحدرون من سبعينَ قوميةً، ويتكلمون بتسعينَ لغةً [3].

---

[1] مصطفى، إبراهيم، وآخرون، (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، ج2، ص835، دار الدعوة، إسطنبول، تركيا، 1990م.

[2] المرجع السابق.

[3] جرار، بسام، (زوال إسرائيل2022، نبوءة أم صدف رقمية)، ص 21، ط 3، 2002م.

3. كلمة ﴿لَفِيفًا﴾: توحي بالبُطْء والتثاقُل: وهو ما أشار إليه المعجم الوسيط: (لفَّ الرجل) إذا بطُؤ وتثاقل [1].

وهذا ما حدث فعلاً في الهجرات اليهودية إلى فلسطين، فهي لم تكن مرةً واحدةً، أو دَفْعةً واحدة، بل كانت هذه الهجرات على دَفْعاتٍ كثيرة، وسنواتٍ عديدة، ولا تزال هذه الهجرات مستمرة، حتى يقضي الله قريبًا أمرًا كان مفعولًا.

1. كلمة: ﴿ لَفِيفًا ﴾: فيها معنى الالْتواء: ففي المعجم الوسيط: (لفَّ: أيِ الْتوى عِرْقٌ في ساعده) [2].

إنَّ كلَّ مَنْ يتأمل الهجرات اليهودية إلى فلسطين يجد أنها كانت بطرق مُلتوية، وغير شرعية، فقد سيطروا على فلسطين بمساعدة الاحتلال البريطاني الذي كان يحتل فلسطين، وهم الذين وَعَدُوا اليهود بمنحهم فلسطين وطنًا قوميًا لهم.

---

[1] مصطفى، إبراهيم، وآخرون، (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، ج2، ص835، دار الدعوة، إسطنبول، تركيا، 1990م.

[2] المرجع السابق.

ولِيدخلُوا المسجدَ كما دَخلُوه أوّل مَرَّة

إنَّ المهمة الثانية للعباد الذين يبعثهم الله تعالى في وعد الآخرة، بعد إساءة وجوه بني إسرائيل، هي تحرير بيت المقدس من إفسادهم الثاني والأخير: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

ويمكنني هنا الوقوف عند أمرين:

أوّلاً: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ﴾:

إنَّ المُراد بالمسجد هنا هو (المسجد الأقصى) الذي كان الإسراء إليه، ومنه كان العروج إلى السموات، فهو (بيت المقدس)، ومركزية الطهارة، وهو الذي بارك الله فيه وحوله، فكانت فلسطين من حوله هي الأرض المباركة: ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ {الأنبياء: 71}، وهي الأرض التي أفسد بنو إسرائيل فيها مرَّتين، وعَلَوْا عُلُوًّا كبيرًا. وقد حظي بيت المقدس بهذه القداسة فأصبح بيتًا للقداسة والطهارة، وهو المسجد الأقصى الذي تتحدث عنه سورة الإسراء.

– يقول أبو الفرج بن الجوزي في زاد المسير: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ﴾: يعني بيت المقدس[1].

---

[1] ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين، (زاد المسير في علم التفسير) المجلد الخامس، ص9، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

-ويقول البغوي في معالم التنزيل: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾: أيْ بيت المقدس ونواحيه [1].

-وكذلك قال ابن عجيبة الحسني[2]، والسمرقندي[3]، وأبو بكر الجزائري[4]، والزحيلي [5]، ... وغيرهم.

وإنّما يدخل هؤلاء الداخلون للمسجد الأقصى والمدينة المقدسة (بيت المقدس)، دخولَ الفاتحين المُحررين، ليُعلنوا سقوط الإفساد الإسرائيلي في كلِّ الأرض المباركة (فلسطين) بإذن الله تعالى.

وكأنّي أرى هؤلاء الفاتحين الآن، وأسمعهم وهم يهتفون، كما هتف النبيُّ (ﷺ) عندما دخل مكة فاتحًا منتصرًا: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ {الإسراء: 81}.

ثانيًا: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾:

---

[1] البغوي، أبو محمد الحسين، (مختصر تفسير البغوي المسمَّى معالم التنزيل)، الجزء الأول، ص508، مكتبة المعارف، الرياض1996م.

[2] ابن عجيبة الحسني، أبو العباس أحمد، (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) المجلد الرابع، ص9، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

[3] السمرقندي، نصر الدين محمد، (تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم)، الجزء الثاني، ص302، دار الفكر، بيروت، 1997م.

[4] الجزائري، أبو بكر جابر، (أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير) الجزء الثاني، ص217، دار الحديث، القاهرة، 2006م.

[5] الزحيلي، وهبة، (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج) الجزء الثامن، ص22، دار الفكر، دمشق، ط11، 2011م.

إنَّ الآية تصف شكل هذا الدخول للمسجد الأقصى، والمدينة المقدسة (بيت المقدس)، فهو ليس مجرَّدَ دخول، بلْ إنَّه دخولٌ كالدخول الأوَّل في الإفساد الأوَّل: ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ {الإسراء: 7}.

وحرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ {الإسراء: 7}. يجعلنا نستحضر شكل الدخول الأوَّل، وطريقته، ونتائجه، فهما صورتان متشابهتان.

يقول الطاهر بن عاشور: (ودخول المسجد دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله تعالى: (كما دخلوه أول مرة) المُراد منه: فجاسوا خلال الديار [1].

وهنا نسأل: كيف كان الدخول في أوّل مرّة؟

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا ﴾ {الإسراء: 5}، فَلْنتدبَّر الآية من جديد لنقف عند بعض المعاني والإشارات، فنستدلَّ من خلالها على كيفية دخول المسجد في المرَّة الأولى:

الإشارة الأولى: ﴿ بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ :

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، (تفسير التحرير والتنوير)، المجلد السابع، ص37، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

نجد في كلمة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنى العلوّ والغلبة والاستحواذ والقهر والسيطرة، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ {المائدة: 23}، فهم عباد لله مبعوثون على بني إسرائيل، وليسوا مبعوثين إلى بني إسرائيل، وهذا يوحي بأنَّ الدخول كان فيه استحواذٌ وسيطرة، وغلبة وتحكّم، وهو نفسه ما سيكون في الدخول الثاني بإذن الله تعالى.

الإشارة الثانية: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ :

فقد جاء التعبير القرآني دقيقًا جدًا، ليحمل إلينا المعنى المُراد من الله تعالى دون لبس أو غموض، فهؤلاء عبادٌ لله مأمورون من الله تعالى، وهم جندٌ من جنوده، يُنفِذُون قضاءه، ويحقِّقون وعده، ولا مكان للتردّد، أو الخوف، أو التراجع في إنفاذ أمر الله تعالى بالقضاء على إفساد بني إسرائيل في الأرض المباركة (فلسطين).

إنهم عباد لله أشدَّاء أقوياء، يمتلكون من الشجاعة والجَسَارة والجرأة ما يجعلهم جديرين بأن تُسند إليهم مهمة القضاء على العلوِّ الكبير الذي كان عليه بنو إسرائيل في إفسادهم الأوّل، فلا خوف يحجزهم، ولا تردُّدَ يمنع تقدمهم، بل يندفعون كالأسود نحو مهمتهم وأهدافهم.

فالدخول الأوّل لا بُدَّ أنّه كان دخولًا قويًّا من قوم أقوياء أشداء، لم يقْوَ على دفعهم أو ردّهم بنو إسرائيل برغم عُلُوِّهم الكبير، وهذا من آيات

الله الظاهرة أنْ ينتصر عبادٌ لله أولو بأس شديد على بني إسرائيل العَالين المُفسدين بالشجاعة والإقدام، وهو نفس ما سيحدث في الدخول الثاني لبيت المقدس في وعد الآخرة، فيكون إعلانًا للفتح والتحرير، وزوال (إسرائيل) بإذن الله تعالى.

الإشارة الثالثة: ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾:

إنَّ الجَوْس فيه معنى التردد ذهابًا وإيابًا، بهدف التفتيش والفحص والتقصِّي، وإنما يحدث هذا الجوس من أولي البأس الشديد وهم يدخلون المدينة المقدَّسة، يفتِّشون خلال الديار عن المختبئين من بني إسرائيل، لقتلهم، أو أسرهم، أو معاقبتهم، أو طردهم.

فهم لم يكتفوا بمقاتلة مَن يقاتلهم، بل كانوا يجوسون بين الدّيار والأزقَّة، والبيوت والشوارع، بحثًا عن كلِّ مَن ينتمي لدولة اليهود من الرجال والنساء، لئلا يكونَ لهم أملٌ في البقاء في الأرض المباركة، فيُفسِدوا من جديد.

إنَّنا نستطيع إذنْ أنْ نتخيَّل كيف كان الدخول في أوَّل مرَّة، فنعرفَ أنَّه كان دخولاً عنيفًا وقويًا، فيه علوٌّ، وسيطرةٌ، وقتلٌ، وأَسْر، ونفس الأمر سيحدث في وعد الآخرة، وسيبعث الله على اليهود عبادًا له أشداء أقوياء أُولي بأس شديد، وسيدخلون المدينة المقدَّسة كما دخلوها أوَّل مرة: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ {الإسراء:7}،

وسيجوسون خلال الدِّيار كما جاسوا في أوَّل مرَّة، وسيقتُلون ويأسرون كما فعلوا في المرَّة الأولى بإذن الله تعالى.

ومعلوم أنَّ الذين دخلوا المدينة المقدَّسة في أوّل مرّة هم البابليُّون بقيادة المَلك نبوخذ نصَّر، فقَضَوْا على فساد بني إسرائيل، وعلوِّهم الكبير في سنة 586 ق.م، كما رجَّحنا عند تدبّرنا لقوله تعالى: (عبادًا لنا) في هذا الكتاب.

ولا يغيبَنَّ عنَّا أنَّ البابليّين هم قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية، واستقرَّت في العراق، ثم انتشروا في بلاد الشام أيضًا، ممَّا يُرجّح أنَّ العباد الأشدَّاء الذين يبعثهم الله تعالى على بني إسرائيل في وعد الآخرة هم عربٌ، ومن أصولٍ عربية، وهم من ذرية البابليين الذين دخلوا المسجد في أوَّل مرَّة، وفي نفس الوقت هم الآن مسلمون، ينتهجون الإسلام في حياتهم، ومقاومتهم، ويُقارعون الاحتلال الإسرائيلي المُفسِد بما يملكون من بأس شديد، وبما يُعِدّون من القوة، وبإذن الله تعالى سيدخلون بيت المقدس فاتحين محرِّرين قريبًا، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ولِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا

التَّتْبير هو الإهلاك والتدمير، والتحطيم والتكسير والتفتيت، بحيثُ لا يبقى ممّا تَمَّ تتبيره شيءٌ يقوم بذاته، وفي هذا يقول الله تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ {نوح: 28}، أيْ لا تزدهم إلا دمارًا وإهلاكًا لا يُبقي لَهم باقية.

ولن يقع هذا التَّتبير إلا بعد دخول بيت المقدس، وتحرير المسجد الأقصى: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ {الإسراء:7}، حيثُ سيكون هذا الدخول عنيفًا وقويًّا يتم فيه تحرير المدينة المقدسة من الاحتلال الإسرائيلي الذين تدعمه قوى الظلم العالمية، في حالة من الخذلان العربي الرسمي، وهذا يستدعي قتالًا في كلِّ مكان من القُدْس، كما فعلوا في أوَّل مرَّة حيث جاسوا خلال الديار: ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ {الإسراء:7}.

إنَّ دخول القدس (بيت المقدس) سيكون ذروة الانتصار، وغاية المجاهدين في المرحلة الثانية بعد إساءة الوجوه، تمهيدًا للتَّتبير، وهو المرحلة الثالثة والأخيرة في وعد الآخرة، خاصَّة أنَّ القدس هي المدينة التي يتَّخذها اليهود عاصمةً مركزيةً لقوتهم السياسية والسيادية، لذا فإنَّني أرى أنَّ أكثر ما يكون من التَّتْبير سيكون في القدس.

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾:

ويُمكنني الوقوف عند بعض المعاني والدلالات في الآية الكريمة:

1.﴿ مَا عَلَوْا۟ ﴾:

الدلالة الأولى: أيْ ما استولَوْا وسيطروا عليه بالقوة والقهر والغلَبة، فالداخلون للقدس والمسجد الأقصى سيُتبِّرون ما سيطروا عليه وغلبوه وقهروه بطريق القوة والقتال والانتصار، على اعتبار (ما) اسمًا موصولًا بمعنى الذي.

أيْ أنهم سيتبِّرون ويدمِّرون ما كان يتحصّن فيه اليهود من أبراج وحصون ومواقع، فُهُم كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ {الحشر: 14}، فلا يَبقَى لهم مكانٌ يلجؤون إليه، ولا يجدون لهم فئةً ينحازون إليها.

وواضحٌ أنَّ ما يتمُّ الاستيلاء والسيطرة عليه من المواقع العسكرية والجُدُر والحصون والمواقع السيادية يكون بعد معارك طاحنة وعنيفة مع اليهود، فاستحقَّت هذه المواقع التدمير والإهلاك والتَّتْبير بما ترمز له من السيادة والقوة والوجود الإسرائيلي في القدس والأرض المباركة.

ولا أظنّ أنْ يتمّ تتبير المؤسسات المدنية كالمدارس والمستشفيات والمؤسسات العامة، ولا تتبير المساكن التي يمكن الاستفادة منها في إيواء أكثر من ستة ملايين لاجئ فلسطيني في الشتات منذ سنة

1948م، فهي حقٌّ مُستَرَدٌ لهم، وهي كما قال الله تعالى للمسلمين بعد غزوهم لبني قريظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرًا﴾ {الأحزاب: 27}.

ولا يقتصر التتبير على الجانب الماديّ، بل هو تتبيرٌ للعُلوّ الإسرائيلي الكبير، وتحطيمٌ لما ترمز له (إسرائيل) من القوة والاستكبار والعنجهية والسيطرة والظلم والإفساد.

الدلالة الثانية: ويمكن أنْ نفهم أيضًا من قوله تعالى: ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ أنَّهم سيُتبّرون كلَّما عَلَوا وانتصروا، أيْ ما استمرَّ انتصارهم وعلُوُّهم على اعتبار أنّ (ما) ظرفيةٌ للزمان.

وأيًّا ما كان الفهم ففي كلا الأمرين سيكون التتبير بالقوة والغَلبة والعُلُوّ، وسيزول معه الإفساد الإسرائيلي عن الأرض المباركة.

2. ﴿تَتۡبِيرًا﴾: وفي التَّتْبير قهرٌ نفسيٌّ لليهود وخِزْيٌ، لتغتاظ نفوسُهم حسرةً وألمًا وحزنًا، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ {الحشر: 5}، فإنَّ الخِزْيَ ينطوي على الحسرة، فضلاً عن المَعَرَّة والافتضاح من أثر الهزيمة.

3. ﴿تَتۡبِيرًا﴾: مفعول مطلق، جاء ليؤكِّد الفعل (وليتبروا)، فهو تَتْبيرٌ حقيقيٌّ مُطْلَق الحدوث، يجعلنا نتصور الدَّمار والإهلاك كأنَّه يقع أمامنا دون قيود على هذا الدمار والإهلاك والتفتيت.

إنَّ عملية التَّتْبير التي سيقوم بها عبادٌ لله أولو بأسٍ شديد لكلِّ رموز الإفساد الاسرائيلي في الأرض المباركة فلسطين، ستعني نهاية (إسرائيل)، وزوالها بشكل كامل، وستزول معها كل مظاهر علوِّهم الكبير، فلا يبقى لهم علوٌّ سياسي، ولا علوٌّ اقتصادي، ولا علوٌّ عسكري، ولا علوٌّ إعلامي، وسيسيطر المجاهدون المنتصرون على المطارات العسكرية والمدنية وما فيها، وستصبح الموانئ وما فيها من السفن الحربية والمدنية غنائم للمنتصرين، وسيستفيدون منها في دولتهم القادمة بإذن الله تعالى.

ويقولون سُبحانَ ربِّنا إنْ كانَ وعْدُ ربِّنا لَمفعُولًا

إنهم المؤمنون الذين سيَرَوْن بأعينهم وعد الآخرة يتحقق، بهزيمة اليهود، وزوال مُلكهم، ورحيلهم عن فلسطين.

ويرَوْن بأعينهم كيف يدخل المجاهدون بيت المقدس فاتحين مُهلِّلين مُكبِّرين، يتبِّرون كلَّ مظاهر الإفساد اليهودي في بيت المقدس، وفي الأرض المباركة فلسطين.

يرَوْن المجاهدين أُولي البأس الشديد وهم يدخلون رحاب المسجد الأقصى المبارك، يَنحَنُون لله تعالى، ويُصلُّون شكرًا وعرفانًا.

عندها سيخِرُّ المؤمنون للأذقان يبْكون بما رأَوْا، فيزيدهم تحقيق الله تعالى لوعده خشوعًا وإيمانًا ويقينًا: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾{الإسراء: 109}.

لقد كانوا واثقين دائمًا من قدوم هذه اللحظات العزيزة، وكانوا على يقين من أنَّ الله تعالى لا يُخلِف وعده، فيقولون: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ {الإسراء: 108}.

إنَّ الظاهر من الآيات أنَّ المُراد بالوعد في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ {الإسراء: 108}، هو وعد الآخرة، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ {الإسراء:

107}: أيْ الذين كانوا يؤمنون ويثقون بحتمية مجيء ووقوع وعد الآخرة من قبل وقوعه، فالضمير (واو الجماعة) في قوله تعالى: (أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ) يعود عليهم ، والضمير (الهاء) في قوله تعالى: (مِن قَبۡلِهِۦٓ) يعود على: (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ).

لكنَّ بعضًا من أهل التفسير يقولون بأنَّ الضمير (الهاء) في: (به) و(قبله) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ {الإسراء: 107}، يعود على القرآن الكريم، وليس على وعد الآخرة، ولا شكَّ أنَّ السياق القرآني يحتمل ما يقولون ظاهرًا، خاصَّة أنَّ الآية التي سبقت هي: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ {الإسراء: 106}.

ولكنّ السياق القرآني ذاته لا يمتنع أيضًا عن احتمالٍ آخر في توجيه ضمير (الهاء) في قوله تعالى: (قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ)، بحيث يعود على (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ {الإسراء: 104}، خاصّة أنَّ الآية التي تتحدث عن القرآن: (وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ) جاءت معطوفةٌ على ما قبلها وهو: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ والذي هو (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ) ، فيكون وعد الآخرة هو الوعد الذي أنزله الله بالحق وبالحق نزل، وهو أقرب المذكورين قبل العطف

عليه، وهو مدار الحديث في الآيات، وعليه يعود الضمير في قوله تعالى: (قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ).

وسأعرض فيما يلي مجموعة من الإضاءات المُهمة التي تساعدنا في التدبُّر والاستنباط، وفهم الآيات:

أوَّلًا: إنَّ الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ {الإسراء: 105}، يعود على (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ)، والذي هو جزءٌ من القرآن الكريم، فالله تعالى هو الذي أنزل هذا الوعد، وهو آخر مذكور قبل الضمير المتصل (الهاء) في لفظة (به) في قوله تعالى: (قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ)، ما يعني أنّ وعد الآخرة هو المتحدَّث عنه وليس القرآن الكريم.

ثانيًا: قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ {الإسراء: 105}، جاء بعد الحديث عن وعد الآخرة، وهو يُشير إلى أنَّ النبي صلّى الله عليه وسلّم يُبشر المؤمنين بوعد الآخرة الذي سيكون فيه زوال إفساد بني إسرائيل الثاني والأخير عن الأرض المباركة فلسطين، وفي نفس الوقت فإنه يُنذر اليهود من عاقبة إفسادهم، وعلوِّهم الكبير.

ثالثًا: إنَّ قوله تعالى: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ {الإسراء: 106}، فيه إشارة إلى أنَّ هذه الآية معطوفة

على ما قبلها، فكما تحدثت الآية التي قبلها عن (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ)، فإنَّ هذه الآية تحدثنا عن القرآن، وهي تبدأ بمنصوب هو: (وَقُرۡءَانٗا)، ويمكننا أنْ نتوقع العامل في نصبه من خلال السياق، كما يلي:

أ – العطف: فكما نزّلنا وعد الآخرة بالحق، فإننا نزّلنا قرءانًا.

ب – النصب على الاختصاص: كأنْ نقول: (وأخُصّ قرءانًا فرقناه).

ت – تقدير الفعل (اذكر)، فنقول: (واذكر قرءانًا فرقناه).

ث – تقدير الفعل (أمدح)، فنقول: (أَمدح قرءانًا فرقناه).

ج – تقدير الفعل (آتينا) فنقول: (آتيناك قرآنًا).

وهو ما يجعل الاحتمال قويًّا لأنْ يكون الضمير عائدًا على (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ)، الذي عُطِفَت عليه الآية التي تتحدث عن القرآن.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ {الإسراء: 107}، لا يعني بالضرورة تلاوة القرآن كاملًا، بل يمكن أنْ يُتلى بعض القرآن، أو بعض أنباء القرآن، كتلاوة ما يتعلق بوعد الآخرة، أو غير ذلك، وبحسب هذا السياق فالذي يُتلى عليهم هو وقوع وعد الآخرة، وتتبير وزوال الإفساد الإسرائيلي.

خامسًا: إنَّ ذِكْر كلمة: (وعد) في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ {الإسراء: 108}، يجعل المُراد واضحًا، وهو (وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ)

المذكور في الآية: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا ﴾ {الإسراء: 104}، والذي تحدثت عنه سورة الإسراء منذ البداية.

سادسًا: إنَّ قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ {الإسراء: 108}، فيه تعبير عن التعجُّب لقدرة الله تعالى وعظمته، ولِما يرَوْن من وعد الله الذي يتحقق أمام أعينهم، فهو نفس الوعد الذي تحدثت عنه الآية: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا ﴾ {الإسراء: 104}، فقد كانوا كثيرًا ما يتلونها، وهو ما دعاهم للتعجُّب والدهشة.

وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ وعد الآخرة قادمٌ لا محالة بإذن الله تعالى، وعندها سيفرح المؤمنون بنصر الله، وسيسجد المؤمنون الذين كانوا يعلمون عن حقيقة وقوع هذا الوعد من قبل، وسيخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا.

عسى ربكم أنْ يرحمكم

يقول الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (الإسراء: 8).

الآية السابقة تتحدث عن بني إسرائيل بعد وقوع وعد الآخرة وإساءة وجوههم، ودخول مَن بعثهم الله تعالى مِن عباده أولي البأس الشديد المسجد كما دخلوه أوّل مرّة، وتتبيرهم ما عَلَوْا تتبيرًا: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ {الإسراء: 7}.

وفي الآية إشاراتٌ إلى معانٍ مختلفة، نذكر منها:

1. (عسى): وهي من الله تفيد الوجوب، قال بذلك الطبري، وأبو الفرج بن الجوزي، والقرطبي، ومعنى هذا: إنّ رحمة الله تعالى كائنةٌ واقعةٌ لا محالة ببني إسرائيل بعد زوال إفسادهم، وتتبير مُلكهم، وسقوط دولتهم.

2. جاء في تفسير مقاتل: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ {الإسراء: 8}: فلا يُسلَّط عليكم القتل والسَّبْي.

3. (أنْ يرحمكم): هذه الرحمة من الرَّب باليهود ستمنَع إبادتهم وإفناءَهم، وما سيحدث في وعد الآخرة هو إنهاءٌ لإفسادهم وعلوِّهم الكبير في الأرض المباركة فلسطين، وتتبيرٌ لدولتهم، وسقوطٌ لمُلكهم.

4. هذه هي الفرصة الأخيرة لليهود، فقد أفسدوا في الأرض مرَّتين، وعاقبهم الله تعالى بزوال إفسادهم ومُلكهم في المرَّتين، وسيكون لهم الآن فرصةٌ أخيرة للتوبة والإنابة، ولا فرصة لهم بالإفساد في الأرض المباركة بعد وعد الآخرة من جديد.

5. عدم إبادة اليهود، وعدم قتلهم جميعًا، فيه رحمةٌ من ربهم بهم، وفي هذا دليل على أنَّهم سيخرجون من فلسطين هروبًا وبحثًا عن نجاة أو حياة، وفي هذا الخروج أو الرحيل عن فلسطين رحمةٌ من ربهم بهم، حيث سيَبقَوْن على قيد الحياة، وتظهر قيمتها عندهم حين نتذكر أنَّهم أحرص الناس على حياة، يودُّ أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة.

ويمكن أنْ نفهم معنى الآية كما يلي:

لقد أفسدتم يا بني إسرائيل في الأرض المباركة فلسطين مرّتين، وبعد المرَّة الأولى ردَّ الله تعالى لكم الكرَّة على مَنْ أزال مُلككم، ولكنكم لم تتَّعظوا، ورجعتم للإفساد في فلسطين مرَّة أخرى، فعاقبكم الله تعالى، وبعث عليكم من يُزيل مُلكَكم ويُتبِّر إفسادكم وعُلُوكم تتبيرًا، دون أنْ يُقضى عليكم وعلى حياتكم بشكل كامل فيُستأصَل فيه جنسُكم، وفي هذا رحمةٌ من ربكم بكم، فخُذوا هذه الفرصة بأنْ أبقاكم أحياءً، لعلكم تتوبون وترجعون.

– وقد يسأل سائل: وهل يرحم الله تعالى الكافرين؟

– وكيف يرحم الله تعالى اليهود على كفرهم وإفسادهم؟

لذلك أقول: هناك فرقٌ بين المغفرة والرحمة من ناحية، وهناك فرق بين الرضى عن إنسان وبين رحمته من ناحية أخرى، فالمغفرة تجاوزٌ عن الذنوب، وعدم المُحاسبة عليها، وهذا لم يحدُثْ مع اليهود، بلْ إنَّ الله تعالى يُعاقبهم على إفسادهم في المرَّتين، ولا يَرْضَى عن فسوقهم، بل يقضي عليه، ويبعث عليهم في المرَّتين مَنْ ينسف ذلك نسفًا.

لكنَّ الرحمة من الله تعالى تكون للمؤمن والكافر، وتكون للأحياء والأموات، وتكون للكائنات والجمادات، لقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ {الأعراف: 156}.

يقول السَّعدي في تأويل هذه الآية: (أيْ مِن العالم السُّفلي والعُلوي، البَرِّ والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلتْ إليه رحمة الله، أو غَمَرَه فضلُه وإحسانُه).

ونحن نجد هذا واضحًا في توجيه الله تعالى للإنسان، وكيفية تعامله مع والديه، حتى وإنْ كانا مشركين، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ {لقمان: 15}، ففي الوقت الذي قد يجاهد فيه الوالدان ابنهما على أنْ يُشرِك بالله، فإنَّ الله يأمره بأنْ يصاحبهما في الدنيا بالمعروف، ولا شك أنَّ في هذا رحمةً من الله تعالى بهما بالرغم من شركهما.

وفي سورة الإسراء يأمر الله تعالى الابن بأنْ يَخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة، وأنْ يدعو لهما بالرحمة صراحةً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ {الإسراء: 24}، وهذا يُشير بوضوح إلى أنَّ رحمة الله تعالى تشمل المؤمن والكافر، فلا فرق بين والِدَيْنِ مؤمنين، ووالِدَيْنِ كافرين.

أمَّا الدعاء للكافرين بالمغفرة فلا يجوز مطلقًا، لأنَّه يخالف قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ {النساء: 48}، وقد جاء النَّهي صريحًا في القرآن الكريم عن الدعاء للكافرين بالمغفرة، حين قصَّ الله تعالى علينا ما كان من إبراهيم عليه السلام مع أبيه، حيثُ وعَدَه بأنْ يستغفرَ له ربَّه بقوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ {مريم: 47}، لكنَّه سرعان ما رجع عن هذا الوعد، وهذا الاستغفار، عندما تبيَّن له أنَّ أباه عدوٌّ لله، وأنَّه لا يجوز الاستغفار له، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ {التوبة: 114}.

وفي هذا إشارة إلى وجود فرقٍ في المعنى بين (الرحمة) و(المغفرة)، وفرقٍ في الحُكم الشرعي بين الدعاء بالرحمة الذي يجوز للوالدين مع شركهما، والدعاء بالمغفرة الذي لا يجوز أنْ يكون للمشركين مُطْلَقًا.

والله تعالى مع رحمته فهو الحكيم العليم، وهو العزيز الذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، لكنَّ حكمته اقتضتْ أنْ يعاقِب بني إسرائيل بالقضاء على إفسادهم في المرّتين دون إبادتهم وقتلهم جميعًا، لذا فإنَّه يقول لهم: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ {الإسراء: 8}، فلو كانوا قد قُتلوا جميعًا في وعد الآخرة، أو أُبيدوا لما أنذرهم بهذا النذير.

وإنْ عُدتُّم عُدْنَا

في الآية: ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ ﴾ (الإسراء:8) إخبارٌ من الله تعالى بأنَّ اليهود سيُحاولون العودة إلى الإفساد في الأرض المباركة فلسطين من جديد، وذلك بعد زوال دولتهم وإفسادهم في وعد الآخرة، وهو ما سيتبيَّن لاحقًا بإذن الله.

والخطاب في الآية السابقة موجَّهٌ إلى بني إسرائيل في سياق الحديث عن زوال إفسادهم الأخير في ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وأنَّه سيكون على ثلاث مراحل:

1. إساءة الوجوه: ﴿لِيَسُـࣳـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ {الإسراء:7}، وقد حدث ولايزال يحدث.
2. دخول بيت المقدس: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ﴾ {الإسراء:7}.
3. تتبير مظاهر الإفساد الأخير: ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ {الإسراء:7}.

وأنَّهم بعد زوال هذا الإفساد الأخير سيرحمهم الله تعالى بإبقائهم أحياءً دون إفناء أو إبادة، لعلهم يتوبون، أو يرجعون عن معاصيهم.

لكنَّ الله تعالى يُنذرهم ويُحذِّرهم من العودة إلى الإفساد من جديد، وأنَّه بمجرد عودتهم إلى الإفساد سينتقم منهم وسيُهلكهم، وهذا ما نفهمه

من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾، فلا يُوجد فاصل بين (عُدتم) و(عُدنا)، فالعقوبة حاضرة وفورية، والإهلاك سريع ونهائي.

فهل سيعود اليهود للإفساد في فلسطين من جديد بعد زوال مُلكهم ودولتهم في إفسادهم الثاني والأخير، وبعد رحمة الله لهم بعدم إبادتهم وإفنائهم؟

في الآية الكريمة إشارة إلى عودة اليهود للإفساد من جديد، لكنهم لن يُسمَح لهم به، ولن يتمكنوا من الاستقرار أو الإقامة في فلسطين مرَّةً أخرى، ولن يكون لهم دولةٌ أو مُلْك بعد الإفسادين الأوّل والأخير، فقد قضى الله تعالى في أمرهم، فقال: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾، فهما إفسادان لا ثالث لهما: ﴿ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ و﴿ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾.

وممَّا يُؤكِّد عودة اليهود إلى الأرض المباركة فلسطين في محاولةٍ للإفساد من جديد، هو زحفهم مع المسيح الدجَّال مستقبلًا، حيثُ سيكون أكثر أتباعه من اليهود، كما في الأحاديث الصحيحة.

وفي ظنِّي أنَّ هدف الدجَّال ومَن معه من اليهود من زحفهم نحو فلسطين هو محاربة الدولة الإسلامية التي تتخذ من بيت المقدس عاصمةً لها، وبناء دولة لليهود في فلسطين من جديد على أنقاضها، وهو ما تشير إليه الآية: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

ويمكنني أنْ أقف عند معنيين ظاهرين في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾:

المعنى الأوَّل: إنْ عُدتم إلى الإفساد في فلسطين، عُدنا إلى تسليط عباد لنا عليكم.

المعنى الثاني: إنْ عُدتم إلى معاصيكم الأولى، عُدنا إلى العقوبة.

والمعنيان كلاهما سيتحققان في بني إسرائيل، فهم سيعودون إلى معاصيهم الأولى، وسيعودون مع الدَّجَّال ليفسدوا في الأرض المباركة من جديد كما سنُبيِّن فيما يلي.

عودةُ اليَهودِ مَعَ الدَّجَّال:

سيعود اليهود للإفساد من جديد، وسيحاولون السيطرة على فلسطين، وبناء دولةٍ لهم فيها من جديد، لكنّ عودتهم هذه المرّة ستكون مع المسيح الدجَّال، والذي ستكون نهايته على يد نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام الذي سيقتله عند باب (لُدّ) في فلسطين، وستكون نهاية اليهود هي القتلَ والإبادةَ، وهو ما تُبَيّنه الأحاديث التالية:

1. عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي (ﷺ) قال: (يَتبع الدجّالَ من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة [1]) [2].

---

[1] الطَّيلس والطَّالسان والطَّيلسان: (ضَرْبٌ من الأوشحة يُلبَس على الكتف أو يحيط بالبدن، خال عن التفصيل والخياطة، وهو ما يعرف في العامية المصرية بالشال، والجمع طيالس، وطيالسة) المعجم الوسيط، ج2، ص562، وهو لباس يلبسه أحبار اليهود عادة.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (2944).

2. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يخرُج الدجَّال من يَهوديّةِ أصبهان، معه سبعون ألفًا من اليهود عليهم التِّيجان [1]) [2].

خوارق الدجَّال، وخوارق المؤمنين:

والدجّال كما هو معلوم سيكون معه خوارقُ كثيرة، وتصرفاتٌ خارجةٌ عن مألوفات الناس، ولكنَّ الله تعالى لا يترك عباده المؤمنين في فلسطين، ليشعروا بالعجز في مواجهة هذه الخوارق، بل يُهيِّئ لهؤلاء المؤمنين في فلسطين خوارقَ مختلفةً تُقَوِّيهم وتنصرهم، ومن هذه الخوارق:

أولًا: نُطق الجمادات (الحَجَر والشجر وغيرهما):

فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّ الحجر والشجر وغيرهما ممَّا يختبئ اليهود خلفه سَينطِق وقوفًا مع المسلمين، ومؤازرةً لهم، ومنها هذان الحديثان:

1. روى أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي (ﷺ) قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من

[1] والتِّيجان جمع "تاج"، وهو ما يوضع على رءوس الملوك من الذهب والجواهر، وهو الإكليل، المعجم الوسيط، ج1، ص90، والتيجان يلبسها أحبار اليهود على رءوسهم.

[2] مسند الإمام أحمد (224/3)، قال الهيثمي في المجمع (338/7): ورجاله رجال الصحيح.

وراء الشجر والحجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهوديٌّ خَلفي فتعالَ فاقتُله، إلا الغَرقَد فإنَّه شجر اليهود).[1]

2. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): (... وينطلق هاربًا، فيُدركه عند باب لُدٍّ الشرقيّ، فيقتُله، فيَهْزِمُ الله اليهود، فلا يبقى شيءٌ ممَّا خلق الله عزَّ وجلَّ يتواقَى به يهوديٌّ، إلا أنطق الله ذلك الشيء، ولا حجر ولا شجر، ولا حائط، ولا دابَّة، إلا الغرقد، فإنَّها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبدَ الله المسلم، هذا يهوديٌّ فتعالَ اقتُلْهُ).[2]

ثانيًا: نزول عيسى عليه السلام وقتلُه الدجَّال:

إنَّ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو الذي يقتُل المسيح الدجَّال عند باب (لُدٍ)، واللُّد مدينة فلسطينية معروفة، تقع إلى الشمال الغربي من القدس في أواسط فلسطين، ومن أدلَّة ذلك هذان الحديثان:

1. فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: قال خَطَبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أكثر خطبته ما يحدثنا عن الدجَّال إلى أنْ قال: (فيقول عيسى عليه السلام: إنَّ لي فيك ضربةً لن تفوتني بها، فيُدرِكَه عند باب لُدٍّ الشرقي، فيقتُلُه، فلا يبقى شيءٌ مما خلق الله عزّ

[1] أخرجه مسلم في صحيحه: 'كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (2922).

[2] صحيح الجامع الصغير (2/266)، ورقمه (7752)، محمد ناصر الألباني.

وجلّ يتوارى به يهوديٌّ، إلا أنطَق الله ذلك الشيء، لا شجرة، ولا حجر، ولا دابة، إلا قال: يا عبد الله المسلم، هنا يهوديٌّ فاقتُلْهُ، إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق...).[1]

2. وعن مجمع بن جارية رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يقتُلُ ابنُ مريم الدجَّالَ ببابِ لُدٍّ) [2].

فالدجَّال إذنْ سيدخل هو ومَن معه من اليهود إلى فلسطين، وسيكون نُطق الشجر والحجر في زمن القتال مع الدجَّال، وليس قبله، وهذا ما جاء صريحًا كما في هذين الحديثين الصحيحين:

1. عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: (يخرج الدجال في نقصٍ من الناس، وخفَّةٍ في الدِّين، وسُوءِ ذات بَيْنٍ، فيَرِد كلَّ مَنْهل، فتُطوى له الأرض طيَّ فروة الكبش، حتى يأتي المدينة، فيغلب على خارجِها، ويُمنع داخلَها، ثم جبل إيلياء، فيُحاصِر عصابةً من المسلمين، فيقول لهم الذين عليهم: ما تنظرون بهذا الطاغية أنْ تقاتلوه حتى تلحقوا بالله، أو يُفْتَحُ لكم؟ فيأتمرون أنْ يقاتلوه إذا أصبحوا، فيصبحون ومعهم عيسى بن مريم،

---

[1] صحيح الجامع الصغير (2/266)، ورقمه (7752)، محمد ناصر الألباني.

[2] أخرجه الترمذي في باب الفتن، (2244)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (2457).

فيقتُلُ الدجاَّلَ ويُهزَم أصحابُه، حتى إنَّ الشجر والحجر والمَدَر[1]، يقول: يا مؤمن، هذا يهوديٌّ عندي فاقتُلْهُ) [2].

2. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل عليَّ رسول الله (ﷺ) وأنا أبكي، فقال: ما يُبكيك؟ قالتْ: يا رسولَ الله، ذكرتُ الدجَّالَ فبكيْتُ، فقال رسولُ الله (ﷺ): إنْ يخرجِ الدجَّالُ وأنا حيٌّ كفيتُكُمُوه، وإنْ يخرجِ الدجَّالُ بعدي، فإنَّ ربَّكم ليس بأعور، وإنَّه يخرجُ في يهوديَّة أصْبَهان حتّى يأتيَ المدينة، فينزلَ ناحيتَها، ولها يومئذٍ سبعة أبواب، على كل نَقْبٍ منها مَلَكَانِ، فيخرج إليه شرارُ أهلها، حتى يأتي فلسطين بابَ لُد، فينزل عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنةً إمامًا عَدْلًا وحَكَمًا مُقْسطًا)[3].

وممّا سبق أخلُص إلى النتائج التالية:

1. سيعود اليهود إلى فلسطين مع الدجَّال، وسيكون هو قائدَهم، وسيكونون جنودًا وأتباعًا له، في محاولة للإفساد والعلو في فلسطين من جديد.

2. سينزل نبيُّ الله عيسى بن مريم عليه السلام، ويقتُل الدجَّالَ قائدَ اليهود عند باب (لُد) في فلسطين، ممَّا يؤكِّد عودة اليهود إلى فلسطين مرة أخرى، بهدف الإفساد، وبناء المُلْك من جديد.

---

[1] المَدَر: البيوت المبنية من الطين اللزج المتماسك، (المعجم الوسيط، ج2، ص858)

[2] أخرجه الحاكم برقم (8612) وصححه، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم، وقال الألباني: وهو كما قالا.

[3] مسند الإمام أحمد برقم (23907)، صححه الألباني.

3. مقتَلُ الدجَّال عند باب (لُدّ)، ونُطْقُ الحجر والشجر والجمادات وقوفًا مع المؤمنين في فلسطين، ومناداتهم لقتل اليهود، يؤكد أنَّ اليهود لنْ ينجحوا في إفسادهم مرَّة أخرى، وستكون نهايتهم القتل.

4. ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾: فيها إشارة إلى سرعة انتقام الله تعالى من اليهود وقائدهم الدجال، وإبادتهم عن آخرهم، حتى الذين يستترون بالغرقد، فإنّ المسلمين سيلاحقونهم في شجرهم ليقتلوهم.

5. فلسطين المباركة كانت دائمًا قاهرةً للظلم والظالمين على مرّ العصور، وستظل إلى يوم القيامة تردّ العدوان والمعتدين بإذن الله تعالى.

6. خطأ الوعَّاظ والخطباء والمُدرِّسين الذين يخلطون بين زوال دولة (إسرائيل) في وعد الآخرة الحالي، وبين عودة اليهود مع الدجَّال، فإنَّ الشجر والحجر سينطقان فقط في زمن الدجَّال، وبعد نزول عيسى عليه السلام.

والشجرةَ المَلعُونَةَ في القُرآن

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ {الإسراء: 60}.

– ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن؟

– وبأيّة صيغةٍ لُعِنت؟

– ومن الذي لعنَها؟ ولماذا؟

عندما نرجع إلى القرآن الكريم، ونُفتِّش عن شجرة حقيقية تَمَّ لعنُها في القرآن فإننا لا نجد هذه الشجرة، ولكننا عند الرجوع إلى أقوال المفسرين الكرام نجد أنّ كثيرين منهم يرى أنَّ الشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم، التي جاء ذكرها في سياق الحديث عمَّا أعدّ الله تعالى للظالمين في نار جهنم كما في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ {الصافات: 62-65}.

وهذه الأقوال لا تستند إلى دليل تتقوَّى به من الأدلَّة الصحيحة من القرآن الكريم، أو من السنة الصحيحة، أو من اللغة العربية، فليس في الآيات السابقة ما يُشير من قريب أو بعيد إلى أنّ شجرة الزقوم ملعونة، ولم يرِدْ في كلِّ القرآن الكريم لَعْنٌ لها، بل هي من جنود الله تعالى، يُعذِّب

بها الكافرين والمجرمين والظالمين، وحالها كحال النار، والجحيم، والمُهْل، والحميم الغسّاق، وطعام الضّريع، ومقامع الحديد، وسرابيل القطران، وخزنة جهنم من الملائكة، فهي جميعًا آلات عذاب للكافرين، وهي من جنود الله كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ {الفتح: 7}.

وإنَّ شجرة الزقوم لم ترتكب ذنبًا لتُلْعَن به، فاللعن عادةً يكون عقوبة على معصيةٍ أو فعلٍ مُحرَّم، ولا نجد لشجرة الزقوم معصيةً، أو فعلًا مُحرَّمًا، أو ذنبًا يلعنها الله به، وهي مخلوقةٌ لتكون طعامَ الأثيم لأهل النار كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ {الدخان: 43-45}، ولذا فلا نستطيع أنْ نُسَلِّم بلعنها، أو بأنها الشجرةُ الملعونةُ في القرآن.

فما هذه الشجرة الملعونة في القرآن؟

- جاء في تفسير أبي القاسم الكعبي البَلْخي: (والشجرة الملعونة في القرآن يجوز أنْ يكون المُراد بها الكفار).

- وفي تفسير أبي بكر الأصمّ: (الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود).

- وفي زاد المسير لأبي الفرج بن الجوزي يُورِد ثلاثة أقوال في تفسير الشجرة الملعونة، أحدها: (إنّ الشجرة كنايةٌ عن الرجال)..

– وبهذا قال الماوردي في تفسيره (النكت والعيون): (الشجرة الملعونة في القرآن: إنّها اليهود، وإنَّ الشجرة كنايةٌ عن المرأة، والجماعة أولاد المرأة، كالأغصان للشجرة).

وهذه أقوال تستريح لها النفس، فاليهود شجرةٌ ملعونةٌ في القرآن الكريم بصورة صريحة واضحة، إذ يقول الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ {المائدة: 78}.

والناس في حياتهم يستخدمون كلمة: (شجرة) للتعبير عن النسل والتفرُّع، وقد عبَّر القرآن الكريم عن الإسلام بالشجرة الطيبة: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ {إبراهيم: 24}، فلا عجَب أنْ يُعبّر عن اليهود بالشجرة الملعونة.

إنَّ تعبير القرآن الكريم عن هذه الشجرة الملعونة بالرؤيا وليس بالرؤية – لأنّ الرؤية تدل على إبصار الحاضر، بينما الرؤيا تدل على إبصار المستقبل – يدلُّ على أنّ رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم لليهود (الشجرة الملعونة) كان بمثابة كشفٍ غيبيٍ لما سيقترفه اليهود في الأرض المباركة، وما سيقترفونه من الإيذاء والضرر لأمة الإسلام على مدى القرون، وخاصة في أرض الشام، وهو ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن الشام كثيرًا، وعن الأرض المباركة فلسطين، وعن

الأقصى، وبيت المقدس، ويحثُّ المسلمين دائمًا على الصبر والرباط والجهاد، ويشجعهم على الدفاع عن هذه الأرض وعدم التفريط بها، لأنه رأى بعينيه ما ينتظر الأرض المباركة فلسطين من الإفساد والعلو، وما ستجده هذه الأمة المسلمة من أذى اليهود.

وهو نفسه ما نبّهَنا إليه القرآن الكريم في قول الله تعالى عن اليهود: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ {آل عمران: 111}، فالأذى والضرر واقع بكم منهم لا محالة، والمواجهة مع اليهود حتمية ومستمرة، والصراع طويل، ولكن النصر في النهاية سيكون للفئة المؤمنة بإذن الله تعالى.

أوَمَن يُنشَّأ في الحِلْيَة

يقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ {الزخرف: 18}.

جاء في تفسير ابن كثير للآية: (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ):

(المرأة ناقصةٌ يكمُل نقصُها بلبس الحليّ منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَ مَن يكون هكذا يُنسَب إلى الله عز وجل؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمُل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحليّ وما في معناه، ليَجْبُرَ ما فيها من نقص، وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همَّة).

وفي كثير من كتب التفسير نجد كلامًا مشابهًا، حيث يجعلون المُراد في الآية هو المرأة التي تُنَشَّأ في الحِلية والزينة، وأنّها لا حُجّة لها عند الخِصام، وأنّه لا ينبغي أنْ تُنسَب هذه المرأة والأنثى الضعيفة العاجزة الناقصة إلى الله تعالى، مع أنّه لا يجوز أنْ يُنسَب إلى الله تعالى أيّ مخلوق ذكرًا كان أم أنثى.

فهل هذا هو المُراد بقوله تعالى: (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)؟

وهل السياق واللغة يخدمان هذا التوجّه في التفسير؟

وحتى نفهم المُراد بالآية الكريمة لا بدَّ لنا أنْ ننظر إليها من خلال السياق الذي جاءت فيه، سواءً كان هذا السياق سابقًا، أو لاحقًا.

والآية جاءت في السياقات التالية:

1. سياق الإنكار على الكفار الذين يجعلون الملائكة إناثًا، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ {الزخرف: 91}.

2. سياق اتِّهام الكفار لله تعالى بأنّه يتّخذ من الملائكة بناتٍ، تعالى الله عمّا يفترون عُلوًّا كبيرًا، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ {الزخرف: 15-16}.

3. سياق استياء بعض الكفار من إنجاب الإناث، وكظمهم الغيظ في صدورهم، وإقدام البعض على وأد ابنته، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ {الزخرف: 17}.

فالآية من خلال هذه السياقات تتحدث عن الكافر (الرَّجُل) المُنَعَّم الذي إذا رزقه الله بالأنثى ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، وهو في الوقت ذاته يتَّهم الله تعالى بالاتهامات الباطلة كاتخاذه – سبحانه – ممّا يخلُق بناتٍ، كما في قوله تعالى: (أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ) الزخرف: 16).

ومن الناحية اللغوية فإننا نجد أنّ الحديث في الآية: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ {الزخرف: 18} جاء عائدًا على هذا الرجل الكافر الذي يعترض على تبشيره بالأنثى، وليس على المرأة، كما جاء في بعض الأقوال يلي:

فالضمير في قوله تعالى: (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ) يعود على قوله تعالى: (أَحَدُهُم)، في قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ)، وهو رجل مذكَّر، وليس أنثى، ولو أراد الله تعالى الحديث عن المرأة لقال الله تعالى: (أوَمَن تُنَشَّأ في الحِلية).

والضمير في قوله تعالى: (وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ)، ضمير مُذكَّر يعود على نفس الرجل الذي بُشِّر بالأنثى فظلَّ وجهه مُسودًا وهو كظيم، ولو أراد الله تعالى الحديث عن المرأة لقال: (وهي في الخصام).

وممَّا يؤكِّد ما نذهب إليه: أنّ كلمة (الحِلْية) لا يقتصر مدلولها ومعناها في اللسان العربي على ما تتحلَّى به النساء من الذهب

والجواهر، بل إنّ الحِلْية تتعلق أيضًا بالرجل، وتُستعمل للدلالة على صفته، وصورته، وخِلقته، والنِّعمة التي تَرَبَّى ونَشَأ فيها، وهو ما نجده صريحًا في قواميس ومعاجم اللغة على النحو التالي:

(الحِلْية):

جاء في (لسان العرب) لابن منظور: (الحِلْية: الخِلْقة، والحِلْية: الصفة، والصورة).

وجاء أيضًا: الحِلْية: تَحلِيتُكَ وجهَ الرَّجلِ إذا وصَفْتَه).

وجاء في (معجم اللغة العربية المعاصرة) للدكتور أحمد مختار عمر: حِلْية الرجل: صفتُه وخِلْقتُه وصورتُه، ويقال: عرفتُه بحِلْيته: أيْ بهيئته.

وجاء في (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين مخلوف: (أوَمَن يُنَشَّأ في الحِلية) أيْ: يُرَبَّى في الزينة والنِّعمة.

وعلى هذا يكون الكلام في الآية: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ عن الرجل الكافر المستكبر الذي أعطاه الله تعالى الصورة الجميلة، والخِلقة الحسنة، والهيئة القويمة السَّويَّة، وتربَّى ونشأ في النعمة والزينة، لا عن المرأة. {الزخرف: 18}

ويمكننا صياغة ما نفَهم من الآية السابقة على النحو التالي:

الآية تقول للرجل الكافر الذي يستكبر على عطاء الله تعالى، ويفتري عليه بغير علم:

يا مَن تفتري الاتهامات على الله تعالى ظلمًا وعدوانًا، ويا مَن تعترض على تبشيرك بالأنثى، كيف تتجرأ على الله تعالى؟ وكيف تقول

هذه الافتراءات وقد أنشأك الله في (الحِلْيَة) وهي حُسن الخِلقة، والنِّعمة، والصورة الحسنة؟ وفي الوقت نفسه فأنت في وقت الخصام والمُحاجَّة والجدال لا حُجة لك بما تقول على الله تعالى من اتهامات، ولا برهان لك ولا بيّنة لاعتراضك على تبشيرك بالأنثى.

إنّ الآية لا تتحدث عن المرأة، ولا مُسوِّغ لإقحامها في الآية إقحامًا، فقد جاء السياق يذُم الرجل الكافر المُنَعَّم الذي يفتري على الله تعالى الافتراءات، ويعترض على تبشيره بالأنثى، فيظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم، بل ويُقرِّر أحيانًا أنْ يدُسّ ابنته في التراب.

واحْلُل عُقدةً من لساني

يقول الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ {طه: 24-28}.

- ما العُقدة التي يتحدث عنها موسى عليه السلام؟
- هل كان في لسان موسى عليه السلام لَثْغَةٌ، أو رُتَّةٌ، أو شيءٌ يُعيق النطق عنده؟
- لماذا تحدث موسى عليه السلام عن عُقدةٍ في لسانه بعد تكليفه بالذهاب إلى فرعون: (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)؟

إنّ موسى عليه السلام عاش في مصر سنوات طويلة لم يظهر فيها أنّه يعاني من مشكلة في الكلام، أو من (عقدة) في اللسان، ولم يحدث مطلقًا أنّه كان عليه السلام يشكو من عُقدة في لسانه، أو من عيبٍ في النطق عنده، ولو كان هذا موجودًا لعرفناه من دراستنا لحياة موسى عليه السلام قبل تكليف الله تعالى له بالذهاب إلى فرعون.

وموسى عليه السلام عاش خارج مصر في مَدْين مُدةً لا تقل عن عشر سنوات، لم يظهر فيها أنّه كان يعاني من عُقدة في لسانه، بل كان يتكلم مع المرأتين اللتين كانتا تسقيان بطريقة عادية، لم يظهر لنا فيها أنه

كان يعاني من عقدة في لسانه، أو من مشكلة في النطق، وكان أيضًا يتكلم مع الشيخ الكبير – والد زوجته – بكل سلاسة، وبلا أية مشكلات، وكان يدعو ربه سبحانه ويتضرع إليه بلغة ولسان لم يظهر فيه أنه كان يشكو من عقدة أو من أيّ شيء، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {القصص: 23-25}، فهو هنا يتكلم مع الناس بلا مشكلات، وهم يفقهون قوله أيضًا دون أنْ يلحظوا في لسانه عيبًا أو انعقادًا.

أما الرواية التي تتحدث عن أنّ موسى عليه السلام قد أمسك في صغره بجمرة، وحملها إلى لسانه، فحرقته وتسببت في صعوبة الكلام عنده فهي رواية لا أصل لها، ولا يمكن الاعتماد عليها، أو الأخذ بها، فموسى عليه السلام نبيٌّ كريمٌ وجيهٌ يوحي إليه الله، ويكلمه تكليمًا.

وموسى عليه السلام تحدث عن العقدة في لسانه فقط بعد تكليف الله له بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، وهذا يجعلنا نذهب إلى أنّ موسى عليه السلام أحسّ بهذه المشكلة بعد هذا التكليف فقط وذلك لأسباب:

أوَّلاً: ثِقَل المسئولية التي كلّفه الله تعالى بها، حيث إنّ موسى سيذهب إلى فرعون الطاغية الذي يدّعي الألوهية والربوبية، ويستبيح الدماء، ويذبِّح الأبناء، ويستحيي النساء، لذا نجد موسى عليه السلام يقول: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ {الشعراء: 13}، في إشارة إلى صعوبة الموقف الذي سيكون فيه، وهو ما سيجعله ضيّق الصدر متوترًا معقودَ اللسان أمام فرعون.

ثانيًا: خوف موسى عليه السلام من معاقبة فرعون له بالقتل بسبب قتله لرجل من أقباط مصر جعله يشعر بانعقاد لسانه إذا وقف أمام فرعون يخاطبه، وفي هذا يقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ {الشعراء: 14}، فهو إذنْ يحسب حسابًا لملاقاة فرعون، وهذا يجعله خائفًا متوجِّسًا معقود اللسان.

ثالثًا: غياب موسى عليه السلام كلَّ هذه المُدَّة عن مصر جعله ينسى كثيرًا من لغة فرعون وقواعدها، حيث إنّ لغة موسى عليه السلام هي لغة قومه من بني إسرائيل، وهذا من شأنه أنْ يجعل موسى عليه السلام يشعر بانعقاد لسانه، وعدم انطلاقه بلغة الفراعنة التي تركها ما لا يقل عن عشر سنوات، لذا نجد موسى عليه السلام يقول: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ

هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ {القصص: 34}، وهذا يعني أنّ هارون عليه السلام أكثر فصاحة وإتقانًا للغة الفراعنة بحكم بقائه في مصر.

رابعًا: اتّهام فرعون لموسى عليه السلام بأنّه مَهين ولا يكاد يُبين يؤكد أنَّ موسى عليه السلام لم يكن يُتقن التكلم بلغة الفراعنة فعلًا، وهو ما جعل فرعون يعتبر هذا نقطة ضعف عند موسى عليه السلام، فأراد تشويه صورته في عقول الناس وذلك باتهامه بأنه مهينٌ من قوم مستضعفين، وأنه ليس من أقباط مصر أو من عِلْيَة القوم، وفي هذا يقول الله تعالى على لسان فرعون: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ {الزخرف: 52}، وقوله: لا يكاد يُبين، أيْ أنه لا يُحسن التكلم بلغة الناس في مصر، والإبانة عن الأفكار بلغة سليمة ولسان قويم.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ :

استجاب موسى عليه السلام لأمر ربه بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، وفي الوقت نفسه سأل ربه ودعاه أنْ يشرح له صدره، وأنْ يُيَسِّر له أمره، وأنْ يحلُل عُقدةً من لسانه، وأنْ يجعل له وزيرًا من أهله وهو هارون عليه السلام، واستجاب الله تعالى لكل ما سأله موسى عليه السلام، وكان منه أنْ أزال عنه ضِيق صدره، ويَسَّر له أمره، وأذهب عنه انعقاد لسانه إذا وقف أمام فرعون هو وأخوه هارون، وأنه لن يشعر برهبة منه أبدًا، ويكفيه لإبعاد أيّ رهبةٍ عنه أنْ يضْمُمَ إليه جناحه لا غير: وهو

كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ {القصص: 32}، وقد أعلَمَ الله تعالى موسى بهذه الاستجابة فقال: (قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ)، فكان بعد ذلك مطمئنًّا منشرح الصدر غيرَ معقود اللسان.

إنّ موسى عليه السلام نبيٌّ رسولٌ وجيهٌ كاملُ الجسم والعقل، ولا يجوز الانتقاص منه وإيذاؤه كما فعل بنو إسرائيل، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ {الأحزاب: 96}.

بُورك مَن في النار ومَن حَوْلَها

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ {النمل: 8}.

الآية تتحدث عن موسى عليه السلام في بداية تكليف الله تعالى له بالرسالة، وقد قضى الأجل وخرج من مَدين، وفي منطقة جبل الطور، في وحشة الليل آنس من جانب الطور نارًا: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ {النمل: 7}، فطلب من أهله أنْ يمكثوا ويبْقَوا في مكانهم، لعله يأتيهم بجذوة من النار، أو يجد على النار هدى.

ولما جاء موسى عليه السلام النار ناداه الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ {النمل: 8}، وفي هذا النداء تطمينٌ وتقريبٌ وإيناسٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام الذي جاء النار طلبًا للأنس والطمأنينة والاهتداء.

فما المُراد بقوله تعالى: (بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا)؟

تعددت أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، ومن أشهر هذه الأقوال:

1. المُراد بقوله تعالى: (مَن فِي ٱلنَّارِ): أيْ إنّ الذي كان في النار عندما جاءها موسى عليه السلام هو الله تعالى.

2. المُراد بقوله تعالى: (مَن فِي ٱلنَّارِ): أيْ إنّ الذين كانوا في النار عندما جاءها موسى عليه السلام هم الملائكة.

وعند مناقشة هذين القولين نجد أنهما غير مقبولين لما فيهما من المخالفة والخطأ، فالقول الأوَّل يجعل الذات العَليّة (الله تعالى) هو الذي في النار، وهذا قولٌ تقشعرّ منه الأبدان، فالله تعالى ليس كمثله شيء، وهو لا يَحُلُّ في حَيِّزٍ أو مكان كالنار أو غيرها، ونحن لا نُجسّمه، ولا نُشبهُه بشيءٍ سبحانه وتعالى.

والقول بأنّ الله تعالى هو الذي كان في النار، قولٌ يخالف السياق الذي جاءت فيه الآية، وهو إحداث الأُنس والطمأنينة والتقريب لموسى عليه السلام بهذه المباركة، والله تعالى لا يناسب جلالَه وقدسيتَه وعظمتَه أنْ يكون هو المُراد في قوله تعالى: (بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ)، فالله تعالى فاعلٌ في المُباركة، ولا يقع عليه سبحانه فعلُ المُباركة، والذي يناسب قدسيتَه وجلالَه ما قاله الله تعالى عن نفسه: (تبارك)، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ {الملك: 1}.

وأما القول الثاني وهو أنّ الذين كانوا في النار هم الملائكة فهو قولٌ لا يخدمه السياق، فالسياق جاء في مباركة الله تعالى لموسى عليه السلام

وتقريبه وإيناسه: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ {مريم: 52}، ولا مُسوّغ للقول بأنّ الملائكة هم الذين باركهم الله في النار.

والذي أراه أنّ المُراد بقوله تعالى: ﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ {النمل: 8}، هو موسى عليه السلام، وأهله الذين قال لهم: امكثوا، وكانوا قريبين من النار وحولها، وهو ما يدل عليه السياق، ومقتضى الحال.

وقد يتساءل البعض فيقولون: وكيف كان موسى عليه السلام في النار؟

إنّ في اللغة العربية كناياتٍ ومجازاتٍ واستعمالاتٍ يعرفها الناطقون بها، فمثلًا نحن نقول إذا رأينا رجلًا يقف تحت الشمس: إنه يقف في الشمس، أيْ أنه يقف تحت ضَوئها وأشعتها وحرارتها، ولا نقصد طبعًا أنْ نقول: إنه يقف في داخل الشمس من الناحية الحسية والمادية، وهو نفسه ما نفهمه من قول الله تعالى: (بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ)، أيْ أنّ موسى عليه السلام كان في دفء النار، وفي هالة النار، وفي ضوئها، وليس في قلب النار ذاتها، وهو ما جَلَب له الأنس والطمأنينة.

والله تعالى ينادي موسى عليه السلام، ويبدأ كلامه معه بأنّه مبارك من الله تعالى: (بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ)، وأنّه في ضيافة ربه عزّ وجلّ في

هذا الوادي المقدس طوى، وأنه اختيارُ ربه، وأنه نبيُّه ورسولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ {طه: 13}.

والمُراد بقوله تعالى: (وَمَنۡ حَوۡلَهَا): هم أهل موسى عليه السلام الذين قال لهم: (إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا)، فقد كانوا قريبين من النار وحولها، والله تعالى أراد أنْ يُطَمئِن قلب موسى عليه السلام على أهله الذين ينتظرونه كما وعدهم، فقال له: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ {النمل: 8}، أيْ إنك يا موسى وأهلك قد بوركتم من الله تعالى، في هذا الوادي المبارك، فلا خوف عليكم ولا وحشة.

والله تعالى إذ يبارك أهل موسى عليه السلام، فقد بارك أهل إبراهيم عليه السلام من قبل، وهو ما نجده في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ {هود: 73}، وهو نفسه ما أَذِن الله به لأهل محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ {الأحزاب: 33}، ولا يزال المسلمون يدعون لآل إبراهيم عليه السلام، ولآل محمد عليه السلام في صلاتهم: (اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم).

فالذي باركه الله تعالى في ضَوء ودفء النار في الوادي المقدس طوى هو موسى عليه السلام، وبارك أهله الذين كانوا حول النار إكرامًا وإيناسًا له، وهو ما يحتمله السياق، وما تدل عليه اللغة الصحيحة.

فَصُرهُنَّ إليك

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ {البقرة: 260}.

المشهور في تفسير هذه الآية: أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا سأل الله تعالى أنْ يُرِيَه كيف يحيي الموتى، أمَرَه بأنْ يأخذ أربعة من الطير فيذبحهنّ، ويقطعهنّ، ويجعلهنّ خليطًا واحدًا، ثم يجعل على كل جبل منهنّ جزءًا، ثم يدعوهنّ، فإذا دعاهنّ فإنّ الله تعالى سيُعيد خلقهن من جديد، وسيعيد إليهن الأرواح، وسيأتينه سعيًا كما كُنّ قبل الذبح والتقطيع.

فهل قام إبراهيم عليه السلام بذبح الطيور وتقطيعها؟

إنّ هذا القول يتعارض مع المدلول اللغوي لكلماتٍ وردت في الآية الكريمة من ناحية، مثل: (فَصُرهُنّ إليك – جزءًا – ادْعُهنّ)، ومن ناحية أخرى فإنّ إبراهيم عليه السلام يكون فقط قد رأى الطيور وقد أحياها الله تعالى بأمر منه دون رؤية ومعرفة كيفية الإحياء، وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره حيث قال:

(إنّ إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى، أراه الله تعالى مثالًا قرّب به الأمر عليه، والمُراد بصُرهُنَّ إليك: الإمالة والتمرين على الإجابة، أيْ: فَعَوِّدَ الطيور الأربعة أنْ تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك، فاجعل على كل جبل واحدًا حالَ حياته، ثم ادعهنّ يأتينك سعيًا، والغرض منه ذكر مثال محسوس في عَوْد الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة).

وقد أنكر أبو مسلم القول بأنّ المُراد بقوله تعالى: (فَصُرۡهُنَّ) أيْ: (قطِّعْهن)، واحتجَّ على ذلك بوجوه، منها:

1. (أنّ المشهور في اللغة في قوله تعالى: (فَصُرۡهُنَّ) هو (أمِلْهنّ)، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقًا لزيادة بالآية لم يدل الدليل عليها، وهذا لا يجوز.

2. أنه لو كان المُراد بصُرهن قطِّعهن لم يقل: إليك، فإنّ فعل الصَّر لا يتعدى بإلى، وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة.

3. أنّ الضمير في قوله: (ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ) عائد إليها، لا إلى أجزائها.

انتهى كلام أبي مسلم الأصفهاني.

ويمكننا فهمُ ما حدث على النحو التالي:

- (فَصُرۡهُنَّ):

الصَّرُّ: الضَّمُّ والإمَالة، حيث قام إبراهيم عليه السلام بجلب أربعة أنواع من الطير، كما أمره الله تعالى، وقام بإيوائها وضمّها وإمالتها إليه

من خلال رعايتها، وإطعامها، وتدريبها، وتوجيهها، وجعلها تعتمد عليه في حياتها وحاجاتها، وهو ما يحدث مع مربي الصقور والببغاوات والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات، حيث يألفونها وتألفهم، ويدربونها على القيام بحركات وأعمال مختلفة، فتقوم بتنفيذ ما تؤمر به بكفاءة عالية.

- (ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا):

- (ثُمَّ):

قوله تعالى: (ثُمّ) يُشير إلى معنى التراخي، وأنّ الطيور قد بَقِيت تحت التدريب لدى إبراهيم عليه السلام وقتًا كافيًا، قبل أنْ يأمرها بالتوجُّه نحو رءوس الجبال.

- (ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا):

أيْ وجِّه هذه الطيور الأربعة بإشارة منك نحو جبال محددة، وأْمُرْها بأنْ تمكث على هذه الجبال إلى أنْ يأتيها منك إشارة وأمْر بالعودة.

- (جُزْءًا):

أيْ بعضًا من هذه الطيور الحيَّة التي صَرَرْتها إليك، فدَرّبْتها وجعلتها تعتمد عليك وتطيع أمرك، وهو كما في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ {الحجر: 44}، فالجزء بعض الشيء، والمعنى أنّ لكل باب من أبواب النار جزءًا وبعضًا من

الكفار، وأنهم لم يكونوا جسمًا وشيئًا واحدًا، وكذلك فعل إبراهيم عليه السلام مع الطيور، حيث جعل على كل جبل نوعًا من الطيور، وهو ما يشير إلى عدم ذبحهن وتقطيعهن.

- (ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ):

وقوله تعالى: (ثُمَّ) يُشير إلى أنّ الطيور قد مكثت على الجبال وقتًا متراخيًا قبل أنْ يأمرها إبراهيم عليه السلام بالعودة إليه، وعلى الرغم من هذا الوقت المتراخي ظلّت الطيور على الجبال في الفضاء الحُرّ حيث أمرها سيّدُها وصاحبها إبراهيم عليه السلام، ولم يهرب منها طير.

- (ٱدۡعُهُنَّ):

ظلّت الطيور بعيدة فوق الجبال كلّ هذا الوقت تنتظر أمر صاحبها إبراهيم عليه السلام، وما أنْ أشار إليها بالعودة إليه حتى أتَتْ إليه سعيًا في طاعة وانصياع، دون تأخُّر أو مخالفة.

- (يَأۡتِينَكَ):

الاستجابة كانت فورية، والطيور تتوجَّه مسرعةً سعيًا نحو صاحبها وسيدها إبراهيم عليه السلام، لا تعرف جهةً غيره، ولا تُطيع أمرًا من غيره، ليعلم أنّ الله عزيز حكيم.

هل رأى إبراهيم عليه السلام كيف يُحيي الله الموتى؟

لقد صارت هذه الطيور وفيةً لصاحبها، فها هي تعود إليه ساعية مقبلة مطيعة، وقد علمت أنّ إبراهيم عليه السلام هو صاحبها وسيدها، وهو الذي يُطعمها ويسقيها ويرعاها، ويعلمها، فاعتمدت عليه، وعندما أمرها بالابتعاد إلى الجبال ابتعدت، وعندما أمرها بالعودة عادت.

وكأنه انعقد بين إبراهيم عليه السلام وبين الطير عهدٌ وميثاق يلزمه الوفاء..

هذه الصورة من العهد والميثاق نجدها مع الله تعالى في إحيائه للموتى، ولله المثل الأعلى، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ {الروم: 25}، وهي دعوة البعث من القبور يوم القيامة.

فما الذي يحدث؟ ولماذا عندما يخرج الناس من قبورهم يتجهون نحو ربهم كأنهم إلى نصب يوفضون؟

إنّ هؤلاء الناس بينهم وبين ربهم في الأصل عهد وميثاق، وعندما يناديهم ربهم للقيام من القبور يوم القيامة، فإنهم سيقومون إليه مطيعين أمره ساعِين إليه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ {الأعراف: 172}،

والآية تشير إلى أنهم يوم القيامة سيعرفون ربهم، ولن يتحجَّجُوا بالغفلة، وعدم المعرفة.

وفي الحديث الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلًا: قال ألست بربكم قالوا بلى).[1]، فهو عهد قديم، لن يغفل الناس عنه يوم القيامة، فإذا دعاهم الله تعالى دعوة إليه، فسيخرجون ساعِين مطيعين: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ {الجاثية: 15}.

هكذا يستطيع إبراهيم عليه السلام أنْ يرى ويفهم كيفية إحياء الله تعالى للموتى، فالناس يعرفون مولاهم وخالقهم ورازقهم، ويعرفون أنه يملك أمرهم، وأنهم يعودون إليه بأمر منه، وبدعوة منه.

وما فعله إبراهيم عليه السلام مع الطير، كان مثالًا توضيحيًا لعملية إحياء الله تعالى للموتى، حيث يعيد الله تعالى أرواح الناس إلى أجسادهم، ويدعوهم من قبورهم، فإذا هم يخرجون إليه مطيعين أمره: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ {القمر: 8}، مع الفارق طبعًا، فإبراهيم عليه السلام أوّلًا وأخيرًا هو بشر مخلوق، وهو لا يملك أنْ ينزع أرواح الطير، ولا يملك أنْ يردّها، لكنه مثال تعليمي من الله تعالى له عليه السلام.

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 158/4

ولو كان إبراهيم عليه السلام قد قطّع الطيور، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، ثم دعاها ورآها تأتيه وهي تطير من جديد، لما تحققت لديه رؤية كيفية إحياء الموتى، فهو يرى دائمًا عمليات خروج النباتات الحيّة من الأرض الميتة، لكنه لا يرى ولا يعرف كيفية الإحياء، وهو ما كان يشغل تفكيره ويثير الأسئلة في عقله، فكان هذا المثال التوضيحي من الله تعالى تطمينًا لقلبه، واستجابةً لطلبه ودعائه حين قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ {البقرة: 260}.

قَضَى نَحْبَه

يقول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ {الأحزاب: 23}.

المشهور عند الناس أنّ المُراد بقوله تعالى: (فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ) أيْ أنه مات أو استُشهد أو قُتِل، ونجدهم عندما ينشرون في الصحف، أوفي بيانات نعي الأموات والشهداء يبدؤون بقول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ {الأحزاب: 23}، في إشارة منهم إلى حدوث موت أو وفاة، والحقيقة أنّ معنى الآية على غير ذلك.

النَّحْب: النَّحْب هو العهد، والوعد، والنذر.

نقول: قضى الرجل نَحْبه، أيْ: قضى عهده أو نَذْره، أو وعده، ونقول: تناحَب الجيشان للقتال، أيْ تواعد الجيشان للقتال، والعرب لا تقول عن الرجل الذي مات أنه قضى نحبه إلا إذا كان قد قضى وعدًا أو عهدًا أو نذرًا قطعه على نفسه.

ويؤكد هذا المعنى أحاديثُ صحيحةٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سَرَّه أنْ ينظر إلى رجل يمشي على الأرض

وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة)[1]، وهو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وفي هذا الحديث لم يكن طلحة رضي الله عنه قد مات، أو استُشهد، لكنه كان قد قضى عهده ووَفَّى بِنَذْرِه وعزمه على أنْ يقاتل في سبيل الله تعالى صابرًا محتسبًا، فإنه بذل نفسه في سبيل الله، وخاطر بها، حتى لم يبق بينه وبين الهلاك شيء، وهو بذلك قد قضى عهده ولم يُقَصِّر.

وقد صَحَّ عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى طلحة فقال: (هذا ممَّن قضى نحبه).[2]

(1) السلسلة الصحيحة للألباني 125

(2) صحيح ابن ماجة – الألباني 103

فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنسِلون

يقول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ {يس: 51}.

- ما المُراد بالأجداث؟
- وما الفرق بين القبور والأجداث؟
- (القَبْر):

وجَمعُه القبور، وهو حُفرة أو مكان يُوارَى فيه الميت إكرامًا له، نقول: قَبَرَ الميت، أيْ واراه التراب، وأخفى جثمانه تحت التراب.

والقبر فيه معنى الخَفاء، والإخفاء، والسَّتر، والمُواراة، نقول: قَبَرَ الرجل القضية: أيْ أخفاها حتى لا يبقى لها أثر، وقبر الموضوع: سكت عنه نهائيًا حتى لا يبقى له أيّ أثر.

وليس كلُّ مَن يموت يكون قبرُه وسَترُه وإخفاؤه ومواراتُه في حفرة تحت التراب، فهناك أموات لا يُدفنون تحت التراب، وليس لهم قبور معروفة، كما في الهند وبعض البلاد الأخرى، حيث يَحرقون أمواتهم، وتتحول أجسادهم إلى دُخان ورماد.

ومن الناس مَن تأكلهم السباع والوحوش، ولا يُقبَرون في حُفَر تحت التراب، ولا يكون لهم قبر معروف.

ومن الناس مَن يغرقون في البحار، وتأكلهم الأسماك والحيتان، ولا يُدفنون في قبور، ومن الناس مَن تتفجر بهم الطائرات، فتتناثر أشلاؤهم في الفضاء، ولا يُدفنون في قبور.

لكنّ كل هؤلاء الأموات هُم في حالة خَفَاء وإخفاء وسَتر وموارة، وهو معنى القبر، يقول الله تعالى: (ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ) أيْ واراه بعد موته وأخفاه وسَتَرَه، فلا يرى الناس جثته بعد موته، بل تكون في سَتر وغطاء، وهو من إكرام الله تعالى للإنسان.

(ٱلۡأَجۡدَاثِ):

الجَدَث: جاء في القاموس المحيط أنّ الجَدَث والجَدَثة مَضْغُ اللحم.

ومَضْغُ اللحم يُوحي بالتمزيق والتفتيت، وتغيير الأصل وتحويله إلى أجزاء غير متماسكة، وهو ما يحدث لأجساد الأموات بعد خروج الأرواح منها.

والآية: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ {يس: 51}، تشير إلى حالة التحلُّل التي كان فيها الأموات، سواء كانوا في قبور أو حُفَر تم دفنهم فيها، أو كانوا في أماكن غير معروفة، فجزئيات هذه الأجساد في كل الأحوال هي في الأرض، ولم تغادر الأرض: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ {طه: 55}.

فالناس يوم القيامة سيَخرجون من الأجداث سراعًا، أيْ من جزئياتهم المتحلّلة، وهذا الإخراج يكون بطريق الإنبات، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ {نوح: 17-18}، وذلك بعد أنْ يُنزل الله من السماء ماء على الأرض، وعلى أجداث الأموات المتحلّلة، فيَنبُت الناس من أجداثهم كما يَنبُت البقل، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴾ {الزخرف: 11}.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بشكل مفصّل، وشَرَح لنا كيفية خروج الناس من أجداثهم يوم القيامة، وكيف يَجمَع الله تعالى أجسادهم المتحلّلة من جديد من خلال الإنبات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يومًا؟ قال: أبَيْت، قال: أربعون شهرًا؟ قال: أبَيْت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبَيْت، قال: ثم يُنزل الله من السماء ماء فيَنبُتون كما يَنبُت البَقْل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُرَكَّب الخلقُ يوم القيامة)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: أبَيْت، أيْ أنه أَبَى وامتنع عن إخبارهم، إما لكونه لم يُوْحَ إليه بذلك، أو أنّ الله تعالى لم يأذن له بالإخبار.

[1] البخاري 4935

وجاء في حديث آخر يؤكد نفس المعنى فيما يخُصّ عملية الخروج من الأجداث يوم القيامة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلُّ ابنِ آدمَ يأكلُه الترابُ، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ).[1]

والنفختان المذكورتان في الحديث الأوَّل هما:

النفخة الأولى:

وهي نفخة الصَّعْق، وفيها يُصعق كل الأحياء إلا من شاء الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ {الزمر: 68}.

النفخة الثانية:

وهي نفخة الإحياء والبعث، وفيها يَبعث الله تعالى الخلائق للحساب، يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ {الزمر: 68}.

والحديث الشريف يُشير إلى أنّ الأجداث ليست هي القبور، ولا الحُفَر، ولكنها جزئيات البشر المنتشرة في الأرض، والتي منها عَجْب الذَّنَب الذي لا يُرى بالعين المجردة، وهو لا يَبْلى، ولا يتأثر بالحرق أو الغرق أو التحلُّل، وفيه جينات الإنسان، وخارطته الجينية، ومنه يَنبُت

---

[1] مسلم 2955

الإنسان مرة أخرى، وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ {يس: 51}.

فالناس عند النفخة الثانية سيَخرجون إلى ربهم من أجداثهم المتناثرة في كل مكان من الأرض، في الصخور، والرمال، والبحار، والجبال، والصحارى، والقبور المعروفة، وغير المعروفة، وحيثما كان عَجْبُ الذَّنَب يخرج الإنسان ويُبعَث، وهو ما يشير إلى عدم وجود تعارض بين نُسُولُ الأموات من الأجداث كما في قوله تعالى: (فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ)، وبعث الله لهم من القبور كما في قوله تعالى: (وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) الحج: 7)، فالأجداث التي تكون متناثرةً في أماكنَ مختلفةٍ من الأرض هي أعمُّ من القبور المعروفة أو غير المعروفة كما تبيَّن لنا.

ما شاء الله

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ {الكهف: 39}.

هذه الآية جاءت في سورة الكهف على لسان أحد الصاحِبَيْن وهو يحاور صاحبه الذي كفر، كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ {الكهف: 37-39}، فهو يدعو صاحبه إلى أنْ يعود عن هذا الكفر والتنكّر والجحود، وأنْ يعترف بأنّ هذا النعيم الذي يتنعم فيه هو من الله تعالى، وأنّ هاتين الجنتين اللتين تُعجبانه ويتقلَّب فيهما، هما من رزق الله تعالى، وممّا شاء الله تعالى وأراد، لذا كان التذكير له بأنّ عليه أنْ يقول: هذا ما شاءه الله تعالى لي، لا ما شئتُ أنا: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ {الكهف: 39}.

والمُراد بقول الله تعالى: (مَا شَآءَ ٱللَّهُ):

- **ما:** اسم موصول بمعنى الذي.
- **شاء:** أراد وأذِن وقدَّر.

وقول الله تعالى: (مَا شَآءَ ٱللَّهُ) فيه حمدٌ وشكرٌ لله المُنعم، وهو ما كان من سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم الذي وَعَى مُراد الله تعالى على أحسن وَجْه، فكان ممّا يقول كما جاء عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: (اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر)[1].

والمسلم يقول: (مَا شَآءَ ٱللَّهُ) عند كل النِّعَم، يقولها عندما يدخل بيته، وعندما يرى أولاده وذريته، وعندما يرى أمواله، اعترافًا منه بالمنعم، وأنّ هذه البيوت وهذه الذرية وهذه الأموال هي مما شاء وأراد الله، وهي رزق الله تعالى، وليست من قوَّتنا وقدرتنا وعلمنا، والله وحده هو صاحب المشيئة في الرزق.

لقد ظنّ قارون أنه صاحب الرزق، وأنه يرزق نفسه، وأنّ ما عنده من الكنوز والأرزاق كانت بسبب علمه وقوته وقدرته، ولم يقل: ما شاء الله، ولم ينسب الرزق لله تعالى، بل قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، فكانت النتيجة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ {القصص:

[1] صحيح ابن حبان 861

81}، وهو شبيهٌ بما حدث لصاحب الجنتين في سورة الكهف، فقد أهلك الله تعالى جنته:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ {الكهف: 42-43}، ذلك لأنهما لم يقولا: ما شاء الله، ولم يعترفا بأنّ المنعم هو الله تعالى.

عندما نقول: (مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ)، فإنها تنزع من قلوبنا أيَّ تمجيد للبشر، ولا يكون في قلوبنا تمجيدٌ إلا لله تعالى، فإذا رأينا مُلْك الملوك قلنا: ما شاء الله، وإذا رأينا قوة الأقوياء قلنا: ما شاء الله، وإذا رأينا غنى الأغنياء قلنا: ما شاء الله، وإذا رأينا صحة الأصحاء قلنا: ما شاء الله، فنكون دائمًا أقوياء بالله لا بغيره.

ولا علاقة لقولنا: (مَا شَآءَ ٱللَّهُ) بما يظنّه بعض الناس بأنه يُقال للاستعاذة بالله من شرّ الحسد والحاسدين، فالمعنى فيه يدل على التوحيد، والاعتراف بأنّ كل ما نعيش فيه من نعمة هو ممّا شاء الله وأراد، وأنه وحده مَن يستحق الشكر على الرزق والإنعام.

أما التعوّذ بالله تعالى من الحسد، فقد ورد بشأنه أدعيةٌ معروفة، وأشهرها ما جاء في سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ {الفلق: 5}.

وقال قرينُه هذا ما لديَّ عتيد

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ {ق: 23-27}.

القَرين: هو الصّاحب والمُلازِم، ويكون من الإنس، والملائكة، والجنّ، والحيوان وغير ذلك.

والقرين من الفعل: قرن، واقترن، نقول: وكل قرين بالمقارن يقتدي، أيْ كل صاحب وملازم، ونقول: جاء الرجل وقرينته، أيْ زوجته.

وفي الحديث الصحيح أنّ لكل إنسان قرينَين لا ينفكَّان عنه من الملائكة ومن الجنّ، فعن عبد الله بن مسعود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحد إلا وُكّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك؟ قال: وإياي، إلا أنّ الله أعانني عليه فأَسْلَمَ، فلا يأمرني إلا بخير)[1].

---

[1] الألباني، صحيح الجامع 5800.

فالقرين يكون من الملائكة، ويكون من الشياطين، فأما قرين الملائكة فيدعو صاحبه إلى الخير، ويأمره بالتقوى، وأما قرين الشياطين، فيدعو صاحبه إلى الشر، ويأمره بالعدوان.

ولا يملك قرين الملائكة أنْ يُجبِر ابن آدم على فعل الخير، أو ترك فعل الشر، وما يملكه هو الإلهام بالخير، والتثبيت على الحق، والله تعالى يقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ {الكهف: 29}.

ولا يملك قرين الجن أنْ يُجبِر ابن آدم على فعل الشر، أو ترك فعل الخير، وكل ما يملكه الوسوسة لا غير، يقول الله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ {إبراهيم: 22}

وقد صحَّ أيضًا عن عبد الله بن مسعود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ للشيطان لَمَّةً بابن آدم، وللمَلَك لمَّةً، فأما لَمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق، وأما لمَّةُ المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، فمَنْ وجد ذلك فليعلمْ أنه من الله، فليحمد الله، ومَن وجد الأخرى

فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...الآية) [1].

وسورة (ق) تتحدث عن قرينين لابن آدم يوم القيامة:

1. **القرين من الملائكة:** وهو قرينٌ كان في الدنيا يلازم ابن آدم ولا يفارقه، ويكتب كل أقواله وأفعاله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ {ق: 18}، وهو في يوم القيامة يقدّم ما كتب عن ابن آدم لله تعالى ليقضي في أمره، يقول الله تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ {ق: 23}، أيْ: هذا ما كتبته من أقوال وأفعال ابن آدم عتيد وحاضر وجاهز، فيقضي الله تعالى في شأن هذا الإنسان، وفي شأن قرينه من الشياطين الذي كان يشاركه الغواية والضلال، فيقول: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ {ق: 24-27}.

2. **القرين من الشياطين:** وهو قرين كان يلازم ابن آدم في الدنيا ولا يفارقه، وكان لا يتوقف عن الوسوسة بالشر لصاحبه، ويأمره بالإثم والعدوان والفساد والإفساد والغواية، ويدلُّه على الشر، ويبذل معه كل وسيلة لإبعاده عن الحق والخير، وهو يوم القيامة يُنكر أنه كان سببًا في

---

[1] الألباني، صحيح الترمذي 2988.

طغيان صاحبه، يقول الله تعالى عنه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ {ق: 27-29}، وفي الآيات يحاول القرين الشيطان أنْ يتنصل من مسئوليته عن الإغواء والإضلال، والمشاركة في فعل الشر مع ابن آدم، فيكذب ويقول: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ {ق: 27}، لكنّ الله تعالى يزجرهم وينهاهم عن هذا الاختصام في حضرته العليّة فيقول: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ {ق: 28}، فلا استئناف للقضاء، ولا تراجع ولا تغيير للحكم: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ {ق: 29}.

وأنّي فضَّلتُكم على العالمين

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ {البقرة: 47}.

- ما المُراد بقوله تعالى: (فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ)؟
- هل تعني الآية أنّ لبني إسرائيل درجةً أعلى مِنْ غيرهم عند الله؟
- هل تعني أنَّ بني إسرائيل لهم الخيريّة على الناس؟

في الآية ما يُشير إلى تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بما أسبغ عليهم من النعم الكثيرة، وأنّ الله تعالى يدعوهم للتوبة والإنابة والاعتراف بفضل الله عليهم، وليس في الآية ما يشير إلى تكريمهم أو مدحهم والثناء بالخير عليهم.

أما قول الله تعالى: (وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ) فلا تعني أنهم أعلى الناس درجة ومنزلة عند الله، أو أكثرهم قُربًا وخيريّة، فالأمر لا يتجاوز الزيادة في النعم والعطاءات والفُرَص التي تأتي في سياق حكمة الله وإرادته.

والفضْل في اللغة هو الزيادة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان معه فضْل ظهر فليَعُد به على مَن لا ظهر له، ومَنْ كان معه فضْل زاد فليعُد به على من لا زاد

له)[1]، والآية هنا تتحدث عن الزيادة التي منحها الله تعالى لبني إسرائيل، حيث هيَّأ لهم فُرَصًا زائدة، ونعمًا كثيرة لم يمنحها لغيرهم، فهم على سبيل المثال:

1. بنو إسرائيل أكثرُ مَنْ بعث الله فيهم الأنبياء.
2. وهم أكثر الأقوام الذين صبر الله عليهم، ولم يهلكهم بمعاصيهم الكثيرة، واجترائهم على ربهم وأنبيائهم كما أهلك غيرهم من الأمم.
3. وهم الذين نجّاهم الله تعالى مِنْ فرعون، وشقّ لهم طريقًا في البحر يبسًا، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وظللهم بالغمام، وبعثهم من بعد موتهم، ومع ذلك فهُم ظلّوا على استكبارهم ومعاصيهم ولم يشكروا ربهم.

ولا تعني كلمة (فَضَّلۡتُكُمۡ) إلا هذا المعنى من الزيادة والفُرَص والنِّعم والعطاءات، وهي كلمةٌ لا تدل على الخيريّة، فالخيريّة تأتي صفةً لمن يتصفون بالخير عادة، وهي ضدّ الشر، وقد وصف الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الخيريّة فقال: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ {آل عمران: 110}، لكنّه لم يصف بني إسرائيل بهذه الصفة مطلقًا، فهي ليست لهم، وهم لم يتصفوا بها.

وقوله تعالى: (عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ)، لا تعني كلّ البشر، ولكنها تعني الأقوام في زمانهم، والأقوام الذين سبقوهم ممَّن عذبهم الله تعالى وعاقبهم ودمَّر عليهم، مثل قوم نوح وعاد وثمود، ولا تنطبق على مَن جاء بعدهم،

---

[1] صحيح مسلم 1728

وهي تُفهم بحسب السياق الذي جاءت فيه، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ {الأنعام: 86}، فكلمة العالمين في الآية لا تشمل كل البشر أو كل الأنبياء، فالأنبياء المذكورون في الآية ليسوا مفضّلين على أولي العزم من الرسل، ولكنهم مفضّلون على غيرهم من الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ {الإسراء: 55}.

قبلَ أنْ تنفَدَ كلماتُ ربّي

يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ {الكهف: 109}.

وفي ذات السياق يقول الله تعالى: (وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ) {لقمان: 27}.

- ما المُراد بقوله تعالى: (كلمات الله)؟
- هل الكلمات هي الكلام؟

ورد في القرآن الكريم مفردة (كَلِمَٰتُ) ومفردة (كَلَٰمَ)، ومعلوم أنه لا ترادف في القرآن الكريم، ولا يمكن أنْ تقوم مفردةٌ مقامَ مفردة أخرى، فتؤدي نفس المعنى، وتحمل نفس الدلالة، ففي القرآن الكريم كل مفردة لها مدلول خاص بها، وكل حرف له معناه الخاص، وهذا يعني أنه لا يمكن أنْ تكون مفردة: (كَلِمَٰتُ) لها نفس المدلول الذي تدل عليه مفردة: (كَلَٰمَ).

أولاً: (كَلَٰمَ):

جاءت مفردة: (كَلَٰمَ) في القرآن الكريم في سياقات مختلفة كما يلي:

1. للدلالة على القرآن الكريم وآياته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ {التوبة: 6}، فكلام الله في الآية هو القرآن الكريم.

2. للدلالة على كتاب الله (التوراة)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ {البقرة: 75}.

3. للدلالة على كلام الله تعالى المُوَجَّه لكليم الله موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ {الأعراف: 144}.

4. للدلالة على كلام الناس فيما بينهم، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ {مريم: 10}، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ {مريم: 26}.

والملاحظ في السياقات السابقة أنّ كلام الله تعالى يمكن كتابته دون الحاجة إلى بحار من المِداد والحِبر، ولا إلى تحويل أشجار الأرض إلى أقلام نكتب بها، فالقرآن الكريم مكتوب لدينا بقراءاته العشر، وعندنا ملايين النُّسخ من المصاحف في كل بلاد المسلمين، فضلًا عن كتابته وتخزينه ألكترونيًا على الحواسيب، والأجهزة الذكية.

لكننا عند الحديث عن مفردة: (كَلِمَٰتُ)، فإننا نقرأ قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ {الكهف: 109}، وهذا يعني أنّ (كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ) لا يمكن لأحد من البشر أنْ يكتبها بكل أقلام الدنيا، ولو كانت كل بحار الأرض مِدادًا له، فما المُراد بكلمات الله؟

ثانيًا: (كَلِمَٰتُ):

كلمات: جمع مؤنث سالم، ومفردها: كلمة.

وقد جاءت: (كَلِمَةٞ) و(كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ) في سياقات مختلفة على النحو التالي:

1. جاءت بمعنى القدَر المُسْبَق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ {هود: 110}، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ {طه: 129}، والمعنى: فلولا أنّ قَدَرَ الله المُسبق بتأخير القضاء بينهم إلى يوم القيامة لعاقبهم بذنوبهم، ولكنّ الله تعالى يؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ {إبراهيم: 42}.

2. جاءت بمعنى المشيئة والإرادة والقوة والأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام: 115).

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ {الأعراف: 137}.

وكما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ {يونس: 96}

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ {هود: 119}.

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ {التوبة :40}.

وكما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ {النساء: 171}.

4. جاءت بمعنى التكليفات والأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {البقرة: 37}، فآدم عليه السلام بعد أنْ عصى ربه وأكل من الشجرة التي نهاه عن الاقتراب منها، ندم على معصيته، وعَلِم الله تعالى صدقه وندمه، فاجتباه ليتوب: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ {طه: 122}، وكانت توبته عليه السلام بعد أنْ تلقَّى من ربه (كلمات)، والتي هي أعمال وتكليفات عليه أنْ يقوم بها ليقبل الله توبته، وأغلب الظنّ أنّ هذه الأعمال كانت: الدعاء وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، وبناء البيت الحرام مع ما فيه من الجهد في حمل الحجارة والحَفْر، ثم الطواف به والصلاة فيه، والنحر من الأنعام تقرُّبًا لله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ {آل عمران: 96}.

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ {البقرة: 124}، وفي الآية إشارة إلى ابتلاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، وتكليفه بأعمال عليه أنْ يقوم بها على أتمّ وجه، وأغلب الظنّ أنّ هذه التكليفات والابتلاءات تمثلت في:

أ. أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنْ يأخذ زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة، ويتركهما وحيدين عند البيت الحرام في وادٍ غير ذي زرع: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ {إبراهيم: 37}

ب. أراه الله تعالى في منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام، ورؤيا الأنبياء حق ووحي، وقد استجاب لأمر ربه وأطاع: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ {الصافات: 103-107}.

ت. أمره الله تعالى بأنْ يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل عليهما السلام، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ {البقرة: 127}.

ث. أمره الله تعالى بالأذان في الناس بالحج: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ {الحج: 27}.

ج. تطهير بيت الله تعالى للطائفين والقائمين والركع السجود: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ {الحج: 26}.

ح. أداء مناسك الحج:﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {البقرة: 128}.

وقد قام إبراهيم عليه السلام بكل هذه (الكلمات) على أتمّ وجه: (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ).

ومن خلال هذه السياقات في كتاب الله تعالى، فإنه يتبين لنا أنّ (الكلام) غير (الكلمات)، فكلام الله تعالى يُكتب بلا مشقة، ولكنّ كلمات

الله لا يكفي لكتابتها كل أقلام الأرض، ولو كانت كل البحار مِدادًا فستنفد وتنتهي قبل أنْ تنفد كلمات الله.

إنّ كلماتِ اللهِ أكبرُ ممّا تتخيله عقولنا، فهي كل مشيئات الله تعالى، وكل إراداته، وكل قضائه وقَدَره، وكل أمره، وكل خَلقِه، وكل عِلمه، وكل قدرته، وكل قوته، وكل مساحات ومعاني وأسرار أسمائه الحسنى، ما نعلمه منها وما لا نعلمه.

إننا لو أردنا أنْ نكتب عن كلمات الله تعالى المستنبطة من اسم واحد من أسماء الله الحسنى، فلنْ تكفينا كل بحار الأرض مِدادًا، ولنأخذ مثلاً اسم الله (العليم)، فماذا عسانا أنْ نكتب عن مساحة عِلم الله تعالى اللا متناهية: ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ {الأنعام: 80}؟

وماذا يمكننا أنْ نكتب عن كلمات الله المستنبطة من اسم الله (القويّ)؟ وهل يمكننا أنْ ندرك أو نعرف حدود وحجم هذه الكلمات؟ فأيّ بحارٍ هذه التي يمكن أنْ تُحصي قوة خالقها: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ {هود: 66}؟

ولو أنّنا جئنا بقطرة ماء واحدة من البحر، وجعلناها حِبرًا لنكتب بها عن قطرة ماء واحدة من البحر، لما كَفَت لتكتب عن كل ما في القطرة من أكسجين وهيدروجين وذرات وأملاح مختلفة...، فكيف بهذا الكون

ومكوناته التي لا تحصى، وهو خَلْق من خَلْق الله تعالى، وكلمةٌ من كلمات الله تعالى؟!

وقد عَلِم النبي صلى الله عليه وسلم المُراد بكلمات الله تعالى، فكان يدعو الله بها، ويعلمنا أنْ ندعو بها، وفي الحديث الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذا الدعاء: (أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأنْ يحضرون)[1].

وصحّ عن عبد الله بن خنبش رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أتاني جبريل فقال: يا محمد، قلْ، قلت: وما أقول؟ قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، من شرّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شرّ ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرُج فيها، ومن شرّ ما ذرأ في الأرض وبرَأ، ومن شرّ ما يعرُج منها، ومن شرّ فتن الليل والنهار، ومن شرّ كل طارقٍ يطرُق، إلا طارقًا يطرُق بخير يا رحمن)[2].

إننا عندما نعوذ بكلمات الله ممّا نجد ونحاذر، فإنما نعوذ بقدرة الله تعالى وقوته وقدوسيته وعظمته وعلمه وقيوميته وجلاله، وبكل أسرار أسمائه الحسنى التي لن نحصيها، ولن نستطيع أنْ نكتبها بكل أقلام الأرض، حتى وإنْ كانت كل البحار لنا مدادًا.

---

[1] صحيح مسلم 4/ 1772.

[2] صحيح الجامع / الألباني 74

يتَخبَّطُه الشيطانُ من المَسّ

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ {البقرة: 275}.

الآية السابقة تنفِّر من الرِّبا، وتصف حال مرتكبي هذه الكبيرة بأنهم: (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)، وهي صورة تدل على بشاعة حال آكلي الرّبا يوم القيامة، حيث يكونون مضطربين حائرين متخبطِّين، لا يعرفون طريقهم، ولا يهتدون سبيلًا.

وقد التبس على كثير من الناس فَهْمُ قول الله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)، فابتعدوا عن السياق الذي جاءت فيه الآية، وهو التنفير من الرِّبا، وتقبيح صورته.

فما المُراد بقوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)؟

- (يَتَخَبَّطُهُ):

التخبُّط في السير: السير على غير هدى، نقول: يتخبط في سيره: يسير يمينًا وشمالًا في حَيرة واضطراب.

ونقول: فلان يخبط خبط عشواء: أي: يأتي ما يأتي بجهالة وبغير تبصُّر.

- (ٱلشَّيۡطَٰنُ):

من الفعل شَطَن، أيْ: ضلّ وتاه وابتعد وزاغ، فهو شيطان، أيْ مملوء بالزيغ والضَّلال، ونقول: أَشْطَنَ الرجلُ فَرَسَه، أيْ: أبعَدَها عنه.

والشيطان يكون من الإنس والجنّ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ {الأنعام: 112}، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ {الناس: 5-6}.

وشيطان الإنس أخطر وأكثر شرًّا من شيطان الجنّ، لأنه من الناس ويعيش مع الناس، ويتكلم لُغتَهم ويتطبَّع بأطباعهم، ويدعو للشرّ والفساد في ثوب الصديق أو الجار أو القريب أو ابن البلد، والناس يرونه منهم ومثلهم، وهم لا يعرفون حقيقته.

- (مِنَ): حرف جر يأتي على وجوه: منها:

1. الابتداء: نحو قولنا: (مرض من يوم الجمعة)، (وسار من مكة)، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ).

2. التبعيض: ويمكن أنْ يُذكر مكانها كلمة (بعض)، مثل: (مِنهم مَن أحسن ومِنهم مَن أساء)، وفي التنزيل الحكيم: ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ {آل عمران: 96}، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ).

3. للبيان: فيكون ما بعدها بيانًا لشيء مُبهم قبلها، وغالبًا تقع بعد ما ومهما، مثل: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ ﴾ و﴿ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ ﴾، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ).

4. التعليل: نحو قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ {نوح: 52}، وهي هنا استعملت كما في الآية موضوع بحثنا: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)، كما سنُبيّن لاحقًا.

5. البدل: نحو: ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَة ﴾ {التوبة: 38}، أيْ بدلًا من الآخرة، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ).

6. الفصل والتمييز: وهي الداخلة على ثاني المتضادين، نحو: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ {البقرة: 220}، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾.

7. توكيد العموم: ويُشترط أنْ يتقدمها نفي أو نهي أو استفهام بهل، وأنْ يليها نكرة، نحو: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ {التوبة :91}، وهي ليست المستعملة في قوله تعالى: ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾.

وفي قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ) فإنّ: (مِن) جاءت بمعنى التعليل، أيْ أنّ تخبط الشيطان لآكل الربا يحدث بسبب ما عند آكل الرِّبا من المَسّ (الجنون)، ولا يستقيم أنْ يكون لـ (مِن) في الآية الكريمة معنى غير التعليل.

- (ٱلۡمَسِّ):

المَسُّ هو الجُنون، وفي جميع المعاجم العربية فإنّ كلمة (المَسّ) عندما تأتي مُطلقَةً من غير صفة أو إضافة أو تصريف، فهي بمعنى الجُنون والخَبَل وغياب العقل.

وفي قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)، فإنّ كلمة (المَسّ) جاءت مُطلَقةً غيرَ مُضافة أو موصوفة، أو بصيغة من صيغ الفعل، وجاءت مُعَرَّفة بأل، لتدلَّ على المعنى المألوف الذي يعرفه العرب وهو الجنون.

وتخبُّطُ الشيطان لآكلي الرِّبا في الآية قد جاء بسبب ما عندهم من الجنون وعدم التفكير، حيث لا يستطيعون التفريق بين البيع والرِّبا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ {البقرة: 275}، فالجنون موجود عندهم قبل تخبُّط الشيطان لهم، وتخبُّط الشيطان لهم جاء نتيجة لجنونهم، وضعف عقولهم، وضحالة تفكيرهم.

فالشيطان ليس سببًا في جنونهم، ولكنه لمَّا رآهم مجانين يقولون: (إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ)، استغلّ ما عندهم من الجنون وضعف العقول، وأخذ يتخبَّطهم ويوجِّهُهم لمزيد من المعاصي وأكل الربا الحرام.

وفي قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ) فإنّ المَسِ المذكور في الآية كان قبل تخبُّط الشيطان، بل كان سببًا فيه، وإنّ

التخبُّط من الناحية الزمانية قد حدث بعد المَسّ ونتيجة له، والمعنى: إنّ الشيطان يتخبَّطه ويوجِّهه كما يريد، بسبب ما عنده من المَسّ والجنون.

والناس في حياتهم اليومية يستخدمون مثل هذا الأسلوب إذا أرادوا وصف زوج ينصاع لزوجته في كل شيء، فيقولون: (زوجته تلعب به يمينًا وشمالًا من جنونه)، أيْ بسبب جنونه وضعف عقله.

ويقولون: (مات الطفل من الحُمَّى)، إذا أردوا القول: إنَّ الحُمَّى سبب موته، و(سقط الرجل من التعب) إذا أرادوا القول: إنَّ التعب سبب سقوطه.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تبيّن أنّ بعض الأفعال تكون سببًا في أفعال أخرى، وأنّ أفعالًا تكون نتيجة لأفعال أخرى، ومنها:

1. قول الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ {يوسف: 84}، فالحزن عند يعقوب عليه السلام سَبَقَ ابيضاض العين وتسبَّب فيه، وهو مثل قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ).

2. قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ {آل عمران: 119}، فغيظ المنافقين على المؤمنين قد سبق عضَّهم لأناملهم، وكان سببًا فيه، وهو مثل قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ).

3. قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ ﴾ {القصص: 32}، فشعور موسى عليه السلام بالرَّهْب والخوف سَبَق ضَمَّه لذراعيه وسببٌ فيه، وهو مثل قوله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ).

4. قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾ {الأنعام: 151}، فالإملاق وهو الفقر يسبق قتل بعض الكافرين لأولادهم، وهو سبب في القتل عندهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾.

والشيطان يتخبّط مِن الناس مَن كان في إيمانه ضعف، ومَنْ لا يستخدم عقله، فيوجِّهه أينما أراد، وكيفما أراد، ويجعله على غير هدى، فيعيش في الدنيا يتنقل بين المعاصي بشكل عشوائي، ويكون في الآخرة من أهل النار.

لكنّه لا يتخبّط المؤمنَ العاقل، ولا يسيطر عليه، فهو برغم ما يجد من وساوسه وإغوائه، إلا أنه لا ينصاع له ولا يطاوعه، فيعيش في الدنيا قويًّا سعيدًا بإيمانه، وفي الآخرة هو من أهل الجنة.

ولا يملك الشيطان مع ابن آدم غير الوسوسة، وهو لا يستطيع إجبار أحد على فعل معصية، أو ترك طاعة، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ

فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ {إبراهيم: 22}، فهو لا يملك إلا الوسوسة، بل ها هو يتبرأ من أتباعه، ويتخلّى عنهم.

وفي آية أخرى نجد أنّ الذين يتبعونه قد اتبعوه من تلقاء أنفسهم، لضعفهم وانخداعهم به، وعدم استخدام عقولهم، فجعلوه سيِّدًا لهم، وسلطانًا عليهم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ {النحل: 99-100}، فلا سلطان له على المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم، لأنهم يقاومونه، فينتصرون على وساوسه.

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة)[1]، فالشيطان لا يملك إلا الوسوسة، وكيده مع ابن آدم لا يتجاوز الوسوسة.

---

[1] صحيح أبي داود/ الألباني 5112

وبالرغم من هذه النصوص الواضحة التي تؤكد على أنّ الشيطان لا يملك في حربه مع ابن آدم إلا الوسوسة، فإنه لا يزال بعض المسلمين الذين خلقهم الله أحرارًا، يحاولون أنْ يقنعوا أنفسهم بأنهم أَسْرَى للشيطان، وأنهم لا يستطيعون الهروب منه، أو إبعاده، ظانّين بأنه يَسكُنهم، ويتحكم في تصرفاتهم وأفعالهم واختياراتهم، ويستشهدون بحديث صحيح لم يفهموا مُراد رسول الله عليه الصلاة والسلام منه.

والحديث: عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفًا فأتيته أزوره ليلًا، فحدّثتُه ثم قمتُ فانقلبتُ، فقام معي ليقلبني، - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: إنَّ الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم، وإنِّي خشيت أنْ يقذف في قلوبكما سوءًا، أو قال: شيئا)[1].

والحديث لا يُشير مطلقًا إلى ما فهمه البعض من أنّ الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم بالمعنى الحِسِّي، وإلّا فكلّ بني آدم تجري الشياطين في دمائهم، وتسكن أجسادهم، وهذا ما لا يُفهَم من الحديث، بل إنّ هذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم، وهو أنّ الشيطان لا يملك غير الوسوسة كما أسلفنا.

---

[1] صحيح البخاري 3281

وقوله عليه السلام: (إنّ الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم) هو كناية عن ملازمة الشيطان للإنسان، وعدم مفارقته له، ويدلُّ على هذا ما قاله النبي عليه السلام للرجلين في نفس الحديث: (خشيت أنْ يقذف في قلوبكما سوءًا)، أيْ خشيت أنْ يوسوس لكما الشيطان بالسوء.

ونحن نستخدم في بعض الأحيان نفس التعبير الذي استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم، فنقول: (إنّ فلسطين تجري في دمائنا مجرى الدم)، أو: (إنّ القدس في عروقي وقلبي)، فهل يفهم أحدٌ من العبارة أنّ فلسطين تجري في دمائنا حسِّيا؟ أم أنّ المعنى هو: إننا نحب فلسطين، وإنّ قلوبنا تتعلق بها ولا ننساها؟

إنّ قول الله تعالى: (يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ)، يُشير إلى أنّ الشيطان له مهمة لا يتوقف عنها، وهي إغواء الإنسان وإضلاله، وهو يبحث عن أيّ وسيلة لتحقيق مهمته، ومنها: أنه يتلاعب بأصحاب العقول الصغيرة، والقلوب المضطربة، فيوجهها كيفما وحيثما أراد بعيدًا عن الله تعالى، لكنه لا علاقة له بالتسبب في المَسّ والجنون لدى أتباعه، فهو لا يملك غير الوسوسة.

أخرَجْنا لهم دابَّة من الأرض تُكلِّمهم

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ {النمل: 82}.

الآية تتحدث عن أمرٍ سيحدُث بين يَدَي الساعة بشكل مباشر، وهو خروج دابّةٍ من الأرض تُكلِّم الناس الذين ظلّوا على كفرهم لا يُوقنون بآيات الله تعالى، ويبدو أنّ خروج هذه الدابّة سيكون من أوائل العلامات التي تسبق أحداث الساعة الكبرى، حيث تَنشَقّ السماء، وتُكَوَّر الشمس، وتَنكَدِر النجوم، وتُنسَف الجبال، وتُسَجَّر البحار، وغير ذلك من الأهوال والأحداث التي تُعلِن نهاية الحياة الدنيا.

والنبي صلى الله عليه وسلم يبيّن لنا أنّ خروج الدابّة سيكون قريبًا ومتزامنًا مع طلوع الشمس من مغربها، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أوَّل الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها)[1] وهما آيتان متتاليتان تحدُثان قبل أحداث الساعة مباشرة، إيذانًا بإغلاق باب التوبة، ووقوع القول على الظالمين: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ {النمل: 85}.

(1) صحيح مسلم 2941

لكنّ هناك أشراطًا سيراها الناس قبل هذه الآيات، منها:

1. ظهور الأعور الدجال.

2. نزول عيسى عليه السلام من السماء إلى الأرض المقدسة، وقتله للأعور الدجال بباب لُدٍّ بفلسطين.

3. خروج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَب ينسلون.

فإذا حدثت هذه الأشراط، فكل ما بعدها سيكون آياتٍ من آيات الساعة، والتي سيكون أوَّلَها طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة.

فما هذه الدابّة؟ وكيف ستُكلِّم الناس؟

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ {النمل: 82}، وفي الآية إشارات ودلالات تُعيننا على فَهْم المُراد بهذه الدابّة التي تكلم الناس، ومنها:

أوَّلًا: قول الله تعالى: (وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ):

يُشير إلى أنّ هذا (القولَ) هو عذابٌ وعقابٌ من الله تعالى، وأنه (وَقَعَ) أيْ نَزَل وثَبَت وحَقَّ وأصاب، وكلمة: (عَلَيۡهِمۡ) تدل على عُلُوِّ هذا العقاب والعذاب الذي يقع على الكافرين المكذبين بآيات الله تعالى، فلا يجدون منه مهربًا، ولا يملكون له رَدًّا، وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ {النمل: 85}.

ثانيًا: قول الله تعالى: (أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ):

يدلّ على أنّ هذه الدابّة كانت موجودةً في الأرض قبل أنْ يُخرِجَها الله تعالى، وأنّها لم تكن ظاهرة قبل إخراجها، ولم تكن معروفة ومرئية للناس، ومن الأمثلة على ما يخرج من الأرض: الماء، والزرع، والبترول، والمعادن، ودابّة الأرض.

ثالثًا: قول الله تعالى: (دَآبَّةٗ):

والدابّة كلّ مَن مشى مَشيًا رُويدًا، وكلّ مَن كثر شعرُه أو وَبَرُه من الإنسان والحيوان، وكلّ ما له دبيب على الأرض، سواء كان هذا الدبيب مسموعًا أو غير مسموع، وينطبق هذا على الإنسان، والحيوان، والحشرات، والميكروبات من البكتيريا، والفايروسات وغيرها من الجراثيم والكائنات.

رابعًا: قول الله تعالى: (دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ):

يُشير إلى أنّ هذه الدابة هي من الأرض، ولم تنزل من السماء، بل هي مما يعيش في الأرض كالحشرات والدُّود والجراثيم ونحو ذلك، ومثال ذلك: ما جاء في الآية: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ {سبأ: 14}، فالدابّة التي شرَعت بالاقتراب والأكل من مِنسأة سليمان عليه السلام، كانت من دوابِّ الأرض التي تحيَا وتعيش في الأرض، ولم تكن مما يعيش على الأرض كالأنعام.

خامسًا: قول الله تعالى: (تُكَلِّمُهُمۡ):

المشهور في تفسير هذه الآية أنّ الدابّة التي سيُخرجها الله تعالى من الأرض، ستقوم بمخاطبة الناس والكلام معهم.

وهو أمرٌ مُستَبعَدٌ من عدّة وجوه:

الوجه الأول:

أنّ كلمة: (تُكَلِّمُهُمۡ) جاءت في سياق وقوع القول بعذاب وعقاب الله تعالى على الكافرين الذين لا يُوقنون بآيات الله، فهل من العقاب أنْ تقوم دابّةٌ بالكلام معهم، خاصّة أنّ الآية لم تُشِر إلى حدوث ما يؤذي الكافرين بسبب تكليم الدابّة.

الوجه الثاني:

أنّ الكلام الذي ستُكَلِّم به الدابّةُ الكافرين هو: (أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)، فتكليمها سيكون إخبارًا لهم بأنّ الناس كانوا لا يُوقنون بآيات الله تعالى، فهل سيُوقِن الذين وقع القول عليهم إذا سمعوه من الدابّة؟

الوجه الثالث:

إنّ خروج الدابّة من الأرض سيكون من أواخر الأحداث التي ستحدث على الأرض قبيل أحداث الساعة، وسيكون هذا الخروج للدابّة بعد طلوع الشمس من مغربها مباشرة، ومعلوم أنّه لا تُقبل التوبة من الناس إذا طلعت الشمس من مغربها، فلا فائدة من كلام الدابّة مع الناس

عن آيات الله تعالى، ودعوتهم ليُوقنوا بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها، ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[1].

سادسًا: قول الله تعالى: (أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ):

وهو يُشير إلى أنّ تكليم الدابّة لهم كان عذابًا وعقابًا من الله تعالى، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ {التوبة :66}، فالتعبير: (بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ)، يشبه التعبير: (أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)، وفي المَوقعين كان عقابًا وعذابًا.

فما المُراد بقوله تعالى: (تُكَلِّمُهُمْ)؟

جاء التعبير في الآية بقوله تعالى: (تُكَلِّمُهُمْ)، وليس تتكلم معهم، وهذا يعني إمكانية أنْ يكون معنى التكليم هو (التجريح)، وهذا مستعمل في اللغة العربية:

والفعل: كَلَمَ: أيْ جَرَح، فهو مَكْلُوم، وكَلَّمَ أيْ جَرَّحَ، والكَلْم: الجَرْح والجُرْح.

---

[1] صحيح الجامع/ الألباني 7412

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما مِن مكلومٍ يُكْلَمُ في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُهُ يَدْمَى، اللونُ لونُ الدّم، والرِّيحُ ريحُ المِسك)[1]، وهو ما يشير إلى احتمالية أنْ يكون معنى كلمة: (تُكَلِّمُهُمْ) أيْ تُجَرِحَهم..

وبحسب السياق الذي جاءت فيه كلمة: (تُكَلِّمُهُمْ)، واستنادًا إلى المدلول اللغوي لها، والمُعطَيات التي أوردناها، فإنّ إخراج الله تعالى لدابّةٍ من الأرض تُكَلِّم الناس، كان عقابًا وعذابًا لهم، وأنّ أغلب الظنَّ أنْ يكون المُراد بقوله تعالى: (تُكَلِّمُهُمْ)، هو: (تُجَرِّحهم).

ولا شَكَّ أنّ التَّكْلِيم المذكور في الآية الكريمة قد جاء في سياق الحديث عن عذابٍ وعقابٍ للذين لا يُوقنون بآيات الله، ولا ندري كيف سيكون هذا التجريح للناس، ولكننا قد رأينا كيف تفعل بعض الحشرات والجراثيم بالمرضى المصابين بأمراض جلدية، فيضطرون إلى حَكِّ جلودهم بقوة، فتتجرَّح أجسادهم، وتتقرَّح جلودهم في بعض الأحيان، فلا يجدون دواء يتداوَوْن به، إلى أنْ ينتهي بهم الأمر إلى الموت.

وقد يكون سبب هذه الأمراض الجلدية بعض حشرات الأرض التي تنتقل إلى الإنسان بطرق وأسباب مختلفة، كالقُمَّل، والبراغيث، والبَقّ، والنَّغَف، وغير ذلك ممّا لا نعلمه، وما لا يُرى بالعين المجردة، فيتسبب

[1] صحيح البخاري 5533

في بعض الأمراض كالجَدَري والأكْزِيما والجُذَام والجَرَب والبُهَاق والصَّدَفِيَّة ... وغير ذلك.

وقد يكون هذا التَّجريح داخليًا في جسم الإنسان، بسبب بعض البكتيريا أو الفايروسات التي تستوطن بعض الأماكن في الجسم، فتُجَرِّحها وتُسبِّب لها الالتهابات الشديدة والتَّلَف، وهو ما يحدث للجهاز التنفسي وخلايا الرئة والشُعَب الهوائية، والحنجرة والقصبة الهوائية، وكذلك ما يحدث للجهاز الهضمي، والقُرحات المختلفة، والنزلات المعوية الخطيرة، وأكثر ما يكون هذا التجريح وهذه الالتهابات عند انتشار الأوبئة، كالطاعون، والكوليرا، والملاريا، والتوفيد، والسُّل، والحَصْبَة، وكوفيد 19 (كورونا)، وغير ذلك من الأمراض والأوبئة القاتلة.

ولا أستبعد أنْ تكون الدابّة التي يُخرِجها الله تعالى من الأرض وباءً كبيرًا وخطيرًا ينتشر في الناس بسرعة، فيُهلِكُهم، ولا يملكون له حلًا أو علاجًا، فيموتون، ثم تكون أحداثُ الساعة.

وأغلب الظنّ عندي أنّ هذه الدابّة التي سيُخرجها الله تعالى من الأرض في آخر الزمان ستكون وباءً قاتلًا وسريع الانتشار، للقضاء على قوم يأجوج ومأجوج الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ولا يؤمنون بنبوة عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء، في حينٍ يؤمن به كل أهل الكتاب: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ {النساء: 159}، بل يظلّون على كفرهم، ويأتون

من كل حَدَب ينسلون إلى فلسطين، ليحاربوا نبيَّ الله عيسى عليه السلام ومَن معه من المؤمنين، وهو كما في قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ {الأنبياء: 96-97}.

وهو ما نجده أيضًا في الحديث الصحيح، حيث يُرسِل الله تعالى النَّغَفَ في رقاب يأجوج ومأجوج، والذي يمكن أنْ يكون هو الدابّة التي يخرجها الله من الأرض تُكلِّمهم، وتحملُ الوباءَ لهم في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى كَمَوتِ نفسٍ واحدة، أيْ: قتلى، يموتون موتًا جماعيًا كلّهم كَمَوت نفس واحدة، فلا يأتي عليهم الصباح إلا وقد ماتوا.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ علَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيَقولونَ: لقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حتَّى يَكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِن مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليومَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ اللَّهُ عليهمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ

عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلى اللهِ، فيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ...)[1]

و(النَّغَفُ) المذكور في الحديث الشريف هو دُودٌ يُسَلِّطُه الله تعالى على رقاب يأجوج ومأجوج فيكون سببًا في هلاكهم، وهو دابةٌ من الدوابِّ التي تعيش في باطن الأرض، وتتغذَّى على ما فيها من رزق.

وقد جاء في معاجم اللغة المختلفة ما يلي:

والنَّغَفُ: دُودٌ يكون في بطون الأرض، يقوم بتقطيع جذور الأشجار والزروع ليتغذى عليها، ويتسلَّط على الإبل والغنم فيكون في أنوفها، وهو أيضًا دُودٌ ينسلخ عن الخَنافس، ويكون في النَّوَى.

وهذه المدلولات والمعاني لكلمة: (النَّغَف) تتوافق مع ما جاء في قوله تعالى: (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) فالدابَّة التي تتحدث عنها الآية الكريمة يُخرجها الله تعالى من باطن الأرض، ما يجعل الاحتمال قويًّا أنْ يكون نَغَفُ الأرض هو هذه الدابَة التي ستُكَلِّم وتُجَرِّح الناس في آخر الزمان بين يَدَي الساعة بظلمهم وعدوانهم، وهم يأجوج ومأجوج، مع ما تحمله من أنواع الأوبئة القاتلة.

([1]) صحيح مسلم 2937

ولقدْ هَمّتْ بِهِ وهَمّ بِها

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ {يوسف: 24}.

المشهور في تفسير هذه الآية أنّ امرأة العزيز قد همّت بفعل الفاحشة مع يوسف عليه السلام، وأنّه عليه السلام همَّ بالفعل نفسه معها لولا أنْ رأى برهان ربه، فامتنع، وصرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء.

وبحسب التفسير السابق فإنّ امرأة العزيز قد نجحت في مراودتها ليوسف عليه السلام، وأنّه قد استجاب لهذه المُراودة، وتفاعل مع همِّ امرأة العزيز بفعل الفاحشة معه، لولا أنْ حفظه الله تعالى فأراه برهانه، وصرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلَصين.

فهل حدث هذا فعلًا؟

وهل كان الهَمُّ المذكور في الآية الكريمة هَمًّا بالفاحشة؟

يقول الله تعالى في الآية التي سبقت هذه الآية: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ {يوسف: 23}، فقد هيَّأت امرأة العزيز نفسها لفعل الفاحشة، وفعلت كل ما بوسعها

كامرأة من أجل أنْ تجذب اهتمام يوسف عليه السلام إليها، وغلّقت الأبواب، وعَرَضت نفسها عليه طالبةً لا مطلوبة، فما كان من يوسف عليه السلام إلا أنْ قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ {يوسف: 23}.

هذا هو الذي حدث بلا زيادة أو نقصان، وموقف يوسف عليه السلام فيه واضح، وهو أنّه صَدَّها، واستنكر طلبها، واستعاذ بالله ممّا تعرِض عليه، ومن أنْ يفعل هذا، أو يرضى عنه، فقال: (مَعَاذَ ٱللَّهِ)، وتذَكَّر إنعام ربّه عليه، الذي آواه وأحسن مثواه، وأنه من الظلم أنْ يعصي العبد ربّه، وأنّ مَن يفعل هذا فلا فلاح له ولا نجاح: (إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، وهو عليه السلام في الوقت الذي يرفض فيه مُراودتها له عن نفسه، ومحاولاتها لإغوائه، فإنه يَعِظُها وينصحها بأنْ تتقي الله ولا تكون من الظالمين.

وبهذا يكون يوسف عليه السلام قد أغلق على امرأة العزيز وعلى نفسه باب الشيطان بموقفه الحازم الحاسم الرافض للغواية، ولم تنجح امرأة العزيز فيما فعلته من تهيئةٍ لنفسها، وتغليقٍ للأبواب، وقولها: (هَيۡتَ لَكَۚ) أنْ تجُرَّ يوسف عليه السلام إلى فعل الفاحشة معها، وبهذا يكون قد انتهى أمر المُراودة.

فماذا كان ردَّة فعل امرأة العزيز؟

لقد كانت امرأة العزيز من عِلْية القوم، ومن سيدات المجتمع، وهي تعرف قَدْر نفسها في قَصْرها وفي مجتمعها، وهي في الوقت نفسه تعرف أنّ يوسف عليه السلام هو فتاها الذي اشتراه زوجها عزيز مصر بدراهم معدودة، وأنها سيدته التي لها أنْ تأمره فيُطيعها، لكنها بعد فشل مراودتها له، تشعر الآن بالإهانة، وخَدْش الكرامة، فقد كسرت نفسها أمام يوسف عليه السلام، وتذلَّلَت له، وقالت: (هَيْتَ لَكَ)، ثم هو يرفضها ويرفض طلبها، ويصُدّها، فينكسر كبرياؤها، فتسقط من عليائها أمامه، ولا تجد حيلةً لإجباره على فعل ما تريد من الفاحشة.

عندها، لم تملك امرأة العزيز إلا الانتقام منه، والاعتداء عليه، وضربه، ومعاقبته على صدِّه لها، وعدم استجابته لعَرْضها وهي المرأة العزيزة الجميلة، ومن عادة المرأة أنْ تكون مطلوبة مرغوبة، لا طالبةً راغبة، فَهَمَّت به انتقامًا لكرامتها المخدوشة، وكبريائها المكسور، وهو ما سنوضحه فيما يلي.

- (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا):

التركيب اللغوي: (همَّ به): إذا تمّ استعماله للحديث عن شخص أو إنسان، فإنه يكون للتعبير عن الاعتداء والتهجُّم عليه، والبطش به، ومعاقبته، وضربه، والانتقام منه، وهو كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ

قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ ﴾ {غافر: 5}، فكلّ أمّة كانت تهُمُّ برسولهم، يريدون أنْ يبطشوا به، أو يقتلوه، أو يطردوه، أو يحبسوه، لئلا يتمكن من الدعوة إلى الله.

ونحن نقول في حديثنا: همّ الرجُل بالرجُل، أيْ: همَّ به ليضربه أو يبطش به، ولم يفعل، فالذي لم يتم فعله هو البطش أو الضرب، لكنّ الهَمّ قد وقع.

وقول الله تعالى: (وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ)، أيْ: لقد همَّت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام لتبطش به، وتعتدي عليه، انتقامًا منه، بعد أنْ كسر كبرياءها، وأهان كرامتها، بصدِّه لها، وإعراضه عن مراودتها، وهو موقفٌ جديدٌ عنيف من امرأة العزير، جاء كرَدَّة فعلٍ منها بعد موقف يوسف عليه السلام الصلب، بهدف الانتقام منه، وهو ما ذهب إليه الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسير المنار، قال: (أيْ وتا الله لقد همّت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ...)

وقول الله تعالى: (وَهَمَّ بِهَا): يشير إلى وقوع هَمٍّ من يوسف عليه السلام بامرأة العزيز بعد أنْ همَّت هي بالاعتداء عليه، فالمنطق أنْ يدفعَ الإنسان عن نفسه أيَّ محاولة للاعتداء عليه، فالمقاومة غريزة عند كل المخلوقات، وما حدث من يوسف عليه السلام أنه لمّا رأى امرأة العزيز

تهُمُّ بالاعتداء عليه، همَّ هو بالتحفُّز والاستعداد ليمنعها من همِّها، فيدفعها أو يضربها، لكنّ الله تعالى أراه برهانه، وجعله يُدرك مآلات الأمور وخطرَها إنْ هو قام بما كان قد همَّ به من ردّ الاعتداء بدفعها أو ضربها، والذي تدلُّ عليه الآية والسياق فيما بعد أنّ الله تعالى أوحى إليه بأنْ يترك المكان الذي هو فيه، وينسحب منه، ويتّجه نحو الباب فيخرج، لئلا يقع في السُّوء، وتنقلب الأمور، فيكون هو المعتدي والمخطئ، ومَن يدري؟ فلعلّ إنفاذَ يوسف عليه السلام لِمَا هَمَّ به مِن دَفعِها أو ضربها أو وَكْزِها كان سيؤدي إلى جَرحها أو قتلها.

- (كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ):

لم يتحقق ما هَمَّ به يوسف عليه السلام بامرأة العزيز، فلم يدفعها، ولم يضربها، ولم يحدث منه ما يُسَجَّل عليه أنه اعتداء، وذلك بعد أنْ رأى برهان ربه، وما كان هذا إلا بكرم وفضل من الله تعالى الذي صرف عنه هذا (السُّوء)، فَهَمُّه بها إنْ تحقق ووقع فهو سوءٌ كما يقول الله تعالى.

وقبل أنْ يصرف الله تعالى عن يوسف (السُّوء)، كان قد صرف عنه (الفحشاء)، واستجاب لدعائه عندما قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ {يوسف: 23}، فأعاذه الله

من الفحشاء، وثبَّته على العِفَة والتقوى، ولم يضعف أمام مراودتها، ولم يستجب لعروضها، فكان من عباد الله المخلصين.

وما كان ليوسف عليه السلام أنْ يفعل السُّوء والفحشاء وقد صرفهما الله تعالى عنه ابتداء، فالله تعالى لم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء، بل قال: (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ)، وذلك لأنه من عباد الله المُخلَصين المصروفين عنهما أصلًا.

- (وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ):

وفي قوله تعالى: (وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ) إشارة إلى أنّ يوسف عليه السلام كان يُسابق إلى الباب، لينسحب من المكان بسرعة كما أمره الله تعالى، والأبواب كلُّها مغَلَّقَة، وتحتاج إلى جهد في الفتح، وهي لم يهدأ غضبُها، ولم تسكُنْ ثورتُها، ورأتْه يسبق إلى الباب، فلَحِقتْ به بقوة وسرعة، لتُفرّغ انفعالاتها الانتقامية منه من جهة فتبطش به، ومن جهة أخرى فهي لا تريد له أنْ يصل يوسف عليه السلام إلى الباب لئلا يعلم أحدٌ ممّن في القصر بما حدث منها، وفي الوقت نفسه هي لم تفقد الأمل من إغوائه واستجابته ليفعل الفاحشة معها.

- (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ):

الموقف كان عنيفًا، ويوسف عليه السلام كان يندفع للأمام بقوة، فارًّا بعفّته، مطيعًا لأمر ربه، وهي تَلْحَق به، وأخيرًا استطاعت أنْ تُمسِك

بقميصه من الخلف، وهو يندفع نحو الباب بشبابه وقوته، وهي تشُدُّ قميصه من الخلف إليها، لتمنعه من الخروج، ولتَشْفِيَ صدرها منه، فهو الذي كسر كبرياءها وأهان كرامتها.

ومن شدة ما في الموقف من قوة وعنف، فقد قدَّت امرأة العزيز قميص يوسف عليه السلام من الخلف، ليكون هذا القَدُّ فيما بعد دليلاً على براءته عليه السلام.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾:

عندما تفاجأت امرأة العزيز بسيّدها لدى الباب، أرادت أنْ تخفي أمر مراودتها ليوسف عليه السلام، خاصَّة أنها كانت متهيئة له، وأغلب الظن أنّ هيئتها وملابسها كانت تدلّ على ذلك، فلم تتهمه بإرادة (الفحشاء)، بل اتهمته بإرادة (السُّوء) وهو الاعتداء عليها كما يفيد السياق، وقالت: (مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا)، فهي تعلم أنّ اتهامه بالفحشاء سيجلب عليها الكثير من الشّبُهات والشكوك.

وقد اقترحت امرأة العزيز ماهية العقوبة التي يستحقها يوسف عليه السلام فقالت: (إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، لكنّ يوسف عليه السلام لم يقبل بهذه التهمة، فهو لم يعتدِ عليها، ولا يستحق أيّة عقوبة، فقال مدافعًا عن نفسه: (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي).

وتمضي القصّة، ويُظهر الله الحق، وينتصر يوسف عليه السلام، لكنّ الذي نريد التركيز عليه في هذا البحث هو أنّ يوسف عليه السلام نبيٌّ كريم، يتلقى الوحي من الله تعالى، ولا يمكن أنْ يحدث منه ما يخالف النبوة والرسالة التي جاء بها من الله تعالى، ولا ينبغي لمسلمٍ أو مؤمنٍ أنْ يشوِّه صورة هذا النبي الكريم، وينتقص من عصمته، كما فعل بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام، حيث آذوه واتهموه بما يؤذيه، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ {الأحزاب: 96}.

وكذلك فعلوا مع سليمان عليه السلام فاتهموه بالكفر، فبرأه الله مما قالوا، فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ {البقرة: 102}.

إنّ يوسف عليه السلام نبيٌّ كريمٌ من أنبياء الله تعالى الذين نأخذ عنهم الدين والإيمان، وهو موحى إليه من ربه، ولا نظن فيه إلا الخير والتلقِّي عن الله تعالى، ولا ينبغي لمؤمن بالله تعالى وبرسله الكرام، أنْ يردد عليه أقوالًا لا تليق بالأنبياء، ولا حتى بالعباد الصالحين، وهي كلها مأخوذة عن إسرائيليات مفتراة، وأقوال لا صحة لها، ولا دليل عليها.

وشهد شاهد من أهلها

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (يوسف: 26-29)

المشهور في تفسير الآيات السابقة أنّ الشاهد الذي شَهِد بصِدق يوسف عليه السلام، وكذِب امرأة العزيز كان أحدَ احتمالات أربعة كما يلي:

1. أنّه صبيٌّ رضيعٌ قد أنطقه الله تعالى وهو في المَهد.
2. أنّه رجلٌ حكيمٌ من أقرباء امرأة العزيز، وأنه ابن عمّها.
3. أنّه خَلْقٌ من خَلْقِ الله تعالى، وأنّه ليس من الإنس والجنّ.
4. أنه القميصُ المَقدودُ الذي قدَّته امرأة العزيز.

وهي أقوال لا تستند إلى دليلٍ من القرآن الكريم، أو الحديث الصحيح، أو اللغة العربية، وكلُّها أقوالٌ يأبَاها السياق الذي جاء فيه قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، فليس في الآيات ما يدلّ

على وجود صبيٍّ رضيعٍ في الموقف أصلًا، فضلًا عن أنْ يشهد بصِدق يوسف عليه السلام وكذِب امرأة العزيز، وليس في الآيات ما يشير إلى وجود رجل من أهل امرأة العزيز حَضَر أو تمّ استدعاؤه ليُدلِيَ بشهادته أو حُكمِه فيما حدث، وكذلك فإنّ القول بوجود خَلْق من خَلْق من خَلْق الله تعالى ليس من الإنس أو الجنّ جاء ليشهد في هذا الأمر قولٌ غريبٌ لا تدلُ عليه الآيات، والأغرب من هذا كلِّه القولُ بأنّ القميصَ المقدودَ هو من أهل امرأة العزيز، وأنه شَهد بكذِبها فيما تدَّعي، وشَهِد بصِدق يوسف عليه السلام.

فمَن يكون هذا الشاهد؟

الذي تدلُّ عليه الآيات ويحتمله السياق هو أنْ العزيز نفسَه هو المُراد بقوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾، وذلك لتضافُر الأدلّة والقرائن التي تشير إلى هذا، وهي كما يلي:

أوّلًا: من المعلوم في لغة العرب أنهم يقولون: إنّ الزوجة من أهل زوجها، وإنّ الزوج من أهل زوجته، ومتى صارت المرأة زوجةً للرجل فإنهما يصبحان أهلًا، ويصبح كلٌّ منهما أهلًا للآخر، وهو ما يدفعنا للقول: إنّ امرأة العزيز هي أهلُ العزيز، وهو أهلُها، وأنّه هو الذي شَهِد بكذِبها، وشَهِد بصِدق يوسف عليه السلام عندما رأى قميصه قُدّ من دُبُر.

ثانيًا: إنّ كلمة (شَهِد) تحمل عددًا من الدلالات التي يمكن اعتبارها قرائن يُستدَل بها على أنّ المُراد بالشاهد هو العزيز، على النحو التالي:

1. (شَهِد) بمعنى (حَضَر)، وهو معنًى ينطبق على العزيز الذي كان حاضرًا في الموقف الذي اتهمت فيه امرأة العزيز فتاها يوسف عليه السلام بإرادة السُّوء بها، ودفاع يوسف عليه السلام عن نفسه بقوله: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾.

2. (شَهِد) بمعنى (رأى)، وهو معنًى ينطبق أيضًا على العزيز، فهو قد رأى بعينه قميص يوسف عليه السلام المقدود من الخلف، ولذا فقد كان حُكمه عن مُشاهَدة ومُعايَنة.

3. (شَهِد) بمعنى (حَكَم)، وهذا المعنى يتوافق مع صلاحيات العزيز الذي سمع من امرأته، وسمع من يوسف عليه السلام، ثم هو قد أعمل فكره وعقله فيما رأى من هيئة القميص المقدود من الخلف، ولذلك فقد حكم بكذِب امرأته وصِدق يوسف عليه السلام.

ثالثًا: إنّ القول بأنّ الشاهد المذكور في الآيات كان رجلًا من أقارب امرأة العزيز قولٌ لا ينسجم مع السياق، لأنّه ليس من مصلحة العزيز أنْ يعرض أمرَ ما حدث من امرأته على أحدٍ من أهله أو من أهلها، فهو يسعى جاهدًا أنْ يظلّ هذا الأمر طيَّ الكتمان حفاظًا على سمعته وسمعة امرأته، حتى لا يتضرّر منصبه السياسي، ولذا فهو قد أخفى الأمر لئلا يعلم به أحد، وهذا ما دلَّ عليه قوله ليوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾، وقوله لامرأته أيضًا: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

رابعًا: لو كان الشاهد طفلًا رضيعًا لاعتُبرت شهادتُه لوحدها آيةً على براءة يوسف عليه السلام، ولَمَا كان يلزم العزيز البحث عن أمارات وبراهين لمعرفة صِدق امرأة العزيز من كذِبها، وهو ما ظهر في قدِّها لقميص يوسف عليه السلام من الخلف.

ولو كان الشاهد طفلًا رضيعًا قد شهد بإدانة امرأة العزيز أمام زوجها، لمَا لزم يوسف عليه السلام لإثبات براءته فيما بعد أنْ يقول وهو في السجن لرسول الملك: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: 50)، ولاكتفى عليه السلام بأنْ يقول لرسول الملِك: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال الطفل الرضيع الذي شهد ببراءتي).

خامسًا: قول امرأة العزيز فيما بعد: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: 51) يدلّ على أنّ الأمر ظلّ مستورًا مخفيًا إلا عن زوجها عزيز مصر، ولو أنّ الشاهد المذكور كان من أقاربها، أو كان الطفل الرضيع، لحصحص الحق وظهر في حينه، ولمَا تأخّر إلى حين اعترافها بمراودتها ليوسف عليه السلام، وأنه من الصادقين.

سادسًا: ضعف الرواية المنسوبة إلى عبد الله بن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... وتَكَلَّمَ أربعةٌ وهُم صغارٌ هذا "ابن ماشطة

فرعون"، وشاهِدُ يوسُفَ، وصاحِبُ جُريجٍ، وعيسَى ابنُ مَريمَ) وهي رواية ضعيفة ضعَّفها الألباني برقم 4772 في ضعيف الجامع، وهو ما يشير إلى عدم وجود دليل صحيح على أيّ قول من الأقوال المذكورة في أوّل البحث.

وبعد هذه القرائن والأدلّة فإنه يمكننا القول بأنّ سياق الآيات يشير إلى أنّ الشاهد الذي شَهِد وحَكَم بصِدق يوسف عليه السلام، وكذِب امرأة العزيز، هو العزيز نفسه، ويبدو أنّه أخّر أمْرَ سَجْن يوسف عليه السلام إلى وقتٍ لاحقٍ يكون فيه قد دَبّر سببًا ومبرّرًا لسَجنه، بعيدًا عن أمر مراودة امرأته له، وهو كما في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ (يوسف: 35).

وقَطَّعنَّ أيديَهنَّ

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ {يوسف: 30-34}.

لم تستطع امرأة العزيز أنْ تمنع خروج الأخبار والتسريبات عمّا حدث في القصر بعد استباقها الباب مع يوسف عليه السلام، وبعد أنْ دافع عن نفسه قائلًا: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ ﴾ {يوسف: 26}، وبعد أنْ شهد شاهد من أهلها ببراءة يوسف عليه السلام قال: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ

مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ {يوسف: 26-28}.

ووجدت امرأة العزيز أنّ أخبارها قد خرجت من القصر، وأنّ قصتها أصبحت مادّة حديثٍ، تتحدث فيها النسوة في المدينة: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ {يوسف: 30}، ولم تكن هؤلاء النسوة يتناقلن خبر امرأة العزيز كما يتناقل الناس الأخبار في العادة، ولكنهن كُنّ يتحدثن عنها بمَكر ولَوم وسخرية وانتقاص وشماته، وهو ما نفهمه من الآية: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ {يوسف: 31}.

ويمكننا تصوّر مضمون كلام النسوة ومكرهنّ على النحو التالي:

1. السخرية من امرأة العزيز صاحبة القوة والسلطان التي نزلت إلى مستوى لا يتناسب مع موقعها ومكانتها، فهي تهيم حُبًّا بفتاها الذي تملكه.

2. امرأة العزيز تضطر إلى المُراودة والحِيَل مع فتاها لإيقاعه في حبائلها، وهو ما يدل على ضعفها وضعف سلطانها.

3. بعد كل هذه المراودة من امرأة العزيز لفتاها، لكنه لا يتأثر بجمالها وأنوثتها، فليس لديها من الجاذبية ما يجذب الفتى، ويشدّه إليها.

ولا شك أنّ هذا الكلام الذي تتحدث به نسوةٌ في المدينة يؤذي امرأة العزيز، ويشعرها بالحرج والانكسار والإهانة، ويجعلها في موقف يستدعي التصرف السريع، لمحاصرة هذا الكلام وإيقافه، وفي نفس الوقت فقد فكرت في طريقة ذكية تحصل من خلالها على دليل براءة من النسوة أنفسهن.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾:

وقول الله تعالى: (أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ)، أيْ: أرسلتْ في طلبهن للحضور إلى قصرها، وليس في هذا الإرسال من امرأة العزيز دعوةُ استضافةٍ لهنّ، فهؤلاء نسوةٌ يتحدثن عنها بمكر وانتقاص، والمقامُ هنا ليس مقامَ استضافة، وليس لقاءً في مناسبة اجتماعية يكون الحضور إليه إراديًّا، ولكنها تأمرهم بالحضور، وهي تعلم أنها امرأة العزيز، وأنها تستطيع جلبهن بالإرسال إليهن بقوة سلطانها.

فالنسوة لم يحضُرن لامرأة العزيز بإرادة منهن، أو بدعوتهنّ للحضور، بل إنّها قد أرسلت إليهن إرسالًا، وهو ما يدلّ على معنى الأمر والإلزام

ويمكننا معرفة الفرق بين معنى الإرسال للحضور، والدعوة للحضور، من خلال الرجوع إلى قصة موسى عليه السلام، فقد استعمل القرآن الكريم معه مصطلح (يدعوك) الذي يحمل معنى الاستضافة والتكريم، وذلك عندما جاءته إحدى المرأتين بدعوة له من أبيها الشيخ

الكبير ليجزيه أجر ما سقى لابنتيه، كما في قول الله تعالى: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ {القصص: 25}، فالمرأة لم تقل له: (إنّ أبي أرسلني في طلبك)، أو: (إنّ أبي أرسلني إليك لتَحضُر)، بل قالت: (إنّ أبي يدعوك)، وواضح في الآية معنى الاستضافة والتكريم، وهي تختلف عن معنى الإرسال الذي فعلته امرأة العزيز مع النسوة.

﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾:

وَأَعۡتَدَتۡ : أي حَضَّرت، وأعدَّت، وهيّأت.

(مُتَّكَـٔٗا): وهو كلّ ما يُتّكأ عليه، والاتّكاء: الاعتماد، نقول: اتَّكأ الرجل على الجدار، وعلى العصا، وعلى الأريكة، أيْ اعتمد عليها.

والمُتَّكَأ: هو السرير أو الأريكة، كما في قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ {الكهف: 29}، وكما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ {الواقعة: 15-16}.

لقد جهزت امرأة العزيز خُطة ذكية محكمة، لتحصل على براءتها من خلال توريط هؤلاء النسوة اللاتي تحدَّثْن عنها بمَكر وسخرية وانتقاص، ولتمنع كلامَهن من الانتشار والتوسُّع في المجتمع، فأرسلت

إليهن للحضور إلى قصرها، وكانت قد أعتدَت وحضَّرت لهنّ (مُتَّكأً)، وكلمة (أعتدت) تُوحي بأنّ هذا المتكأ الذي أعتدته امرأة العزيز للنسوة لم يكن مجلسها الذي اعتادت على استقبال زوارها فيه، والذي لا يحتاج منها إلى هذا التحضير والإعداد والتجهيز الذي تُوحي به كلمة (أعتدت)، فالمجالس في القصور جاهزة وحاضرة دائمًا لاستقبال الزائرين.

ولكنّ هذا المُتَّكأ الذي أعتدته لهن كان مجلسًا خاصًا، جهَّزته لهنّ تجهيزًا يناسب خُطَّتها، بحيث تَتَمَكَّن النسوة فيه من رؤية يوسف عليه السلام بشكل واضح، ومن زوايا مختلفة عند خروجه عليهن، وفي نفس الوقت فإنّ هذا المُتكأ يسمح لهُنّ بحرية الحركة، والتنوع في طريقة الجلوس والاتّكاء عند مراودة يوسف عليه السلام وإغرائه، ولا شك أنه سيكون متكأً مُحاطًا بالسِّرِّية، وبعيدًا عن عيون وآذان الخَدَم والحُرَّاس الذين يعملون في القصر، وهو ما نفهمه من الآية: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾.

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا ﴾:

المشهور في كتب التفسير أنّ امرأة العزيز قد استضافت مجموعة النسوة اللاتي سمعت بمكرهن، وهيَّأت لهن مقاعد مريحة يتكئن عليها، وقدمت لهن الفواكه المختلفة ليأكلن ما شئن منها، وآتَتْ كل واحدة منهنّ سكينًا لتستخدمه في تقطيع الفاكهة، وأنهن قد قطَّعن وجرّحْن أيديهن عند

رؤيتهن ليوسف عليه السلام تأثُّرًا بجماله، من غير أنْ يشعرن بالألم لاندهاشهن، وانشغال قلوبهن به، وهو كلام غير مقبول، ولا يدلُّ عليه السياق.

وعند الرجوع إلى السياق الذي جاء فيه إيتاء امرأة العزيز لكل واحدة منهن سكينًا، نجد أنّ ما جاء في كتب التفسير لا يتوافق مع السياق من وجوه عدّة:

1. لم يكن المقامُ مقامَ استضافةٍ وإكرامٍ تُقدَّم فيه الفواكه لهؤلاء النسوة، فهُنَّ قد تمّ إحضارهن لقصر امرأة العزيز بطريق الإرسال إليهن، ولم يَحضرن إليها بشكل إراديّ، فهُنَّ لسْنَ ضيفاتٍ ولا زائرات.

2. إنَّ السياق الذي جاءت فيه الآية يشير إلى أنّ إيتاء كل واحدة من النسوة سكينًا، كان يهدف إلى استخدام هذا السكين فيما خططت له امرأة العزيز، وهو تقطيع وتجريح الأيدي، وهو ما حدث فعلًا، والنسوة كنّ يعرفن هذا.

3. إنّ تقطيع النسوة لأيديهن ليس له علاقة برؤيتهن ليوسف عليه السلام، وإنما حدث هذا بطلبٍ واشتراط من امرأة العزيز عليهن، كما سنبين لاحقًا بإذن الله.

4. لم يكن تقطيع النسوة لأيديهن بسبب اندهاشهن عندما رأَيْن يوسف عليه السلام، ولو سلَّمنا بمسألة الاندهاش إنْ حدث، فإنّ النسوة عندها

سيتوقفن عن الحركة نهائيًا بسبب الاندهاش، ولن يقمن بفعل شيء، فضلًا عن قيامهن بتقطيع أيديهن.

5. إنّ يوسف عليه السلام لم يكن مسجونًا في قصر العزيز، ولم يكن محجوبًا عن الناس، بل كان يراه الناس رجالًا ونساء، في داخل القصر وخارجه، ولم يحدثنا القرآن الكريم عن حالات اندهاش رأت فيها النساء يوسف عليه السلام، ولم يحدُث هذا الاندهاش من امرأة العزيز وهي التي شغفها حُبًّا.

6. وعلى افتراض أنّ امرأة العزيز قد قدمت للنسوة ضيافة وفواكه، رغم عدم وجود أية إشارات تدل على هذا، فإنه ليس من عادة الناس عند استقبالهم للضيوف أنْ يؤتوا كلَّ ضيف منهم سكينًا خاصًّا يظل في يده كما فعلت امرأة العزيزة مع النسوة، حيث آتت كل واحدة منهن سكينًا كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾:

لم يكن الأمر من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام بالخروج على النسوة، إلا بعد أن اجتمعت بهن، وتحدثت إليهن، ومارست عليهن سلطانها، وحدَث بينها وبينهن اتفاقات واشتراطات تمّ الالتزام بها وتنفيذها.

وكان ممّا تهدف امرأة العزيز إلى تحقيقه ما يلي:

أولًا: لا شكّ أنّ من أهم المواضيع التي طرحتها امرأة العزيز مع النسوة، هو ما سمعته من مكرهن بها، ونشرهن لخبر مراودتها لفتاها عن نفسه، وتشويه صورتها في المجتمع، وهي تريد وقف انتشار الكلام الذي تتناقله هؤلاء النسوة عنها، خاصة أنها امرأة العزيز، وتشويه سمعتها يؤثر على موقعها وموقع زوجها السياسي والاجتماعي.

ثانيًا: كانت امرأة العزيز تريد الدفاع عن نفسها أمام النسوة، وأنها لا تُلام في شغفها بيوسف عليه السلام، فهو يأخذ بالألباب، وأنها ستتيح لهن فرصة رؤيته، ليَعلمْن أنه ليس ككل الفتيان.

ثالثًا: إنّ عدم نجاح امرأة العزيز في إيقاع يوسف عليه السلام في حبها، وفعل الفحشاء معها، قد أصابها بالإهانة كامرأة، وهي في نظر النسوة لا تمتلك الأنوثة الكافية للتأثير على فتاها، ولذلك فهي في هذا الاجتماع تقول لهن: إنّ المشكلة ليست في أنني أفتقر إلى الأنوثة والجاذبية، ولكنّ المشكلة في يوسف الذي يستعصم، ولا يستجيب لنداء الشهوة، واليوم أنا أتحدّاكُنّ، وأقول لكُنّ: لا تُوجد منكن امرأةٌ واحدةٌ يمكنها التأثير عليه وإثارته، وأنا سآمُرُه بالخروج عليكُن بعد قليل، لنرى ماذا تفعلن عند رؤيته، وسأسمح لكلٍّ منكن بأنْ تراوده، وتمارس أنوثتها وكيدها معه كما تشاء، وستعرفْن أنّ المشكلة ليست فيَّ، ولكنها في استعصامه، ولكن دعونا نتفق قبل خروجه عليكنّ على ما يلي:

(في حال إعجابكنّ بيوسف، وانجذابكنّ وإكباركنّ له، ومراودتكنّ له عن نفسه عند خروجه، فإنْ ظلّ على استعصامه ولم يَصْبُ إليكنّ، فإنّه لا لَوْمَ عليَّ فيما فعلتُ، وعليكنّ أنْ تقمْنَ بتجريح أيديكن بهذه السكاكين التي آتيتكنّ، وأنْ تلتزمْن بعدها بالتوقُّف عن المَكْر بي، أو نشر وترويج خبر مراودتي ليوسف عن نفسه، وفي حال عدم إكباركنّ له، وعدم تأثّركنّ به، وعدم مراودتكنّ له عن نفسه، فأنا سأكون المخطئة، ولا لَوم عليكنّ في شيء)

وسياق الآيات يدلّ على أنّ النسوة قد وافقن جميعًا على هذه الشروط، وأنّهن جميعًا قد أكبرْنَ يوسف عليه السلام عندما رأيْنَه، وأنَّهن جميعًا قد راودْنَه عن نفسه، وأنَّهن جميعًا قد قطَّعنَ أيديَهنّ بحسب الاتفاق الذي يحميه ويضمن تنفيذه سلطانُ امرأة العزيز.

رابعًا: كان من أهداف امرأة العزيز الحصول على دليل براءة لها، من خلال استدراج النسوة لتقطيع أيديهنّ، فيظلّ أثر التقطيع على أيديهنّ علامة على إدانتهنّ، تضمن من خلالها توقّفَهنّ عن المكر بها، وعدم نشر خبر مراودتها لفتاها.

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾:

كانت ردّة فعل النسوة عندما خرج عليهن يوسف عليه السلام هي نفس ما توقعت امرأة العزيز، فقد وقع في عيونهن وقلوبهن موقع الإكبار، فهو ليس ذلك الفتى الذي كُنَّ يرْسُمْنَ له صورةً مُستحقَرَة في أذهانهن

عندما تحَدَّثْن على امرأة العزيز، ومَكَرْنَ بها، كما في الآية: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)، حيث كُنّ يتصوَّرْنَه فتىً عبدًا، لا تأثير له ولا حضور، ولا يستحق هذا الاهتمام والحب من امرأة العزيز صاحبة المنصب والجمال، وهو في نظرهن مُستَصغَر الشأن، لذا جاء في الآية على ألسنتهن: (تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا)، وهو إشارة إلى التقليل من شأنه، وتحقير أمره.

لكنهنّ الآن وقد خرج عليهن يرَيْنَه فيُكبِرْنَه دون تفكير، مع ما في هذا الإكبار من معاني التوقير، والتعظيم والاحترام، والإعجاب، والجاذبية، وقوة التأثير، وقد رَأيْنَه كبيرًا في حُسنه وجماله، وفُتُوَّته، وكمال رجولته، فهو عندهن من الآن الكبير في العين، والكبير في القلب، والكبير في النفس.

ولم تتمالك النسوة أنفسهن أمام ما رأَيْن من جمالٍ، ووقارٍ، وفُتُوَّة، وتأثيرٍ يشِعّ من يوسف عليه السلام، وقررت كل واحدة منهن في نفسها أنْ لو تحظى باهتمامه، أو التفاتةٍ منه نحوها، وبدَأْنَ جميعًا يستخدمْن ما لديهن من أنوثة وجاذبية ومراودة له عن نفسه بكل طريقة، ولكنه عليه السلام لم يخرج عن وقاره، وعِفَّته، وأدبه، ولم يَصْبُ إليهن، وظلّ مستعصمًا بالله تعالى، وباء كل كيدهن بالفشل.

(وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ):

لقد مارستْ كلُّ واحدة من النسوة كلَّ ما تستطيع من مراودة لإيقاع يوسف عليه السلام في الفاحشة، ولم يتركْن طريقة لإغوائه إلا سلكْنَها، فهنّ مع إكبارهنَّ له ووقوعه في قلوبهن، لكنهن يعلمْن أيضًا ما ينتظرهنّ من تقطيع وتجريح لأيديهن في حال عدم نجاحهن في إغوائه وإغرائه ليفعل معهنّ الفاحشة.

وظلّ يوسف عليه السلام مستعصمًا بالله تعالى، ولم ترَ واحدة منهن منه شيئًا غير الوقار والعفّة والخُلُق الكريم، ولم يعلَمْن عليه ما يسوؤه، ولذلك فإنهن لما سألهُنّ المَلِك بعد سنوات من سجنه: (قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ)، فهُن يشهدْن له بالصدق والعفّة والوقار، وأنه لم يستجب لمراودتهنّ له عن نفسه، رغم حرصهنّ الشديد على إغرائه وإغوائه.

ولمّا أُسْقِط في أيديهنّ، ولم يعُد بِوُسْعهنّ أكثر مما فعلْن من المُراودة والإغراء والكيد، لم يكن أمامهن إلا الالتزام بما تعَهَّدْن به لامرأة العزيز صاحبة السلطان بتقطيع أيديهنّ بأنفسهنّ بالسكاكين التي آتتها لكل واحدة منهنّ، وهو ما تمّ فعلًا رغم صعوبته وقسوته: (وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ).

ويبدو من سياق الآيات أنّ تقطيع الأيدي كان معروفًا في المجتمع في ذلك العصر، ولذا فإنّ النسوة لم يُنكِرْن على امرأة العزيز إيتاءَهنّ السكاكين، ولم يستغرِبْن طلبَها بتقطيع أيديهنّ في حال عدم قدرتهن على إغواء يوسف عليه السلام، فَقد قُمْن بعد انتهاء وفشل المُراودة بتقطيع أيديهنّ بأنفسهنّ بما معهنّ من السكاكين.

وبهذا التقطيع من النسوة لأيديهن، فإنّ امرأة العزيز تكون قد ضمنت سكوتهنّ عن نشر خبر مراودتها لفتاها، وتوقفهنّ عن المكر بها، فقد صار معها الدليل عليهنّ، وهنّ لن يجْرُؤْنَ على فتح هذا الموضوع حفاظًا على أنفسهنّ وسمعتهنّ.

وقد حدث هذا التقطيع أمام يوسف عليه السلام، وظلّ عالقًا في ذهنه، ولم ينسَه، فعندما أرسل المَلِك لإخراجه من السجن بقرار عفوٍ منه، لم يقبل يوسف عليه السلام بهذا، بل أراد أنْ يخرج من سجنه بحكم براءة لا عفو، فقال: (ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ)، فقد كان هذا التقطيع دليلَ براءةٍ له عليه السلام، وخرج من سجنه طاهرًا بريئًا، فالله الذي يكيد له، ولا يتخلّى عنه.

﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾:

ورغم أنّ يوسف عليه السلام لم يطاوع النسوة فيما أردْن، ولا شكّ أنّه صدَّهنّ، وأبى الاستجابة لهنّ، ورغم أنّهن قطّعْن أيديهنّ بعد عدم نجاحهنّ في إغوائه، لكنّ هذا لم يمنعهنّ أنْ يشهدن له بالخير، وأنْ يقُلْن في شأنه كلمة حق: (وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ).

والنسوة هنا لا يتحدّثْنَ عن جمال يوسف عليه السلام، ولا عن صورته، ولكنهنّ يَنفِين عنه أفعال البشر، فهو ليس كالبشر الذين يتأثرون بالإغراء والمراودة، ويُشَبِّهْنَه بالمَلَك الكريم، والمَلائكة في العادة لا يراهم الناس، ولكنهم يعرفون من صفاتهم أنهم لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتزوجون ولا شهوة لهم، فالنسوة يتحدثن عن عفّة يوسف عليه السلام، وعن عدم قبوله بفعل الفاحشة، وهذه صفات للملائكة الذين لا شهوة لهم، ويوسف في هذا مثل الملائكة الكرام الذين لا يرتكبون المعاصي، ولا يفعلون الفواحش، ولا يُرى منهم السوء.

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾:

عندما سمعت امرأة العزيز شهادة النسوة في حق يوسف بقولهنّ: (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فقد اعتبرت ذلك شهادة لها بأنّها لا لَوْم عليها فيما فَعَلت معه من مراودة، فقالت لهنّ: (فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ)، فهو يتصف بكل صفات الرجولة والفُتُوَّة والجمال والحُسن التي جعلتني لا

أستطيع مقاومة الانجذاب إليه، وحبِّه، والتعلقِ به، وهو في الوقت نفسه لا يستجيب لي، فاندفعتُ نحوه بكل مشاعري، ووجدتُ نفسي أراوده عن نفسه لأحظى به وبحبه، فلا تَلُمنَنِي فيه، ولا فيما فعلتُ معه.

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾:

وهو اعتراف صريح من امرأة العزيز بمُراودتها لفتاها عن نفسه، جاء بعد أنْ قطَّعت النسوة أيديهنّ، وصِرْنَ مأمونات الجانب عندها، وهو اعتراف تقول فيه للنسوة: إنّ الذي منعني من الحصول على ما أريد منه، هو استعصامه بربه وإيمانه، وليس بسبب عيب أو نقص في أنوثتي وجاذبيتي، فقد رأيتنّ بأنفسكنّ كيف أنه لم يستجب لواحدة منكُنّ في إغراء أو مُراودة، برغم ما كان لديكُنّ من مراودة وكيد.

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾:

لا تزال امرأة العزيز تشعر بوجع الإهانة التي تلقَّتها من يوسف عليه السلام عندما صَدَّها ولم يستجب لإغراءاتها ومراودتها، فقد انكسر كبرياؤها أمامه، وهو الذي تعتبره فتاها وعبدَها، ولا تزال ترى في نفسها أنها المرأة الشابة الجميلة، التي تمتلك التأثير والجاذبية والأنوثة، وأنّ يوسف عليه السلام لم يعترف لها بشيء من هذا باستعصامه، وإعراضه عن الفاحشة.

ولذا فهي تُعلن الآن أمام النسوة، وأمام يوسف عليه السلام، بأنها لن تستسلم، ولن تتوقف عن مُرادها، وأنها ستُجبِرُه على فعل الفاحشة

معها بسطوة سلطانها، وقوة منصبها، وإلا فهي تملك السجن والإذلال والتعذيب، ويمكنها في أيّ لحظة أنْ تَزُجَّ به في السجن لسبب أو لآخر.

واستعمال امرأة العزيز للتعبير: (وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ) يدلّ على أنّها تعاني من الصَّغَار والإذلال الذي وضعها فيه يوسف عليه السلام منذ أنْ رفض مراودتها، فَهَمَّتْ بالبطش به انتقامًا منه، واليوم وقد استمَرَّ يوسف عليه السلام في استعصامه ورفضه لفعل ما تطلب منه، فهي تقرر الانتقام منه بسَجْنه وجَعْله من الصاغرين، وهي بذلك تفعل ما يفعل الظلمة مع أهل الحق في كل العصور.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾:

كان تَوَجُّهُ يوسف عليه السلام إلى ربه بالدعاء هو ردُّه الحاسم على تهديد امرأة العزيز: (قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ)، فَسِجْنٌ في طاعة، خيرٌ من حُرِّية في معصية.

وهو ردٌّ قويٌّ يقول فيه يوسف عليه السلام لامرأة العزيز وللنسوة جميعًا:

إنّ في هذه الدنيا أشياء أجمل من الشهوة المؤقتة الزائلة، وهي طاعة الله تعالى ورضاه، وإنّ هناك أشياء لن تحْصُلْنَ عليها لا بالمال، ولا بالمنصب والسلطان، ولا بالتعذيب، ولا بالسجن، وهي العفّة، والشرف، والصدق، والوفاء لمن أكرمنا وأحسن مثوانا، ورضى الله تعالى، وإنّ السجن الذي تُلَوِّحِين لي به، فهو أحبُّ إليّ من فعل الفاحشة، ولأَنْ ألقى الله تعالى وهو راضٍ عني، خيرٌ لي من كل شيء.

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾:

لقد علم يوسف عليه السلام أنه لا نجاة له من كيد هؤلاء النسوة، إلا بالتوجّه إلى الله تعالى، وسؤاله أنْ يصرف عنه كيدهنّ، وأنْ ينجّيه ممّا هو فيه من مراودتهنّ له بهدف إغوائه وإيقاعه في الفاحشة.

وهو عليه السلام يعلم أنّ فيه من الشهوة والرغبة ما يجعله يضعف، ويصبو إليهن، ويستجيب لمراودتهنّ وكيدهنّ، ويعلم أنّه إنْ فعل ذلك يكون قد صار من الجاهلين الذين لا يعلمون ما يعلم من عظمة الله تعالى، ولذا فهو يجأر إلى الله تعالى بالدعاء: (وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ)، وهو في الوقت ذاته يثق بأنّ الله تعالى لن يخذله، وسيجيب دعوته وسُؤْله.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

كانت استجابة الله تعالى ليوسف عليه السلام سريعة وفورية: (فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)، وانفضَّ مجلس النسوة اللاتي حاولن فيه إغواء يوسف عليه السلام وإيقاعه في الفاحشة، وانتصرت عفّة يوسف عليه السلام على شهواتهن جميعًا، وانتصرت طاعته لله تعالى على معصيتهن، وردّ الله كيدهنّ إلى نحورهنّ لم ينلْن خيرًا، وكفى الله يوسف عليه السلام شرّ النسوة وشرّ الفاحشة.

زُيِّن للنَّاس حُبُّ الشَّهوات من النِّساء

يقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ {آل عمران: 14}.

ما المُراد بكلمة: (النَّاس) في الآية السابقة؟

اوَّل ما يخطر بالبال أنّ المُراد بالناس هنا هم الرجال، وذلك لأنّ السياق في قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ) يتحدث عن حُبِّ الشهوات من النساء، وفي العادة فإنّ الرجال هم الذين يشتهون النساء.

لكننا عندما نمضي في قراءة الآية، نجد أنّها تذكُر عددًا من النِّعَم التي يشترك الرجال والنساء في حُبِّها واشتهائها، وهي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ﴾ {آل عمران: 14}، وهو ما يجعل القول بأنّ المُراد بالناس هم الرجال قولًا ضعيفًا ومردودًا، فالنساء كالرجال في حُبِّ الشهوات من البنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فالناس هم الرجال والنساء.

وعلى هذا فالنساء مثل الرجال في حُبّ الشهوات من النساء، فكيف نفهم ذلك؟

المعروف أنّ الرجال يشتهون النساء، والله تعالى زَيّن لهم حُبَّ الشهوات من النساء، وهو أمر فطري وطبيعي، فالرجل دائمًا يميل إلى المرأة، ويسعى لأنْ يتزوج، وتكون له امرأة شريكة له في حياته، والله تعالى يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ {الروم: 21}، فالرجل مهما كان زاهدًا في الدنيا وملذاتها وشهواتها لكنّه يظلّ فيه هذا المَيل، وهذا الحُب والشهوة للمرأة، وهو مُزَيَّن عنده من الله تعالى.

والكلام نفسه ينطبق وينسحب على المرأة، فهي أيضًا مخلوقةٌ وفيها المَيل إلى الرجل، والله تعالى قد زَيَّن لها حُبَّ الشهوات من النساء، بمعنى أنها تُحِب أنْ يشتهيها الرجل، بل هي تسعى جاهدةً لأنْ تكون جميلةً في عين زوجها ليشتهيها، فتتزيّن له، وتستعمل من أدوات الزينة المختلفة ما يثير زوجها، وتلبس الملابس الجميلة ما يجعله يُحِب هذا فيها ويشتهيها، لأنها تُحِبُّ أنْ تُحَبَّ وأنْ تُشتَهى.

لقد زيَّن الله للرجل حُبَّ الشهوات من النساء، فهو يُحِب المرأة، ويُحِب اشتهاءه لها، ويسعى دائمًا للارتباط بها، وزيَّن الله للمرأة حُبّ الشهوات من النساء، فهي تُحِب هذا الحُبّ من الرجل، وتُحِب اشتهاءه لها، وتسعى دائمًا للارتباط به.

إنّا كنَّا نستنسخ ما كنتم تعملون

يقول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ {الجاثية: 29}.

ما المُراد بقول الله تعالى: (كِتَٰبُنَا) و(نَسۡتَنسِخُ)؟

ليس المُراد بالكتاب هنا مجرد كتاب من ورق كما هو مألوف لدينا عن مدلول الكتاب، فالكتاب المذكور في الآية كتابٌ ينطق بالحق، ويتكلم، ويُسمَع، وقوله تعالى: (يَنطِقُ عَلَيۡكُم) يُشير إلى أنه ناطق ومسموع وأنتم تسمعونه.

– فماذا يمكن أنْ يكون هذا الكتاب؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ {الكهف: 49}، إنّه كتابٌ فيه كلّ أعمال العباد حاضرة وماثلة أمام أصحابها، والله تعالى لم يقل: ووجدوا ما عملوا مكتوبًا، بل قال: (وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا)، وهو ما يُشير إلى أنّ الأعمال الحاضرة

والماثلة في الكتاب ستكون هي ذاتها التي عملها الإنسان في الدنيا، بالصوت والصورة والسريرة.

فهو كتاب ألكتروني – إنْ جاز لنا التعبير – يتّسع لآلاف الساعات من الفيديوهات والتسجيلات التي تُغَطِّي حياة الإنسان منذ تكليفه إلى أنْ يموت، ولا غرابة في ذلك، فنحن اليوم نملك من الإسطوانات والأقراص المَرِنة، وشرائح الذاكرة، والفلاشات، والأجهزة الذكية، ما نكتب ونحفظ فيها ما نشاء من أفلامنا، وفيديوهاتنا، وتسجيلاتنا، وصورنا، ووثائقنا، وكتاباتنا، وكتبنا، فكيف بالكتاب الذي تتحدث عنه الآية الكريمة؟!

إنه ليس كتابًا من ورق نقلِّب صفحاته، وليست الكتابة فيه تقتصر على الكلمات والحروف والأسطر، ولكنه كتابٌ ناطق، وعارض للصور والفيديوهات والتسجيلات، وهو يستوعب كل أعمال العباد: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ {الكهف: 49}.

وهو كتابٌ يحفظ ما كان في سرائر الناس من حُبٍّ وبُغض، وما حَوَت صدورهم من إيمان أو كفر، وسيجد الناس فيه ما لم يكونوا يحسبون له حسابًا: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ {الزمر: 47}، وستظهر فيه قلوب الناس دون خفاء: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ {الحاقة: 49}، وفي هذا الكتاب ستُبلى السرائر،

وتتكشف النوايا: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴾ {الطارق: 9-10}.

- (إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ):

الفعل: (نسخ) يأتي بمعنيين:

المعنى الأول: بمعنى: (ألْغى) و(أزال) و(أبْطَل)، وهو كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾ {البقرة: 106}، أيْ: (نُلْغيها) أو (نُنْسِيها).

المعنى الثاني: بمعنى: إيجاد صورة مطابقة لشيء موجود، والنُّسْخَة: صورة المكتوب أو المرسوم، نقول: هذه نُسخة من الكتاب، أيْ: صورة طبق الأصل من الكتاب، وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ {الأعراف: 154}.

وقوله تعالى: (إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)، أيْ: إنّ كل أعمالكم يُوجَد منها نُسَخٌ مطابقة لها عند ربكم، وستَرَوْن أعمالكم بأنفسكم يوم القيامة، وستنظرون إليها ماثلة حاضرة لا خفاء فيها، ولا نقص، ولا زيادة، هي كما حدثت منكم، ولا يستطيع أحدٌ إنكار شيء منها، وسيقول لكم ربكم: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ {الإسراء: 14}.

قال ربِّ اجعلْ لِي آية

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ {مريم: 10}.

جاءت هذه الآية بعد أنْ بَشَّر الله تعالى زكريا عليه السلام باستجابة دعوته، فقد دعا ربه وهو قائم يصلي في المحراب بأنْ يرزقه الولد كما في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾{مريم: 3-7}.

وبالرغم من استجابة الله تعالى الفورية لزكريا عليه السلام، وإيمانه ويقينه بأنّ الله قادر على كل شيء، إلا أنّه ظلَّ مستغربًا ومندهشًا من هذا العطاء الكريم فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ {مريم: 8}، ولم يُنكر الله تعالى عليه دهشته واستغرابه، بل أجابه وأراح قلبه فقال: ﴿قَالَ

كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ {مريم: 9}.

ومن شدة الفرحة التي غمرت قلب زكريا عليه السلام فقد دعا الله تعالى أنْ يجعل له علامةً وأمارةً يعرف من خلالها بحدوث الحمل عند زوجته، فقال: (رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ)، فهو يريد أنْ تتم فرحته وفرحة زوجته بحدوث الحمل، والله تعالى يستجيب له بقوله: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ {مريم: 10}.

والذي جعل زكريا عليه السلام يطلب علامة على حدوث الحمل، أنّ زوجته كانت كبيرة في العمر، ومن شأن النساء اللاتي يتقدمن في العمر أنْ يتوقف عندهنّ الحيض، وهو المعروف اليوم بالدورة الشهرية، ومعلوم أنّ من دلائل حدوث الحمل عند النساء أنْ يتوقف الحيض فور الحمل، وكان من الصعب على زكريا وزوجته أنْ يعرفا بالحمل فور حدوثه، لعدم وجود الحيض أصلًا، لذا قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ ﴾ {مريم: 10}.

وفي الوقت نفسه فإنه لم يكن في ذلك الزمان إمكانية لدى الناس لمعرفة حدوث الحمل بطريق الفحص المخبري والطبي، والتصوير

التلفزيوني، وغير ذلك من الوسائل الكثيرة المتاحة للناس في العصر الحديث.

- (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا):

أيْ إنّك ستعرف الآية على حدوث الحمل، بأنك لن تستطيع الكلام لمدة ثلاثة أيام، فإذا وجدت نفسك عاجزًا عن الكلام فاعلمْ أنّ زوجتك حامل، وهو ما حدث فعلًا، ويدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ {مريم: 10}، وقوله: (فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ) يشير إلى عدم قدرته على الكلام، بل أشار إليهم بالرمز أنْ يسبحوا الله بكرة وعشيًا.

وليس صحيحًا ما يُردّده بعض الوعاظ من أنّ الله تعالى قد نهى زكريا عليه السلام عن الكلام، فقوله تعالى: (أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ) يدل على غير ذلك، فحرف (لا) في الآية حرفُ نفي، وليس حرفَ نهي، ولو كان حرفَ نهي لجاء الفعل المضارع: (تكلمْ) مجزومًا بالسكون، لا منصوبًا بالفتحة كما في الآية: (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)، فزكريا عليه السلام وجد نفسه عاجزًا عن الكلام، والله تعالى لم ينْهَهُ في الآية عن شيء.

فنَاداها مِن تَحتِها

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ {مريم: 23-24}.

- ما المُراد بقوله تعالى: (فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ)؟

هذا النداء لمريم حدث بعد وضعها لعيسى عليهما السلام مباشرة، وفيه دعوة لها بألّا تحزن، وأنْ تقرّ عينًا، فتأكل وتشرب، فهي في معيّة الله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ {مريم: 24-26}.

ومن أشهر ما قيل في تفسير هذه الآية أنّ المُراد بقوله تعالى: (وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ) هو جبريل عليه السلام، وهو قولٌ لا يحتمله السياق، ولا يتفق مع قواعد اللغة العربية، والسياق يدلّ على أنّ الذي ناداها هو ابنها عيسى عليه السلام، وسنذكر أهمَّ المُسَوِّغات التي تدعم هذا القول، وهي على النحو التالي:

أولاً: المعلوم في قواعد اللغة العربية أنّ الضمير في الجُمَل يعود على أقرب مذكور مُتَحدَّث عنه، والذي يبدو في السياق أنّ أقرب مذكور مُتَحدَّث عنه هو عيسى عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ {مريم: 22}، يُشير إلى الجنين الذي حملته مريم عليها السلام في بطنها وانتبذت به مكانًا قصيًّا، وهو بلا شك عيسى عليه السلام، والضمير في قوله تعالى: (فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ) يعود على مَن حملته مريم وانتبذت به مكانًا قصيًا، وهو عيسى عليه السلام.

ثانيًا: قول الله تعالى: (قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا)، والسَّريُّ هو الرجُل السيّد رفيع الشرف، وهذا ينطبق على عيسى عليه السلام، فهو رجلٌ وسيّدٌ رفيع الشرف، وهو نبيٌّ رسولٌ من أولي العزم، وقد رفعه الله إليه كما في قوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ {النساء: 158}، ولا ينطبق هذا المعنى على جبريل عليه السلام فهو مَلَك وليس رجلًا.

وفي قوله: (قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا) بُشرى منه لأُمِّه مريم عليهما السلام بأنَّ الله قد رزقك ابْنًا سَرِيًّا رفيعَ الشرف، ولا يمتنع أنْ يكون السَّرِيُّ هو جدول ماء، لتشرب منه مريم عليها السلام كما في الآية: (فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ)، فتكون كلمة (سَرِيّٗا) تدلّ على الأمرين معًا.

ثالثًا: في قول الله تعالى: (مِن تَحۡتِهَآ): إشارة إلى أنّ الذي ناداها هو ابنها عيسى عليه السلام، وإلا فما المُسوّغ لاختيار هذه الجهة (مِن تَحۡتِهَآ)؟ والمعلوم أنّ المولود عندما تضعه أمُّه فإنه يكون مِن تحتها، وأنّ صوته يكون من هذه الجهة.

ويؤكد هذا القول قراءةٌ صحيحةٌ أخرى للآية وهي: (فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا)، حيث جاءت كلمة: (مَن) بفتح الميم، وهي هنا اسم موصول بمعنى الذي، وهو ما يؤكد أنّ الذي ناداها هو ابنها عيسى عليه السلام الذي كان تحتها بعد الولادة، ولا مُسوّغ للقول بأنّ جبريل عليه السلام هو الذي كان تحتها، فلا يلزم أنْ يكون تحتها ليناديها.

رابعًا: وفي قول الله تعالى: ﴿ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥ ﴾ {مريم: 27}، إشارة إلى أنّ الكلام لا يزال عن عيسى عليه السلام، دون الالتفات إلى مذكور آخر، فهو الذي حملتْه مريم في بطنها وانتبذت به مكانًا قصيًا، وهو الذي ناداها من تحتها، وهو الذي أَتَتْ به قومها تحمله، وهو الذي أشارت إليه ليكلِّموه.

خامسًا: وقوله الله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ {مريم: 29}، يُشير إلى أنّ مريم عليها السلام عندما أتَتْ به قومها وأشارت إلى عيسى عليه السلام وهو في المهد، كانت تعلم علم اليقين أنّه يتكلم، وأنّ من آيات الله فيه أنّه يتكلم في المَهْد، وهي قد

سمعته بنفسها يناديها من تحتها، ولم تستغربْ لندائه، وهي من قبلِ أنْ تضعه كانت تعلم أنّه يتكلم، فالله تعالى لمّا بشّرها به قال: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ {آل عمران: 46}.

وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْم يُبعَثُ حَيًّا

تتحدث الآية السابقة عن نبيّ الله يحيى عليه السلام الذي آتاه الله الحُكم صبيًّا، ثم خَصَّه بالسلام عليه، فقال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ {مريم: 15}، وعند تأمُّل وتدبُّر هذه الآية الكريمة، فإننا نقف عند قوله تعالى: (وَيَوۡمَ يَمُوتُ)، الذي يدلّ على أنّ يحيى عليه السلام ستكون نهاية حياته مَوْتًا، لا قتلًا أو استشهادًا.

لكنّ الغريب أننا نجد كثيرًا من كتب التفسير، والكتب التي تتناول القَصَص القرآني، وقَصَص الأنبياء، تتحدث عن أنّ يحيى عليه السلام قد قُتِل، وأنّ رأسه قد قُطِع، وهو كلام لا أصل له في ديننا، فليس في القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة ما يُشير إلى مثل هذا الكلام، لا من قريب أو بعيد، بل هو مأخوذ من الإسرائيليات، ومن وَضْع القُصَّاص، وهي قِصص واهية متهافتة، ومتناقضة في معظمها.

ومن هذه القصص الواهية والمتناقضة ما يلي:

1. قصة تقول: إنّ المَلِك أراد أنْ يتزوج من ابنة أخته، فأفتى يحيى عليه السلام بحُرمة هذا الزواج، وعدم جوازه، فقتله المَلِك ليتخلّص منه.

2. وقصة أخرى تقول: إنّ المَلِك كان قد طلق زوجته ثلاثًا، ثم أراد أنْ يعود إليها بعد أنْ بانت منه، فأفتى يحيى عليه السلام بحُرمة ذلك، فقام المَلِك بقتله.

3. والقصة الأشهر: هي أنّ المَلِك (هيرودس) الذي كان حاكمًا في زمن يحيى عليه السلام، أراد أنْ يتزوج من الأم وابنتها، فأفتى يحيى عليه السلام بحُرمة ذلك، فطلبت البنت من المَلِك أنْ يُقدِّم لها رأس يحيى عليه السلام على طست (طبق) من ذهب، وقام هيرودس بهذا، وأمر بأنْ يُقتل يحيى عليه السلام، وجيء له برأسه على طست من ذهب، وقدّمه لهذه الفتاة.

وهذا كلام لا نعتمد عليه، ولا نأخذ به، ولسنا ملزمين بتصديق مثل هذه القصص الضعيفة والإسرائيليات التي لا أصل لها في ديننا، بل إنها تتعارض مع القرآن الكريم كما سنرى.

وسنعرض فيما يلي مجموعة من الأدلّة والشواهد التي تؤكد على أنّ يحيى عليه السلام لم يُقتل كما تزعم الإسرائيليات:

أوَّلًا: عند تدبُّر وتأمُّل الآية: (وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا)، فإننا نجد أنّها تُشير إلى أنّ يحيى عليه السلام لن تكون نهاية حياته بالقتل، فهو لن يُقتل قتلًا، بل ستكون نهاية حياته بطريق الموت الطبيعي، والفرق معلومٌ ابين القتل والموت، فالقتل ما كان بفعل

فاعل وتدخّل خارجي، أما الموت فلا يكون بفعل فاعل، بل يكون طبيعيًا.

وفي القرآن الكريم أمثلة يظهر فيها الفرق بين القتل والموت بشكل واضح، ومنها: قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ {آل عمران: 144}، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ {الأحزاب: 16}، وفي الآيتين إشارة إلى أنهما أمران مختلفان.

وهو نفسه ما نجده في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَمُوتُ)، فلو كان يحيى عليه السلام قُتِل كما تزعم الإسرائيليات، لكان التعبير بلفظ القتل لا بلفظ الموت، فلا ترادف في القرآن الكريم.

ثانيًا: قول الله تعالى: (وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ)، يشير بوضوح، وبشكل صريح، إلى أنّ يحيى عليه السلام لم يُقتل، فالقتل لا يتناسب مع السلام الذي خَصَّه الله تعالى به، فيحيى عليه السلام سيكون مولده بسلام، وسيكون موته بسلام، وسيكون بعثه بسلام، فهل يقول عاقل بعد هذه الآية بأنّه قُتل؟!

ثالثًا: يقول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

{مريم: 5-6}، والقول بأنّ يحيى عليه السلام قد قُتل يتنافى مع قوله تعالى: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ)، فيحيى عليه السلام قد ورث أباه فعلاً، فالله تعالى يقول عن زكريا عليه السلام: (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ)، ومن دعائه عليه السلام أنْ يرزقه وليًّا يرثه من بعده.

ومعلوم أنّ يحيى عليه السلام قد آتاه الله الحكم صبيًّا، فلو أخذنا بمزاعم الإسرائيليات، وأنه عليه السلام قد قُتل وهو صبي، فهذا يعني أنه لم يتزوج، ولم يُنجب، ولم يرث من أبيه ومن آل يعقوب ما يورثه لمن يأتي بعده، وهو يتنافى مع خوف زكريا عليه السلام الموالي من ورائه: (وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى)، ويتنافى مع قوله تعالى: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ).

وتالله لأكيدنَّ أصنامكم

يقول الله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ {الأنبياء: 52}.

هذه الآية جاءت على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام وقد رأى قومه يعكفون على تماثيل لهم، يلازمونها، ويؤدّون حركات لها اضطرت إبراهيم عليه السلام أنْ يسألهم: ما هذه التماثيل؟ وماذا تفعلون بها؟ ولماذا تعكفون عليها وتلازمونها؟

وهو عليه السلام لم تكن له مشكلة مع تماثيلهم سابقًا، ولكنه لما سألهم عنها: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا﴾ {الأنبياء: 52}، أجابوا: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ {الأنبياء: 53}، ومن هنا بدأ عليه السلام يشعر بالمشكلة وخطرها، فهي ليست مجرد تماثيل وصور لأشياء، ولكنَّ قومه يتَّخذونها آلهة وأصنامًا فيعبدونها، وعندها لم يصبر إبراهيم عليه السلام، وقرّر أنْ يبدأ بمواجهة هذه الوثنية، وهذا الشرك التي يمارسه أبوه وقومه، فقال لهم: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ {الأنبياء: 54-57}.

هذا الموقف الإيجابي من إبراهيم عليه السلام يسجِّله الله تعالى في القرآن الكريم، فهو لم يقبَل بأنْ تُعبد أشكالٌ وتماثيلُ من دون الله تعالى، لذلك فهو سمّى هذه التماثيل أصنامًا بعد أنْ صرَّح أصحابها بأنهم يعبدونها، وقرَّر عليه السلام مواجهتها وتحطيمها.

وهذه التماثيل لو لم تكن تُعبَد من دون الله تعالى، لما كانت أصنامًا، فالتمثال صورة الشيء ومثاله، لكنه عندما يعبده الناس فإنه يصير صنمًا، حتى وإنْ كان هذا التمثال عبارة عن مجسم للكعبة المشرفة، فإنْ وضعه الناس أمامهم ليعبدوه، فقد صار صنمًا يُعبد من دون الله تعالى، وإنْ لم يعبد فليس في الأمر مشكلة.

والكلام نفسه ينطبق على بعض التماثيل المُمْتهَنة في البيوت والمدارس ورياض الأطفال، فإذا كانت التماثيل على شكل حيوانات ومجسمات بأيدي الأطفال يتخذونها للّعب والمرح فهي ليست أصناماً، وإذا كانت على شكل عرائس وألعاب للبنات الصغيرات فهي ليست أصنامًا.

وأهل أصول الفقه يقولون: الأحكام تدور مع العِلَل وجودًا وعَدَمًا، فإذا وجدت عِلّة التحريم وُجِد التحريم، وإبراهيم عليه السلام لم يعترض على التماثيل إلا بعد سؤال أصحابها عنها، فلما عَلِم أنهم يتخذونها

للعبادة من دون الله تعالى حطَّمها، وواجَه أصحابها، فقد كانت مشكلته عليه السلام مع الأصنام التي تُعبد من دون الله، لا مع التماثيل كتماثيل، وقد قال الله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ {سبأ: 13}، فقد كان الجن يعملون له التماثيل لأسباب مختلفة، لكنها لم تكن أصنامًا، فالتمثال لا يكون صنمًا إلا إذا عُبد.

والصّنميّة يمكن أنْ تكون في البشر أيضًا، ففرعون في مصر كان صنمًا يُعبد من دون الله تعالى، وكان يقول: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ {النازعات: 24}، و ﴿ما أُرِيكُمْ إِلّا مَا أَرَى وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ {غافر: 29}، ووجد من يطيعه ويصدقه ويعبده: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ {الزخرف: 54}.

إنّ هناك أناسًا يعبدون جماداتٍ، وحيواناتٍ، ورموزًا مختلفة، ويعبدون أفكارًا، ومناهج من دون الله، وكل ما يُعبد من دون الله فهو صَنَم، لذلك قال إبراهيم عليه السلام لقومه: (وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم) ولم يقل: لأكيدن تماثيلكم، فهو ليس له مشكلة مع التماثيل إلا عندما عبدها أصحابها.

مَثْــوَى

يردد بعض الوعاظ والدعاة مقولات تُحذِّر من استعمال كلمة: (مثوى) في الأدعية للأحياء أو الأموات، كأنْ نقول: (اللهم اجعل مثواه الجنة)، أو أنْ نقول: (انتقل فلان إلى مثواه الأخير)، ويقولون: إنّ كلمة (مثوى) لا تُستخدم إلا مع الكافرين والظالمين والمتكبرين، وهي كلمة تناسب النار لا الجنة، ويستشهدون بعدد من الآيات في القرآن الكريم، ليُدلِّلوا على صحة ما يقولون، ومن هذه الآيات:

- قول الله تعالى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {آل عمران: 151}.

وقول الله تعالى: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ {النحل: 29 }

– وقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ {العنكبوت: 68}، و{الزمر: 32}.

- وقول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ {الزمر: 60}.

- وقول الله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ {الزمر: 72}.

- وقول الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ {غافر: 76}.

- وقول الله تعالى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾{فصلت: 24}.

- وقول الله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ {محمد: 12}.

وليست هذه الآيات والمواقع في القرآن وحدها التي وردت فيها كلمة (مَثْوَى)، فالذي يريد أنْ يُحذِّر الناس، ويستخلص قانونًا أو قاعدة عامة، يجب عليه أنْ يستقرئ كل الآيات في القرآن الكريم التي اشتملت على كلمة: (مَثْوَى)، قبل أنْ يطلق مثل هذا التعميم، فقد وردت كلمة (مَثْوَى) في القرآن الكريم في سياقات أخرى ليس فيها ظالمون، ولا كافرون، ولا متكبرون، ووردت في آيات وسياقات لا تتحدث عن النار أو جهنم أو العذاب، ومن هذه السياقات:

1. قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ {القصص: 45}، أيْ وما كنت يا محمد مقيمًا بين أهل مدين، وهو سياق ليس فيه ذكر للنار أو الكافرين والمتكبرين.

2. قول الله تعالى على لسان عزيز مصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ {يوسف: 21}، أيْ أكرمي إقامته، وهيِّئي له مكانًا كريمًا مريحًا حسنًا يقيم فيه، والكلام هنا ليس عن النار، ولم يُذكَر فيه الكافرون والمتكبرون والظالمون.

3. قوله الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ {يوسف: 23}، أيْ إنّ ربي أحسن مكان إقامتي، وجعلني في مكان كريم وحسن، ولا يشير السياق إلى النار أو الكافرين والظالمين والمتكبرين.

إنّ كلمة (مَثۡوَى) لا تدل على مكان مريح أو متعب، ولكنها تدل فقط على مكان الإقامة والمُكث، والذي يمكن أنْ يكون مريحًا أو متعبًا، وذلك بحسب السياق الذي جاءت واستُعملت فيه.

وقد جاء الفعل من هذه الكلمة في سورة العنكبوت بقراءة متواترة صحيحة، قرأ بها حمزة وخلف وغيرهما، وهي قول الله تعالى عن المؤمنين: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُثْوِينهم من الجنة غرفًا)، وهي في رواية حفص عن عاصم: (لَنُبَوِّئَنَّهُم).

وقوله تعالى: (لنثويَنَّهُم من الجنة غرفًا): أيْ سنجعل لهم مكان إقامة وسكنًا في الجنة، وهو ما يؤكد أنّ هذه الكلمة ومشتقاتها تُستعمل في سياقات مختلفة، ولا يصحّ تحذير الناس من استخدامها في أدعيتهم لأنفسهم أو لغيرهم.

واذكر ربَّك إذا نَسِيت

يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ {الكهف: 24}.

المشهور في فهم الناس لقوله تعالى: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)، أنّ ذكر الله تعالى يجعل من نَسِي شيئًا أنْ يتذكره ويسترجعه، وهذا أمر غير صحيح، فالآية جاءت في سياق التوكل على الله تعالى، والثقة بما عنده، وعدم الغفلة عن هذا، وحتى نتمكن من تدبُّر الآية وفهم المُراد منها، فلا بدّ من الوقوف عند بعض الإشارات فيها:

أولًا: الآية جاءت في سياق الحديث عن أصحاب الكهف الذين ظنّ كثير من الناس أنّ الله نسِيَهم، وأنّهم اختفَوا عن الأنظار، ولا يعلم أحدٌ من الناس بحالهم، لكنّ ربَّهم كان يتولّى أمرهم، ويرعاهم، ويقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، ولم يَنْسَهُم، وأعثر عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حق، وأنّ قصتهم جاءت تثبيتًا من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين في كل زمان ومكان، فإنْ نسيت هذا يا محمد، فاذكر ربك ومعيته: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ).

ثانيًا: قول الله تعالى: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ): استعمال كلمة (ربك) في الآية فيه إشارة إلى رعاية الله تعالى لعباده، فهو الربّ المُرَبِّي والناصر والرزَّاق والهادي والوكيل الذي يرعى عباده، ويتولَّى أمورهم.

والله تعالى في هذه الآية أمر نبيّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بذكر ربّه، ولم يقل له: اذكر الله، وذلك ليكون على يقين بأنه محفوظ ومكلوء بعناية ربه، ولا ينبغي له أنْ ينسى هذه الحقيقة، فإنْ نَسِي في لحظة تكالبت فيها عليه قوى الأرض، وعوامل اليأس والقنوط، فعليه أنْ يذكر ربه الذي يرعاه، والذي هو رب كل شيء ومليكه: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ).

ثالثًا: لقد جاء قول الله تعالى: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)، بعد قوله تعالى: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ)، فكل شيء يحدث في هذا الكون فهو يحدث بمشيئة الله تعالى الربّ المدبّر لهذا الكون، والمُصرّف لكل الأحداث فيه، فلا تنسَ ربّك يا محمد، ولا تظنّ أنه بإمكانك أنْ تصنع المستقبل من غير مشيئة الله تعالى، فلا تقل: سأفعل كذا وكذا من الأفعال والأحداث غدًا، أيْ في المستقبل، إلا وأنت على يقين أنّ المستقبل بيد الله وتحت مشيئته، وكذلك كان الماضي والحاضر، فإنْ نسيت ذلك، فاذكر ربك: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ).

رابعًا: وبعد قوله تعالى: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)، يأتي إرشاد وتوجيه من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنْ يلجأ إلى ربه، وأنْ يسأله حاجته بصيغة: (رَبِّي): (وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا)، فلا تظنّ يا محمد أنّ ما أنت عليه الآن هو غاية ما يُراد من الرشاد، فدائمًا هناك ما هو أقرب من هذا رشدًا، فإنْ نسيت هذا، فاذكر ربك: (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ).

وبعد هذه الإشارات المستنبطة من الآية الكريمة، يمكننا القول:

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر ربك كما ذكر أصحاب الكهف ربهم، فكان معهم، وكان ناصرًا لهم، وراعيًا وهاديًا.

واذكر ربك يا محمد إذا نسيت، ولا تظنّ أنّ هؤلاء الأعداء الذين يحاربونك، ويحاربون أصحابك غائبون عن الله تعالى، فالله تعالى لا يغفل عما يعملون.

واذكر ربّك ومُرَبِّيك يا محمد، ولا تظنّ أنّه ينساك، فأنت بعين الله، ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ {الطور: 48}، واذكر ربك يا محمد واقرأ كلام ربك: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ {الضحى: 1-3}.

واعلم يا محمد أنّ المستقبل بيد الله تعالى، وأنّ كل ما يخطط الناس لفعله والقيام به، لا يكون إلا بعد مشيئة الله، فلله الأمر من قبل ومن بعد، (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ).

والكلام وإنْ كان مُوجَّهًا للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه أيضًا لكل المسلمين والمؤمنين في كل زمان ومكان، ليعلموا أنّ الله تعالى هو الربّ الذي يقدر كل شيء، وأنّ التوكّل عليه من لوازم الإيمان به، فلا يأس ولا قنوط في نفوسهم، ولا مكان في حياتهم للقلق، فإنْ نَسُوا في لحظةٍ دبّ الخوف فيها إلى قلوبهم، فليذكُروا ربّهم الذي يدبّر الأمر.

وطُورِ سِينِينَ

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ {التين: 1-4}.

- ما المُراد بقوله تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ)؟
- هل هو جبل الطُّور الموجود في الجنوب الغربي لشبه جزيرة سيناء؟
- أم أنّه جبل الطُّور الموجود في بيت المَقدِس بفلسطين؟

لقد أقسم الله تعالى في الآيات السابقة بأمور أربعة:

1. وَٱلتِّينِ: وهو الفاكهة المعروفة، والتي تظهر غالبًا في فصل الصيف، وتُزرع في أماكن كثيرة ومختلفة من العالم، ولا نستطيع أنْ ننسُبها لبلد أو أرض محددة.

2. وَٱلزَّيۡتُونِ: وهو الشجرة المباركة المعروفة التي ذكرها الله تعالى في سورة النور: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ {النور: 35}، وجاء ذكرها أيضًا في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾ {المؤمنون: 20}، ونستطيع أنْ ننسُب أصلَها إلى أرض محددة وهي طور سَيناء كما في الآية السابقة، لكنها تُزرع الآن في بلاد كثيرة.

3. وَطُورِ سِينِينَ: والذي نحن بصدد التعرف عليه في هذا البحث، فمن الناس مَن يقول: إنه جبل الطور الموجود في شبه جزيرة سيناء، استنادًا إلى الإسرائيليات المنتشرة في الكتب، ومنهم مَن يقول: إنه جبل الطور الذي في بيت المقدس بفلسطين، وهو موضوع هذا البحث.

4. وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ: وهو بيت الله الحرام الموجود في مكة المكرمة، والله تعالى يشير إليه باسم الإشارة: (هذا)، وهو كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ {البلد: 1-2}.

والمُلاحَظ في الآيات السابقة أنّ الله تعالى قد أقسم بفاكهتين هما: التين، والزيتون، وهو قَسَم يُلفت انتباهنا إليهما، لنعرف أسرارَهما، ونفعَهما، واستعمالَهما في الحياة اليومية، والصناعة، والصحة، والغذاء.

وأقسم في السورة ذاتها بمكانين وموقعين عظيمين من الأرض، ليُلفت انتباهنا إليهما، وإلى عظمتهما وأسرارهما، وما حدث عندهما، وهما: طور سينين في الأرض المقدسة (بيت المقدس) كما سيتّضح لاحقًا، وبيت الله الحرام بمكة.

وسنحاول في هذا البحث بإذن الله تعالى أنْ نقف على الأدلّة والقرائن التي تبيّن لنا المُراد بقوله تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ)، ومكانه ومكانته، وهي كما يلي:

أوَّلًا: معنى (وَطُورِ سِينِينَ):

1. في المعاجم اللغوية:

- "الطُّور: الجبل، والطُّور: جبلٌ يُنبِت الشجر".

- "سينين: السِّين هو الحُسن، وطور سينين: هو الجبل المثمر الحَسَن".

- "وسينين وسيناء شيءٌ واحد".

2. في كتب التفسير:

- جاء في تفسير: (الجامع لأحكام القرآن الكريم) للقرطبي:

"طور سينين: (كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين وسيناء، وقال الأخفش: طور: جبل، وسينين: شجر".

"وإنما أقسم الله بهذا الجبل لأنه بالشام، والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: (إلى الأقصا الذي باركنا حوله)".

- وفي تفسير أبي علي الجبّائي:

"أقسم الله سبحانه بالجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة".

- وفي تفسير (النكت والعيون) للماوردي:

"الطور: ما أنبت، وما لا ينبت فليس بطور".

- وفي (التفسير الكبير مفاتيح الغيب) للرازي:

"الطور: الجبل، وسينين: الحُسن".

- وجاء في (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير:

"فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا، إنما يقال له جبل".

– وفي تفسير مُقاتل:

"وطور سينين: يعني الجبل الحَسَن، وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام يوم أخذ التوراة، وكل جبل لا يحمل الثمر لا يقال له سيناء".

"والطور: الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة".

– وفي تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي:

"ولم يُختَلف في (طور سينا) أنه جبل بالشام الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ومعنى: (سينين) ذو الشجر".

"والطور: الجبل، وفي الشام جبل يسمى الطور، وهو طور سيناء، وهو الذي كلّم الله عليه موسى عليه الصلاة والسلام".

– وفي تفسير النابلسي:

"الطور في أصل اللغة هو الجبل الأخضر، أو الجبل المشجر، أو أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده، فأقسم به لأنه مكان مقدس، كما قال الله تعالى: (وطور سينين)".

– وفي تفسير (زاد المسير) لابن الجوزي:

"الطور: الجبل، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وأنه جبل بالشام".

"فأما سينين: فهو لغةً في سيناء، وقال ابن الأنباري: سينين هو سيناء، وقال مقاتل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسيناء".

- وفي تفسير الذهبي:

"الطور الجبل، وسينين: المبارك".

- وفي تفسير: (البحر المديد) لابن عجيبة الحسني:

"وطور سينين: أضيف الطور وهو الجبل إلى سينين وهو البقعة، وهو الجبل الذي ناجى موسى عليه السلام ربه، ويقال له: سينين وسيناء".

- وفي تفسير: (روح البيان) للبَرْوَسِيّ:

"وطور سينين: وسينين وسيناء عَلَمان للموضع الذي هو فيه، ولذلك أضيف إليهما، ومعنى سينين: ذو الشجر، أو حَسَن مبارك".

"وفي كشف الأسرار: أصل سينين: سيناء بفتح السين وكسرها، وإنما قال هنا: سينين، لأنّ تاج الآيات النون، كما في سورة الصافات: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾، وهو إلياس، فخرج على تاج آيات السورة".

- وفي تفسير (فتح القدير) للشوكاني:

"وطور سينين: وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى اسمه الطور، وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما جاء في

قوله تعالى: (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)، وأعظم بركة حلّت به، ووقعت عليه، تكليم الله لموسى عليه السلام".

- وفي (التفسير المنير) للزحيلي:

"وطور سينين: الجبل الذي كلّم الله تعالى موسى عنده، وناجى عليه موسى ربه، وسينين وسيناء أسماء للموضع الذي فيه".

- وفي تفسير الطبري:

"وعن قتادة: وطور سينين جبل مبارك بالشام".

- وفي تفسير (معالم التنزيل) للبغوي:

"والطور: أراد به الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة، أقسم الله به".

ويمكن تلخيص أهم ما اشتركت فيه أقوال المفسرين كما يلي:

1. طور سينين: هو الجبل المثمر المشجر الحسن المبارك.
2. سينين وسيناء شيء واحد، وهما اسمان لنفس الموضع.
3. طور سينين: هو جبل الطور المعروف في بيت المقدس بالشام.
4. الجبل الذي كلّم الله تعالى عنده نبيه موسى عليه السلام هو جبل الطور الموجود في بيت المقدس.

ولا شكّ أنّ هذه الأقوال للعلماء والمفسرين، تعتبر مؤشرًا قويًّا نستأنس به على أنّ الجبل الذي ناجى موسى عليه السلام ربه عنده هو

جبل الطور الذي ببيت المقدس، وليس الذي في صحراء شبه جزيرة سيناء.

وسنعرض فيما يلي أهم الأدلّة التي تؤكد على أنّ المُراد بقوله تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ) هو جبل الطور الموجود ببيت المقدس بفلسطين:

الدليل الأول: قداسة المكان الذي ناجى موسى عليه السلام فيه ربه:

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ {طه: 11-12}.

الآيات تتحدث عن مناداة الله تعالى لموسى عليه السلام عندما أتى النار التي رآها وآنسها من بعيد، فقال له ربه: (إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى)، ومعلومٌ أنه ليس في كل الأرض مكانٌ، أو موضعٌ مقدَّس أخبرنا الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم بقداسته، إلا الأرض المقدّسة (بيت المقدس) في فلسطين، وذلك في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ {المائدة: 21}.

والوادي المقدس (طُوى) الذي وقف فيه موسى عليه السلام بجانب الطور، قد أخذ قداسته من قداسة الأرض المقدسة التي فيها جبل الطور،

وما سُميت القُدس بالقُدس إلا لقداستها وقداسة الموضع الذي هي فيه، وقد سُمّي المسجد الأقصى بالبيت المُقدّس لقداسته، وقداسة الأرض التي هو فيها.

ولا ينطبق هذا على جبل الطور الذي في الجنوب الغربي لشبه جزيرة سيناء، فليس هناك دليل يشير إلى قداسته، أو قداسة الأرض التي هو فيها، ولا يصحّ لنا أنْ ننسب لها قداسة من عندنا من غير دليل، فالقداسة أمر من الله تعالى وحده.

وقلب القداسة في فلسطين هو بيت المقدس (الأرض المقدسة)، والوادي المقدس (طُوَى) الذي كلّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام هو جزء من هذه الأرض المقدسة، وهو طور سينين الذي أقسم الله تعالى به في سورة التين.

وفي الحديث الشريف يُلفت النبي صلى الله عليه السلام انتباه المسلمين إلى بيت المقدس، ويُسمِّي الأرض التي ستنزل فيها الخلافة الأخيرة بالأرض المقدسة، فعن عبد الله بن حوالة قال: (... ثم وضع يده على رأسي، أو قال: على هامتي، ثم قال: يا ابنَ حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرضَ المُقدّسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك)[1].

[1] صحيح أبي داود/الألباني 2535

وموسى عليه السلام لما جاءه ملَك الموت سأل الله تعالى أنْ يُدنيَه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، وهي الأرض التي امتنع قومه من دخولها وقالوا: إنّ فيها قومًا جبارين، فحرَّمها الله عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُرسِل ملَكُ الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاء صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فردّ الله عليه عينه، وقال: ارجع، فقل له: يضع يده على مَتْن ثَوْر، فله بكل ما غَطَّت به يده بكل شعرة سنة، قال: أيْ رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أنْ يُدنيَه من الأرض المقدسة رميةً بحَجَر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره، إلى جانب الكثيب الأحمر)[1].

ولا شك أنّ هذه أدلّة واضحة وصريحة على أنّ الوادي المقدس (طُوى) الذي ناجى موسى عليه السلام ربه عنده بجانب جبل الطور، هو جزء من أرضٍ مقدسةٍ لا يوجد غيرها في كل الأرض، وهي الأرض المقدسة (بيت المقدس) بفلسطين.

وفي الوقت ذاته لا يوجد أيّ دليل على أنّ شبه جزيرة سيناء أرض مقدسة، أو أنّ فيها واديًا مُقدَّسًا.

---

[1] صحيح البخاري 1339

الدليل الثاني: وجود جبل في الأرض المقدسة اسمُه الطُّور:

يقع جبل الطور في بيت المقدس بفلسطين، وهو أعلى جبل في المدينة المقدسة، ويبلغ ارتفاعه: (826) مترًا فوق سطح البحر، ويقع إلى الشرق من المسجد الأقصى المبارك مباشرة، ويُطلق عليه الناس (جبل الزيتون)، و(طُور زيتا) لاشتهاره بكثرة أشجار الزيتون فيه، وهو أيضًا جبل بيت المقدس، أو (جبل الخَمَر) الذي سيُحَرِّز إليه عيسى عليه السلام أصحابَه من يأجوج ومأجوج كما سنُبيّن لاحقًا بإذن الله.

وهو جبل مُقدَّس عند النصارى أيضًا، حيث توجد عليه كنيسةٌ لهم تُسمّى (كنيسة الصعود)، ويعتقدون أنّ نبي الله عيسى عليه السلام قد صعد إلى السماء من المكان الذي فيه هذه الكنيسة.

وإلى الغرب من جبل الطور وادٍ يفصله عن المسجد الأقصى يُسمّى حاليًا: (وادي قَدْرون، ووادي سلوان)، والذي هو الوادي المُقدّس (طُوى) كما نفهم من الآية: (إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى).

والذي يؤكد ما نذهب إليه قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ {القصص: 44}، فكلمة: (ٱلْغَرْبِيِّ) تُشير إلى أنّ وادي (طُوى) الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام يقع في الجانب الغربيّ من جبل الطور.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا ﴾ {القصص: 46}، جاء القول صريحًا بأنّ (الغربيّ) هو (جانب الطور)، فالنداء وقضاء الأمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كان في الجانب الغربيّ للطور، وهو ما يشير إلى أنّ الوادي الذي بين الجانب الغربي لجبل الطور والمسجد الأقصى، هو الوادي المقدس (طُوى) الذي كلّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام.

الدليل الثالث: جبل الطُّور حِرْزٌ للمؤمنين:

جاء في الحديث الصحيح عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجتُ عبادًا لي، لا يَدانِ لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمُرّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمُرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء...)[1].

وفي رواية أخرى عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمَر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا مَن في الأرض، هلُمّ

[1] صحيح مسلم 2937

نقتل مَن في السماء، فيرمون نُشابَهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا، ويُحْصَر نبيُّ الله عيسى وأصحابه...)[1].

ومن خلال فهمنا للحديثين الشريفين يمكن الإشارة إلى:

1. عيسى عليه السلام سينزل من السماء، وسيكون قائد المسلمين في فلسطين، وسيُحارب الدجّال ومن معه من اليهود، وسيقتله عند باب لُدّ، قبل خروج يأجوج ومأجوج.

2. عند خروج يأجوج ومأجوج فإنهم سينحدرون من كلّ مكان إلى الأرض المباركة فلسطين، لمقاتلة عيسى عليه السلام، والقضاء على دولة الإسلام بقيادته، وسيدخلونها من جهتها الشرقية، حيث يشربون كل ماء بحيرة طبرية.

3. وبعد دخول يأجوج ومأجوج لفلسطين يُوحي الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام أنْ يحافظ على جيشه، فيأمرهم بأنْ يتحرّزوا بجبل الطور، وهو جبل بيت المقدس المعروف.

4. لن يتمكن يأجوج ومأجوج من دخول القدس، ولن يُمَكنَّهم الله تعالى من عيسى عليه السلام، ولا من جنده ومعه من المؤمنين.

5. جبل الطور المذكور في الحديث الأول، هو نفسه جبل بيت المقدس المذكور في الحديث الثاني، وهو جبل الخَمَر، وسُمّي بالخَمَر، لأنّه

[1] صحيح الجامع 4166، وأخرجه مسلم باختلاف يسير برقم 2936.

يُستَتَر فيه لكثرة ما فيه من أشجار الزيتون، أو لأنه مستور وممنوع على يأجوج ومأجوج من الله تعالى.

6. لا يمكن أنْ يكون الطور المذكور في الحديث هو طور شبه جزيرة سيناء، فقد تم التصريح من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه جبل بيت المقدس، ولا اجتهاد مع وجود هذا النص الصريح، ومن الناحية الفعلية والعملية فإنّ عيسى عليه السلام لن يكون هو وجنده في جنوب سيناء، بل سيكونون في فلسطين وبيت المقدس، فهُما ساحة وميدان الحرب.

7. وقوله تعالى: (وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) فيه دلالة على أنّ يأجوج ومأجوج سيدخلون فلسطين من المناطق العالية التي تحيط بها وتحُدّها من الشمال والشرق، فالحَدَب فيه معنى الارتفاع، ومعلوم أنّ حدود فلسطين الشرقية تسمّى الأغوار من شدة انخفاضها، وهو ما يشير إلى أنّهم لن يأتوا من جهة الغرب حيث البحر المتوسط، فالبحر ليس حَدَبًا.

الدليل الرابع: سيناء تخضع لسيادة فرعون:

بعد حادثة قتل موسى عليه السلام لرجل من أقباط مصر، فإنه شعر بخطئه، وندم على هذا الفعل، واستغفر ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {القصص:

16}، لكنّ الأمر لم يقف عند هذا الحدّ، ودخل موسى عليه في مرحلة من الخوف والخطر، خاصّة بعد أنْ انكشف أمر حادثة القتل، وبدأ الملأ يخططون للقبض عليه وقتله، وعندها أرسل الله تعالى إليه مَن يخبره بما يخططون: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {القصص: 20-21}.

وخرج موسى عليه السلام من مصر خائفًا يترقب، يخشى أنْ يعرف الفراعنة طريقه فيُدركوه، وينتقموا منه، وهداه الله تعالى إلى أرض مَدين، والتقى بالشيخ الكبير، وقصّ عليه القَصص، فطمْأَنه بأنه قد نجا، وأعلمه بأنه الآن في مأمن من فرعون وملئه: (فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) (القصص: 25).

فموسى عليه السلام مطلوب للفراعنة، وهارب منهم، وليس من الحكمة أنْ يعود إلى مصر التي خرج منها خائفًا يترقب، وقد أظهر هذا في كلامه مع الله تعالى عندما كلفه بالذهاب إلى فرعون، قال: (وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) (الشعراء: 14)، وقال معبرًا هو وأخوه هارون عليهما السلام عن خوفهما من بطش فرعون فقالا: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ

أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ {طه: 45-46}، فلولا هذا التطمين من الله تعالى له، وأمره له بالذهاب إلى فرعون، لما فكر في دخول مصر من جديد.

ومعلوم أنّ شبه جزيرة سيناء هي أرض مصرية، وأنها كانت في زمن موسى عليه السلام تقع تحت حكم وسيادة الفراعنة، ولذلك فإنّ الشيخ الكبير في مَدين قال لموسى عليه السلام: (نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)، لأنه خرج من حدود مصر التي تخضع لسيادة وحكم الفراعنة.

وموسى عليه السلام بعد أنْ قضى الأجل، ما كان ليدخل شبه جزيرة سيناء التي تخضع لحكم الفراعنة، وهو ما يجعل الحديث عن أنّ جبل الطور الذي كلّم الله تعالى موسى عنده هو في جنوب شبه جزيرة سيناء أمرًا مستبعدًا، حيث لم يدخل موسى عليه السلام سيناء، ولو افترضنا أنه دخل سيناء يريد العودة إلى قومه في مصر، فلماذا يتوجّه نحو أقصى الجنوب الغربي في صحراء سيناء؟!

أين ذهب موسى عليه السلام مع أهله بعد مغادرة مَدين؟

بعد أنْ قضى موسى الأجل، توجّه إلى بيت المقدس في الأرض المباركة، والذي يدفعنا لهذا القول ما يلي:

1. لا شكّ أنّ موسى عليه السلام يعرف نَسَبَه وآباءه وأجداده الأوائل إبراهيم وإسحق ويعقوب، ويعلم أنّ إبراهيم عليه السلام قد هاجر إلى

الأرض المباركة فلسطين، وأنّ يعقوب عليه السلام كان وأبناؤه فيها قبل توجههم إلى مصر، والإقامة فيها مع يوسف عليه السلام، فالذهاب إلى هذه الأرض التي كان فيها أجداده أقرب إلى نفسه، خاصة أنه لا يستطيع دخول مصر ليقيم فيها مع قومه.

2. ولا شك أنّ موسى عليه السلام كان يعلم من قومه أنّ فلسطين أرض مباركة، وأنّ فيها الأرض المقدسة (بيت المقدس)، وأنّ الإقامة فيها خير من الإقامة في أيّ مكان آخر، لذا فقد سار بأهله نحو الأرض المباركة فلسطين، واقترب من المسجد الأقصى (بيت المقدس)، حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى.

3. إنّ اصطحاب موسى عليه السلام لأهله معه أمر يستوجب ضمان الأمن والأمان الذي يجلب الاطمئنان إلى عدم وجود أخطار مُحقَّقة عليه وعلى أهله، وفي حال توجّهه إلى مصر فإنّ خطر القبض عليه وقتله أمر متوقع، ولذا فإنّ دخوله سيناء ومصر أمر مستبعد.

وفي الوقت نفسه فقد اصطحب موسى عليه السلام غنمه معه التي كان يرعاها ويشرب ويأكل منها كما نفهم من قول الله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) (طه: 17-18)، وهو ما يدعونا إلى استبعاد ذهاب موسى عليه السلام بغنمه إلى صحراء شبه جزيرة سيناء

التي تنتشر فيها الصخور البركانية، والجبال النارية والمتحولة، وسيكون من المشقة عليه فيها أنْ يرعى غنمه.

4. من المتوقع أنْ يكون موسى عليه السلام قد جاء إلى الأرض المباركة عدّة مرات قبل هذه المرة التي يصطحب فيها أهله، فهو كان يعمل أجيرًا عند صهره مدّة لا تقل عن عشر سنوات، ومعلوم أنّ أهل الجزيرة العربية، والتي تقع فيها مدين، كانوا يتبادلون التجارة مع اليمن والشام، وهو ما عُرف بعد ذلك عند العرب برحلة الشتاء والصيف، وأغلب الظنّ أنّ موسى عليه السلام كان يذهب إلى الشام أحيانًا، لجلب حاجات صِهره من البضائع، وهذا جعله يعتاد على دخول الأرض المباركة، ويعرف الطريق إليها، والآن هو يختار الذهاب إليها للإقامة فيها هو وأهله، بعد أنْ قضى أجله مع صِهره.

وبعد هذا العَرض للأدلة المختلفة، فإنّ القول بأنّ موسى عليه السلام قد ناجى ربه عند جبل الطور الذي في جنوب شبه جزيرة سيناء أمر مستبعد، وهو ترديد لخرافات يهودية، وإسرائيليات لا دليل عليها.

والراجح هو ما تؤكده الأدلّة من أنّ جبل الطور، والوادي المقدس (طوى)، هما في بيت المقدس بفلسطين، وأنّ موسى عليه السلام قد ناجى ربه، وأنزل عليه التوراة عند جبل الطور ببيت المقدس.

يَتِيهُونَ في الأَرضِ

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ {المائدة: 21-26}.

استكمالًا للبحث السابق، والذي دلّلنا فيه على أنّ المُراد بقول الله تعالى: (وَطُورِ سِينِينَ) هو جبل الطور الموجود في بيت المقدس بفلسطين، فإننا في هذا البحث سنحاول الوقوف على حقيقة الأمر في تيه بني إسرائيل، ومعرفة مكانَه وكُنْهَه، وذلك من خلال الأدلّة الصحيحة من

كتاب الله تعالى، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تحتمله اللغة من دلالاتٍ ومعانٍ..

وقبل الحديث عن التِّيه والمُراد به، فلا بد من معرفة المُراد بقوله تعالى: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ)، فما الأرض المقدسة؟

أوَلاً: الأرض المقدسة في معاجم اللغة:

الأرض المُقَدّسة: تعني المُطَهَّرة، يُقال للسَّطْل: القَدَس، لأنه يُتطهر منه، وسُمِّي بيت المقدس بهذا الاسم، لأنه يُتطهر فيه من الذنوب.

ثانيًا: الأرض المقدسة في كتب التفسير:

تتراوح معظم أقوال المفسرين في تعريف الأرض المقدسة بين: (بيت المقدس، والطُّور وما حوله، وفلسطين، وأريحا، والشام).

وقد جمعتُ بعض هذه الأقوال على النحو التالي:

1. جاء في تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي:

"قال قتادة: هي الشام، وقال مجاهد: هي الطور وما حوله، وقال السّدي: هي أريحا".

2. جاء في تفسير (تهذيب التفسير وتجريد التأويل) لعبد القادر ابن شيبة الحمد:

"والمُراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس، والمقدسة: المطهرة المباركة".

3. وفي (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير:

"وعن ابن عباس قال: الأرض المقدسة: هي الطور وما حوله، وعنه أنها أريحا، وفي هذا نظر لأنّ أريحا ليست هي المقصود بالفتح".

4. وفي تفسير (البحر المديد) لابن عجيبة الحسني:

"الأرض المقدسة: أيْ أرض بيت المقدس، قدَّسها الله".

5. وفي تفسير (روح البيان) للبَروسيّ:

"الأرض المقدسة: هي أرض بيت المقدس، طُهرت من الشرك، وجُعلت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين".

6. وفي تفسير الطبري:

"عن مجاهد: أنها الطور وما حوله، وعن قتادة: أنها الشام".

7. وفي (التفسير المنير) للزحيلي:

"أي أرض بيت المقدس، أو فلسطين، للسُّكنى لا للمُلك".

8. وفي تفسير (الكشاف) للزمخشري:

"الأرض المقدسة: يعني أرض بيت المقدس".

9. وفي تفسير (فتح القدير) للشوكاني:

"الأرض المقدسة هي الطور وما حوله".

10. وفي تفسير (محاسن التأويل) للقاسمي:

"يعني أرض بيت المقدس التي كانت مقدسةً بمُساكَنة مَن مضى من الأنبياء".

11. وفي تفسير (زاد المسير) لابن الجوزي:

"عن الضحاك قال: المُراد بهذه الأرض إيلياء وبيت المقدس".

12. وفي تفسير (النكت والعيون) للماوردي:

"هي أرض بيت المقدس، وهو قول ابن عباس".

ومما سبق يتبين أنّ المُراد بالأرض المقدسة لدى معظم المفسرين هي المدينة المقدسة إيلياء، والمعروفة بـ (بيت المقدس)، والتي فيها جبل الطور، والوادي المقدس (طُوى) الذي كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام عنده.

وممّا يؤكد أنّ المُراد بالأرض المقدسة في قوله تعالى: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ) هو بيت المَقدِس (القُدْس)، ما يلي:

أولًا: أنّ بيت المقدس مدينة قديمة لها سورُ وباب، وليست أرضًا مكشوفة، وهو ما تشير إليه الآية: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)، وهو نفسه ما نجده في الآية: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ {البقرة: 58}، فوجود باب معروف لهذه الأرض المقدسة يدل على أنها مدينة محصنة، وليس من السهل دخولها

دون قتال، ولو كان الأمر بالدخول لعموم الأرض المباركة أو لفلسطين، لما كان يلزم ذكر كلمة (الباب)، والتي جاءت مُعرّفة.

ثانيًا: إنّ قوله تعالى: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ) يتوافق مع اسم مدينة بيت المقدس الموجودة في فلسطين، فليس في كل الشام أرض أو مدينة يدل اسمها على القداسة إلا (بيت المَقدِس) و(القُدْس)، وقد جاءت (الأرض المقدسة) مُعرّفة بأل التعريف، وهو ما يدلّ على أنّ هذه الأرض معروفة لموسى عليه السلام ولبني إسرائيل باسمها وقداستها.

ثالثًا: في كل المَواطن التي أُشير فيها إلى الشام وفلسطين في القرآن الكريم، فإنها لم توصف بالمُقدّسة، ولم تأخذ صفة القداسة، ولكنها كانت دائمًا توصف بأنها مباركة، وأنّ الله بارك فيها للعالمين، ولم توصف بالقداسة إلا الأرض المقدسة (بيت المقدس).

رابعًا: إنّ استلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمفاتيح الأرض المقدسة (القُدْس – بيت المقدس) من حاكمها النصراني صفرونيوس، يؤكد أنها مدينة محصنة ولها أبواب ومفاتيح، وهي ليست كل الأرض المباركة فلسطين.

وفي قول الله تعالى: (إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ) تظهر خصوصية بيت المقدس، والأرض المقدسة، في مباركة الله تعالى لأكناف بيت المقدس وأرض فلسطين المحيطة به، والله تعالى لم يقل:

الذي قدّسْنا حوله، بل قال: (ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ)، فبيت المَقدس له قداسة من الله تعالى، فهو مُقدَّس، وما حول بيت المَقدس باركه الله، فهو مبارك.

ويمكنني بعد هذه الأدلّة أنْ أقول:

إنّ الأرض المقدسة هي المدينة المقدسة المعروفة بـ (القدس) و(بيت المقدس) والتي فيها المسجد الأقصى، وهي الأرض التي أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخولها على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى: (يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ).

وإنّ الأرض المباركة هي الأرض التي حول المسجد الأقصى والمدينة المقدسة، وهي المعروفة بفلسطين، أو بالشام.

الخروج من مصر إلى الأرض المباركة:

بعد أنْ نجّى الله تعالى بني إسرائيل، وشقّ لهم البحر، وأغرق فرعون وجنوده كما في قوله تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) (البقرة: 50)، أمر موسى عليه السلام بالتوجّه بهم إلى أرض الشام المباركة فلسطين: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ {الأعراف: 137}.

وأمر موسى عليه السلام قومه أنْ يدخلوا الأرض المقدسة (بيت المقدس)، كما كتب الله لهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ {المائدة: 21}، لكنهم كعادتهم لم يستجيبوا لأمر موسى عليه السلام، وبدءوا بتقديم الأعذار والمبررات، فقالوا: (قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ) المائدة: 22.

وصبر موسى عليه السلام على أعذارهم ومخاوفهم المفتعلة، فأخذ هو وأخوه هارون بتشجيعهم وتحريضهم على القتال والجهاد، وحثِّهم على التوكل على الله تعالى، وهما الرجلان اللذان يخافان ربّهما بحق، وهما اللذان أنعم الله عليهما بالنبوة والرسالة، فقالا لهم: ما عليكم إلا أن تدخلوا على هؤلاء القوم الجبارين الباب متوكلين على الله تعالى، وستغلبونهم إنْ كنتم مؤمنين: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟

عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ {المائدة: 23}.

لكنهم ظلّوا على إصرارهم وعنادهم، وعَصَوْا أمر نبيهم موسى وأخاه هارون عليهما السلام، ولم تؤثِّر فيهم التطمينات بأنهم إنْ دخلوا عليهم الباب فإنهم غالبون، ولم تستجب قلوبهم لدعوة موسى وأخيه عليهما السلام بأنْ يتوكلوا على الله، فقالوا قولتهم التي جلبت لهم العقاب من الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ {المائدة: 24}.

وعندها لم يملك موسى عليه السلام إلا أنْ يقدم معذرته إلى الله تعالى، بأنه لا يملك أنْ يُجبِرهم على القتال إجبارًا، ما دامت قلوبهم تتعلق بالدنيا، وتكره الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ {المائدة: 25}، فهو عليه السلام مع اعتذاره لربه، فإنه يسأل الله تعالى له ولأخيه عليهما السلام أنْ يَفْرُق بينهما وبين القوم الفاسقين بما عَصَوا أمره، وتمرّدهم عليه.

- يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ:

وبعد هذا العصيان من بني إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام، فقد استحقوا العقوبة من الله تعالى بأنْ يحرمهم من دخول بيت المقدس (الأرض المقدسة) أربعين سنة، مع ما فيها من التيه في الأرض، إلى أنْ يتبدل هذا الجيل الفاسق الذين لا يستحقون الأسى عليهم، أو الحزن بسببهم، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ {المائدة: 26}.

ما المُراد بالتِّيه؟

وأصل التِّيه في اللغة: الحَيْرة، يُقال: تاه يتيه تَيْهًا وتَوْهًا إذا تَحَيَّر، وتَيْهَتُه وتَوْهَتُه بالياء والواو، والياء أكثر.

والتِّيه: ضلال وعدول عن الصواب، والتِّيه: اضطراب ذهني يعوق عن بلوغ الغاية، نقول: تَيَّه نفسه، أي: حيَّرها أو أهلكها.

وليس المُراد بالتِّيه في الآية معنى الضَّلال الحِسّي، وعدم معرفة الطرق والاتجاهات، كما جاء في بعض كتب التفسير، فهذا يمكن معرفته والاستدلال عليه من خلال شروق الشمس وغروبها، ومن خلال النجوم ليلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ {النحل: 19}، ولكن التِّيه هنا هو التّيه الذي يدلّ على الحَيرة والتردُّد، وعدم القدرة

على اتخاذ القرار، حتى في اختيار مكان السكن والإقامة، فهُم في اضطرابٍ نفسيٍّ دائم، وفي حالةٍ من الدوران في نفس الدائرة التي استحقوا بسببها العقوبة، وهي عصيان نبيهم عليه السلام فيما أمرهم.

يقول ابن عطية: "ويُحتمل أنْ يكون تِيهُهم بافتراق الكلمة، وقلة إجماع الرأي، وأنّ الله رماهم بالاختلاف، وعلموا أنهم حُرِّمت عليهم أربعين سنة، فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص، وأقاموا ينتقلون من موضع إلى موضع على غير نظام واجتماع، حتى كمُلت المدة" [1].

وهذه الحَيرة والتِّيه نجده في وصف الله تعالى لهم: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ {الأعراف: 160}، فتقطيع الله تعالى لهم أممًا أسباطًا، يدل على تيههم، وحَيرتهم، وتفرّقِهم وتنقلهم وعدم استقرارهم.

أين حدث التيه؟

ليس لدينا ما يدلّ على أنّ بني إسرائيل كانوا في مُدّة التِّيه في أرض غير الأرض المباركة فلسطين، فقد جاء بهم موسى عليه السلام إليها بعد أنْ خرجوا من مصر، وأورثهم الله تعالى مشارقها ومغاربها:

---

[1] البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج3، ص473، دار الكتب العلمية، بيروت 2007م.

(وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا)، فاستقرُّوا وعاشوا فيها مع نبيهم موسى عليه السلام، ثمّ أمَرهم عليه السلام أنْ يدخلوا الأرض المقدسة (بيت المَقدِس)، فامتنعوا وأبَوْا، وكان ما كان من عصيانهم، فاستحقوا عقوبة الله تعالى بتحريمها عليهم، وأنْ يتيهوا في الأرض المباركة أربعين سنة.

وأما ما تقوله بعض الكتب عن تيه بني إسرائيل، وأنه كان في شبه جزيرة سيناء، فهو لا دليل عليه، ولا أصل له في كتاب الله تعالى، أو في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدلّة التي تؤكّد أنّ تيه بني إسرائيل كان في الأرض المباركة فلسطين:

أوّلاً: يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ {طه: 80}، ومعلومٌ أنّ جبل الطور يقع في الجهة الشرقية لبيت المقدس كما بينّا في البحث السابق، وقد واعدهم الله تعالى جانبَ الطور الأيمن بجوار بيت المقدس، وهذا يشير إلى وجودهم في الأرض المباركة حول بيت المقدس (الأرض المقدسة) التي حرمها الله عليهم أربعين سنة، وأنّ التيه كان في هذه الأرض المباركة.

ثانيًا: يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ {طه: 82-83}، فقوله

تعالى: (قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي) يدل على قربهم منه وهو بجبل الطور، حيث جاء تلبيةً لمواعدة الله تعالى قبل قومه، وأنه عليه السلام يشير إليهم، ويقول: هم أولاء على أثري، وسيلحقون بي فالمسافة قريبة، وهذا يدل على وجودهم في الأرض المباركة، وأنّ التيه كان في الأرض المباركة.

ثالثًا: جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مررت على موسى ليلة أُسرِيَ بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)[1]، وهذا دليل على أنّ قبر موسى عليه السلام موجود عند الكثيب الأحمر، وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم في طريق إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أيْ في منطقة الأرض المباركة فلسطين، وهو ما يدل أيضًا على أنّ بني إسرائيل كانوا في الأرض المباركة فلسطين، وأنّ موسى عليه السلام كان بينهم عندما مات، وأنّ التيه كان في الأرض المباركة.

رابعًا: وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فسأل الله أنْ يُدنيَه من الأرض المقدسة رميةً بحجَر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر)[2].

وفي الحديث إشارة إلى:

---

[1] صحيح مسلم 2375

[2] صحيح البخاري 1339

أنّ قبر موسى عليه السلام موجود على مرمى حجر من الأرض المقدسة (بيت المقدس) بفلسطين، وهو ما يُقدَّر بحوالي مائة متر تقريبًا، وليس في منطقة جبل نيبو في غرب الأردن كما يزعم البعض.

وهو ما يدلّ أيضًا على أنّ موسى عليه السلام لم يكن هو وقومه في سيناء، ولم يمُت في سيناء، بل كان في الأرض المباركة فلسطين، ومات فيها في مُدَّة التيه قريبًا من بيت المقدس (الأرض المقدسة)، والتي هي جزء من الأرض المباركة فلسطين.

قال رجلان من الذين يخافون.. مَن هما؟

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23).

مَن هذان الرجلان اللذان تتحدث عنهما الآية السابقة؟

المشهور في كتب التفسير أنّ هذين الرجلين هما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وهو قولٌ مأخوذ من الإسرائيليات المحرَّفة، ومن أحبار اليهود، ولا دليل عليه في ديننا، وقد أخذه المفسرون فيما بعد عن بعضهم حتى صار قولًا مشهورًا وكأنه هو الصواب والقول الفصل، ومن هذا:

- يقول الرازي في التفسير الكبير: (هذان الرجلان هما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا).

- ويقول القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: (قال ابن عباس وغيره: هما يوشع وكالب بن يوقنا، ويقال: قانيا، وكان من الاثني عشر نقيبًا).

- وفي تفسير القرآن العظيم يقول ابن كثير: (ويُقال: إنهما "يوشع بن نون" و"كالب بن يوفنا"، قاله: ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله).

- وجاء في محاسن التأويل للقاسمي: (هما يوشع بن نون وكالب بن يفنا).

- وفي التحرير والتنوير يقول الطاهر بن عاشور: (والرجلان هما يوشع وكالب).

وهكذا قال السواد الأعظم من المفسرين نقلًا عن بعضهم بعضًا، واستنادًا إلى الإسرائيليات وكتب أهل الكتاب وأحبارهم.

فهل هذان الرجلان اللذان تتحدث عنهما الآية الكريمة هما يوشع وكالب كما تقول الإسرائيليات التي أخذ عنها المفسرون؟

إنّ السياق الذي جاء فيه ذِكرُ هذين الرجلين يدلّ على أنهما: **(موسى وهارون عليهما السلام)**، وليسا رجلين من أتباعهما، ولا رجلين من القوم الجبارين الموجودين في الأرض المقدسة، وذلك للأدلة والقرائن التالية:

أوّلًا: إنّ الرجلين اللذَين تتحدث عنهما الآية الكريمة قد أَخْبَرَا بني إسرائيل بأمرٍ غيبيٍّ لا يمكن أنْ يعلم به أحدٌ إلا بوحيٍ من الله تعالى، وهو قولهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾، فهما يؤكدان لبني إسرائيل أنهم بمجرد دخولهم الباب على القوم الجبارين في الأرض المقدسة فإنهم سيغلبونهم وينتصرون عليهم، وهذا يدلّ على أنهما نبيّان كريمان قد أوحى الله تعالى إليهما بهذا، وهو ما ينطبق على موسى وهارون عليهما السلام وليس على يوشع وكالب.

ثانيًا: إنّ ردّ بني إسرائيل على قول الرجلين جاء موجَّهًا إلى نبي الله موسى عليه السلام وليس إلى "يوشع" أو "كالب": ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: 24)، وهو يدلّ على أنّ الرجلين المذكورين في الآية هما موسى وهارون عليهما السلام، وقد جاء ردّ بني إسرائيل عليهما بنفي دخولهم المؤبد للأرض المقدسة ما دام القوم الجبارون فيها: (إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها)، في إشارة إلى أنهم لن يسمعوا كلامهما، ولن يأخذوا بوعدهما لهم بالانتصار والغلبة.

ثالثًا: بعد معصية بني إسرائيل لأمر نبيهم، ورفضهم لدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وجد موسى عليه السلام أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه هارون عليهما السلام فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: 26)، وهو ما يدل على أنّ الرجلين المذكورين في الآية هما موسى وهارون عليهما السلام، ولو كان الرجلان المذكوران هما "يوشع" و"كالب" كما تقول الإسرائيليات التي أخذ بها المفسرون، لَمَا قال موسى عليه السلام: (لا أملك إلا نفسي وأخي)، لأنه في هذه الحالة يكون يملك معه أخاه هارون، ويوشع، وكالب، الذين يطيعونه ويلتزمون أمره بحسب أقوال المفسرين رحمهم الله تعالى.

رابعًا: لقد وصف الله تعالى الرجلين في الآية بصفتين يتصف بهما الأنبياء والرسل، وهما:

1. **الخوف:** يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ (المائدة: 23)، وهو خوف يتناسب مع السياق، فالرجلان يخافان الله تعالى، ويخافان معصيته، وهو خوف يلازم الأنبياء والمرسلين، وقد دلَّ السياق على أنّ المُراد بالرجلين المذكورين في الآية هما موسى وهارون عليهما السلام اللذين كبُر عليهما ما وجَدَا من قومهما من معصيةٍ وارتداد على الأدبار.
2. **إنعام الله عليهما:** أيْ بالنبوة والرسالة والوحي، وأفضل النِّعَم النبوة، وأفضلُ مَن أنعمَ الله عليهم هم الأنبياء حيث أمر الناسَ باتباعهم، والاهتداء والاقتداء والتأسِّي بهم، كما في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة: 6-7)، وهو ما يدلّ عليه السياق من كون الرجلين اللذين أنعم الله عليهما بالنبوة كما نفهم من الآية الكريمة هما موسى وهارون عليهما السلام.

مَجمَع البَحرَينِ

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ {الكهف: 60}

لقد تبيَّن لنا في البحثين السابقين أنّ الله تعالى قد نجّى موسى عليه السلام وقومه إلى الأرض المباركة واستقرّوا فيها، وعاشوا آمنين، بعد أنْ كانوا مستضعفين في مصر من فرعون وجنوده، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ {الأعراف: 137}.

وتبيَّن أيضًا أنّ التِّيه الذي عاقب الله تعالى به بني إسرائيل بعد امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة (بيت المَقدس) كان في الأرض المباركة فلسطين، وأنّ موسى عليه السلام كان معهم فيها، ولم ينتقل منها إلى غيرها، إلى أنْ مات قريبًا من بيت المَقدس رَميَةً بحَجر كما في الحديث الصحيح.

وفي مُدّة التِّيه في الأرض المباركة أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام بأنه يوجد في الأرض عند مجمع البحرين مَن هو

أعلم منه، فما كان منه عليه السلام إلا أنْ قال لفتاه: ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا ﴾، فتوجَّه مع فتاه يوشع بن نون إلى مجمع البحرين لِلِقاء الخضر عليه السلام، وهو الرجل الذي أوحى الله تعالى إليه أنه أعلم منه.

فعن ابن عباس رضي الله عنها قال: سَمِعْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ يقولُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: (قَامَ مُوسَى عليه السَّلَامُ خَطِيبًا في بَنِي إسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قالَ فَعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْهِ، فأوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ: أنَّ عَبْدًا مِن عِبَادِي بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هو أَعْلَمُ مِنْكَ، قالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ كيفَ لي بهِ؟ فقِيلَ له: احْمِلْ حُوتًا في مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الحُوتَ فَهو ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ معهُ فَتَاهُ، وَهو يُوشَعُ بنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السَّلَامُ، حُوتًا في مِكْتَلٍ وَانْطَلَقَ هو وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى عليه السَّلَامُ وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الحُوتُ في المِكْتَلِ، حتَّى خَرَجَ مِنَ المِكْتَلِ، فَسَقَطَ في البَحْرِ، قالَ وَأَمْسَكَ اللَّهُ عنْه جِرْيَةَ المَاءِ حتَّى كانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَومِهِما وَلَيْلَتِهِمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السَّلَامُ، قالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَبًا، قالَ وَلَمْ يَنْصَبْ حتَّى جَاوَزَ المَكانَ الذي أُمِرَ به، قالَ: أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ، فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَما أَنْسَانِيهُ إلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا،

قالَ مُوسَى: {ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا علَى آثَارِهِما قَصَصًا}، قالَ يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى عليه بثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عليه مُوسَى، فَقالَ له الخَضِرُ: أنَّى بأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قالَ: أَنَا مُوسَى، قالَ: مُوسَى بَنِي إسْرَائِيلَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: إنَّكَ علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ، قالَ له مُوسَى عليه السَّلَامُ: (هلْ أَتَّبِعُكَ علَى أَنْ تُعَلِّمَنِي ممَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قالَ: إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكيفَ تَصْبِرُ علَى ما لَمْ تُحِطْ به خُبْرًا. قالَ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لكَ أَمْرًا) قالَ له الخَضِرُ {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عن شيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْرًا}، قالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ علَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بهِما سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُما بغيرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الخَضِرُ إلى لَوْحٍ مِن أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقالَ له مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بغيرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لقَدْ جِئْتَ شيئًا إمْرًا قالَ أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قالَ لا تُؤَاخِذْنِي بما نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِن أَمْرِي عُسْرًا}، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبيْنَما هُما يَمْشِيَانِ علَى السَّاحِلِ إذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ، فأخَذَ الخَضِرُ برَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقالَ مُوسَى: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بغيرِ نَفْسٍ لقَدْ جِئْتَ شيئًا نُكْرًا. قالَ أَلَمْ أَقُلْ لكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) قالَ: وَهذِه أَشَدُّ مِنَ الأُولَى، {قالَ إنْ سَأَلْتُكَ عن شيءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي، قدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا، فَانْطَلَقَا حتَّى

إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فأَقَامَهُ} يقولُ مَائِلٌ، قالَ الخَضِرُ بيَدِهِ هَكَذَا فأَقَامَهُ، قالَ له مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، لو شِئْتَ لَتَخِذْتَ عليه أَجْرًا، قالَ: هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صَبْرًا قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كانَ صَبَرَ حتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِن أَخْبَارِهِمَا، قالَ: وَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: كَانَتِ الأُولَى مِن مُوسَى نِسْيَانًا، قالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ حتَّى وَقَعَ علَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ في البَحْرِ، فَقالَ له الخَضِرُ: ما نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِن عِلْمِ اللهِ إلَّا مِثْلَ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ مِنَ البَحْرِ).[1]

وفي الحديث السابق يتبيَّن لنا أنّ مجمع البحرين لم يكن في أرضٍ بعيدة عن الأرض المباركة، وأغلب الظنّ أنّه كان جزءًا من الأرض المباركة، أو قريبًا منها فموسى عليه السلام وفتاه قد قطعا المسافة إلى مجمع البحرين في مُدّة يوم واحد أو أقل، وهو ما يمكن أنْ نقدره ببضع عشراتٍ من الكيلومترات، وهناك أوَيَا إلى الصخرة التي فَقَدَ موسى عليه السلام الحوت عندها، وهي المكان الذي يوجد عنده الخضر عليه السلام، وهو ما نفهمه من حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وأغلب الظنّ أنّ موسى عليه السلام قد كان قريبًا من بيت المقدس (الأرض المقدسة) عندما أوحى الله تعالى إليه بوجود مَن هو أعلم منه

[1] صحيح مسلم 2380

عند مجمع البحرين، فقد كان عليه السلام يحبّ الأرض المقدسة، وقلبه يتعلق بها، فهي الأرض التي فيها بيت المقدس، وجبل الطور، والوادي المقدس طُوى الذي كلّمه الله فيه، ولذا فهو عند موته عليه السلام سأل الله تعالى أنْ يُدنيَه منها رَميةً بحَجر ليظلَّ قريبًا منها حتى في موته كما في الحديث الصحيح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (... فسأل الله أنْ يُدنيَه من الأرض المقدسة رميةً بحجَر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر)[1]، وهو ما يجعلنا نذهب للقول بأنَّ موسى عليه السلام كان يحرص على أنْ يكون قريبًا من الأرض المقدسة دائمًا، وأنه عندما تحرك نحو مجمع البحرين كان في منطقة قريبة من بيت المقدس.

وفي الحديث أيضًا ما يُبطل الأقوال التي تقول بأنّ مجمع البحرين كان في جنوب شبه جزيرة سيناء عند رأس محمد، أو عند التقاء النيل الأبيض مع النيل الأزرق في السودان، أو عند مضيق جبل طارق، أو ما شابه من الأقوال التي يعارضها الدليل بشكل واضح، فكلُّ قولٍ من هذه الأقوال يجعل رحلة موسى عليه السلام إلى مجمع البحرين تستغرق أيامًا وليالي وأسابيع، وهو ما يصطدم مع ما جاء في الحديث الصحيح، حيث استغرقت رحلته يومًا واحدًا، فهو عليه السلام كان قد وصل إلى

(1) صحيح البخاري 1339

مجمع البحرين عندما أَوَى هو وفتاه إلى الصخرة، وهناك خرج الحوت من المكتل وسقط في البحر.

وممّا يُرجِّح أيضًا أنّ مجمع البحرين يوجد في الأرض المباركة، هو ما جاء في الحديث السابق حكايةً عن الخضر عليه السلام أنه قال لموسى عليه السلام: (أنّى بأرضك السلام؟)، وفي هذا إشارات التي يمكن الوقوف عندها:

1. قد تكون الأرض المقدسة (بيت المقدس) هي المُراد بقوله: (أنَّى بأرضك السلام)، خاصّة أنها الأرض التي أمر موسى عليه السلام قومه بأنْ يدخلوها، فقالوا: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ { المائدة: 22}، ولذا فهي أرض ستشهد كثيرًا من الحروب والمواجهات، ولن تكون أرض سلام.

2. ويمكن أنْ تكون الأرض المباركة فلسطين هي المُراد بقوله: (أنّى بأرضك السلام)، فهي أرضٌ ستشهد الحروب والملاحم إلى يوم القيامة، وأنّ السلام سيكون صعبًا في هذه الأرض.

3. إنّ قول الخضر لموسى عليهما السلام: (أنّى بأرضك السلام) يشير إلى أنّه يقصد الأرض التي يقف عليها موسى عليه السلام وهي الأرض المباركة، وأنّ الخضر قد علم من الله تعالى أنّ هذه الأرض ستكون

أرضَ صراع بين الحق والباطل، وأنّ السلام فيها سيكون مطلبًا صعب المنال.

ما المُراد بمَجمع البحرين؟

جاءت كلمة: (البحرين) و(البحران) في القرآن الكريم لتدلّ على نوعين من الماء، وهما: (الماء العَذب الفُرات)، و(الماء المِلح الأُجاج)، وهو كما في قوله تعالى:

1. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ {الفرقان: 53}.

2. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ {فاطر: 12}.

وفي الآيتين إشارةٌ إلى أنَّ البحرين هما نوعان من الماء: (الماء العذب)، و(الماء المالح)، في بحرين مختلفين، يلتقيان، ويصب أحدهما في الآخر فلا يبغي بعضهما على بعض، بحيث يحتفظ كل بحر بخصائصه.

ومن الأمثلة على ذلك: مجمع نهر الأردن مع البحر الميت في شرق فلسطين، ومجمع نهر النيل في فرعي دمياط ورشيد مع البحر المتوسط في مصر، ومجمع نهر دجلة والفرات مع الخليج العربي في العراق، ومجمع نهر الدانوب في أوروبا مع البحر الأسود.

أين يقع مجمع البحرين المذكور في سورة الكهف؟

وبعد هذه القرائن والأدلّة المختلفة فإنني أستطيع القول: إنّ المُراد بمجمع البحرين المذكور في سورة الكهف، والذي التقى عنده موسى بالخضر عليهما السلام، وبعد البحث في تضاريس الأرض المباركة (فلسطين)، وأنهارها وبحارها، فإننا لا نجد فيها ما ينطبق عليه قول الله تعالى: (مجمع البحرين) بحيث يعني بحرين مختلفين، هذا عذبٌ فُراتٌ، وهذا مِلح أجاجٌ، إلا نهر الأردن والبحر الميت اللذين يقعان في شرق الأرض المباركة.

إلّا المَوْتةَ الأُولَى

يقول الله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ {الدخان: 56}.

الآية تتحدث عن المؤمنين في الجنَّة بعد يوم القيامة، حيث سيكونون في مأمن من الموت، فلا يذوقون فيها موتًا جديدًا، إلا ما كان من موتٍ أوّل قبل حياتهم الأولى.

ومعلوم أنَّ الموت هو حالة انفصال الروح عن الجسد، وعدم اتصالها به سواء كان هذا الموت قبل نفخ الروح في الجسد، أو بعد خروج الروح من الجسد..

والواضح أنّ أرواحنا كانت موجودة في الجنَّة قبل خلق أجسادنا كما نفهم من قوله تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا)، وهذه الحالة تسمى (الموتة الأولى) لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ {الدخان: 56}.

وقوله تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا) أيْ لا يذوق المؤمنون في الجنَّة الموت، (إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ)، أيْ إلا ما كان قبل نفخ أرواحهم في أجسادهم، حيث كانت أرواحهم مستقرة في الجنّة كما نفهم من قوله

تعالى: (فِيهَا)، ولكنها كانت في حالة موت وانفصال عن أجسادهم التي خُلقت لاحقًا.

- والموت يكون مرتين.
- والحياة تكون مرتين.

يقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ {غافر: 11}:

أما المَوتان فهما:

1. الموت الأوّل: ويكون للأرواح قبل دخولها ونفخها في الأجساد عند خلقها وهي أجنّة في بطون الأمهات، حيث تكون في حالة موت لانفصالها عن الأجساد.

2. الموت الثاني: ويكون عند خروج الأرواح من الأجساد في نهاية الحياة الدنيا، أو كما نقول: في (نهاية العمر)، حيث تنفصل الأرواح عن الأجساد فتكون في حالة موت.

وأما الحَياتان اللتان يحياهما البشر فهُما:

أوّلاً: حياةٌ أولى في الحياة الدنيا، وهي الحياة التي نحياها الآن، حيث تكون الأرواح في الأجساد.

ثانيًا: وحياةٌ ثانية تكون بعد البعث في الآخرة، يكون فيها المؤمنون في الجنَّة في حياة جديدة، حيث يرد الله الأرواح للأجساد.

ويبين الله تعالى هذا كله ببيان لا غموض فيه فيقول:

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {البقرة: 28}.

وقوله تعالى: (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا): أيْ كنتم أمواتًا قبل خلق أجسادكم ونَفْخ الأرواح فيها، وهو المُراد بقوله تعالى: (ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ)، كما نفهم من خلال النصوص السابقة.

وقوله تعالى: (فَأَحْيَاكُمْ): أيْ بنفخ الأرواح في أجسادكم وأنتم أجنّة في البطون، والمعروف بـ (الحياة الأولى)، وهو ما جاء صريحًا في الحديث الصحيح:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يُجمع أحدُكم في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعث إليه الملك، فيؤْذَنُ بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...)[1].

وقوله تعالى: (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ): أيْ يُخرِج أرواحكم من أجسادكم عند نهاية أعماركم في الدنيا، وهذه مرحلة تسمى (الموتة الثانية).

وقوله تعالى: (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ): أيْ بإعادة الأرواح إلى أجسادكم يوم القيامة، وهي المرحلة الأخيرة وتسمى (الحياة الآخرة).

[1] صحيح البخاري 7454

هل حَلَفَ أيُّوب عليه السلام أنْ يضربَ زوجته؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ {ص: 41-44}.

هل حلف أيوب عليه السلام أنْ يضرب زوجته؟

وهل أمر الله تعالى أيوب عليه السلام بأنْ يضرب زوجته مرَّة واحدة بضغث فيه مائة عود مجتمعة؟

إنّ سياق الآيات لا يحتمل هذه المعاني مطلقاً للأسباب الآتية:

أولاً: الروايات التي تتحدث عن توعُّد أيوب عليه السلام لزوجته بضربها أو جلدها مائة جلدة لأنها باعت شعرها لتُنفق على بيتها كما يزعمون، كلها روايات واهية لا أصل لها، أو إسرائيليات وقصص ملفقة، لا نأخذ بها في تفسير القرآن الكريم.

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ {ص: 44}، في الآية مدحٌ من الله تعالى لأيوب عليه السلام، فهو نبيٌّ صابرٌ

محتسب، صبر على ابتلاء الله له، ولو كان حلف أنْ يجلد أو يضرب امرأته عندما يبْرأ من مرضه كما تقول الروايات التي لا أصل لها، فهو إذن لا يكون صابرًا.

وهو عليه السلام أوّابٌ كثير الرجوع والإنابة إلى الله تعالى، ما يجعله يحتسب مرضه وفقره وغياب أهله عند الله تعالى، لا أنْ يتوعد امرأته التي ما تخلّت عنه بالضرب والجلد.

والناس في حياتهم اليومية لا يمدحون الرجل الذي يضرب زوجته، ولا يصفون من يتوعّد زوجته بالضرب والجلد بأنه صابر، فضلًا عن قيامه بالجلد أو الضرب فعلاً.

ثالثاً: من خلال استقراء الآيات السابقة يتبين لنا أنّ أيوب عليه السلام تعرض لثلاثة ابتلاءات كبيرة هي:

1. مرض عضال أصابه لمدة طويلة بلغت ثماني عشرة سنة كما في الحديث الصحيح، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة...)[1].
2. غياب أهله عنه في وقت مرضه.
3. فقدانه للمال وافتقاره.

---

(1) السلسلة الصحيحة الألباني 17

وقد صبر أيوب عليه السلام على كل هذه الابتلاءات دون جزع، إلى أنْ شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه ما حلّ به: (رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)، وقد بينت الآيات السابقة هذا بوضوح على النحو التالي:

1. **شفاؤه من المرض:** حيث قال الله تعالى لأيوب عليه السلام دالاّ له على طريقة شفائه: (ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ).

2. **عودة أهل أيوب له بعد غياب:** حيث يقول الله تعالى: (وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ)، حيث أعاد الله تعالى لأيوب عليه السلام أهله الغائبين، والذين نظنّ أنهم كانوا في سَبْي، فَرَدَّهم الله تعالى له، بل ومثلهم معهم.

3. **الإغناء بعد الفقر:** حيث يقول الله تعالى لأيوب عليه السلام: (وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ)، وحتى تتبين الصورة لنا يَحسُن بنا أنْ نقف عند ثلاث كلمات في الآية ومناقشتها:

- (ضِغۡثٗا): أما الضِّغث فهو الأشياء المختلطة، وهو كما في الآية (قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ)، فهي أحلام من هنا وهناك تجمَّعت في نوم واحد، والضِّغث حزمة من الحطب، أو الأعواد المختلفة، أو الحشائش المختلطة، أو النباتات المختلفة المجمّعة من هنا وهناك، أو ما شابه.

- (فَٱضۡرِب بِّهِۦ): وهنا لم تَذكر الآية مفعولًا به للفعل: (اضربْ)، ولا نستطيع تخمين ذلك بغير دليل أو قرينة، ولا يمكننا الأخذ بالإسرائيليات التي تقول بأنّ أيوب عليه السلام حلف أنْ يضرب زوجته، خاصة أنّه ليس من عادة الأنبياء ضرب زوجاتهم، ولمْ تذكر الآيات أنّ زوجة أيوب عليه السلام قد أتت بشيء، أو بحَدٍّ يستوجب جلدها مائة جلدة كما تذكر الإسرائيليات والروايات الواهية، ثم إنَّ الأنبياء بطبعهم أوفياء لمن يعاشرونهم، ويعيشون معهم في نفس المجتمع، فكيف بأيوب عليه السلام الذي رأى صبر زوجته عليه ووقوفها معه في ابتلاءاته؟!

فهل نتصور أنه عليه السلام يتنكّر لها ويحلف أنْ يضربها؟!

هل هكذا يفعل الأنبياء؟!

لذا فإننا نذهب إلى أنّ معنى: (فَٱضۡرِب بِّهِۦ) هنا، هو أنْ يسعي أيوب عليه السلام في الأرض بالضِّغث الذي أمره الله تعالى بأخذه وجمعه، كما في الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ {المزمل: 20}، ويمكن أنْ يكون الضرب أيضًا بمعنى المُساهمة والمشاركة كما في الحديث الصحيح: (...واضربوا لي بسهم).[1]

وعلى هذا فإنّ أغلب الظن أنْ يكون المُراد في الآية: يا أيوب، خُذْ حُزمة أو حُزَمًا من الحَطَب، أو النباتات المختلفة، أو مجموعةٌ متنوعةً

[1] صحيح البخاري رقم 5007

من البضائع المتاحة التي يمكنك أنْ تأخذها بيدك، واسْعَ بها، وبِعْ واشْترِ، ضرْبًا في الأرض، ومضاربة، واجمع رزقك بيدك.

- (وَلَا تَحْنَثْ): لا تُخلِف وعدك، ولا تَنكُث عهدك مع أحد، وفي هذا إشارة إلى أنّ أيوب عليه السلام ربما كان قد اقترض من غيره بعض الأموال في مرضه، ووَعَد أصحابها بسدادها عندما يستطيع، وربما كان قد نَذَر نَذْرًا إنْ شفاه الله تعالى أنْ يتقرب إليه بقربان، وها هو قد شفاه الله تعالى، وينهاه عن أنْ يحنث في نَذْر، أو دَين، أو ما شابه.

فمِنهُم ظالمٌ لنفسِه ومِنهُم مُقتَصِد

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ {فاطر: 32-33}.

هذه الآيات الكريمة تقول لنا:

إنّ الله تعالى سيُدخِلُ الجنة عباده الذين اصطفاهم لميراث الكتاب، وهم سيكونون مختلفين ومتفاوتين في أعمالهم، وفي درجات اجتهادهم، وسيكونون في الجنة بحسب أعمالهم ودرجاتهم.

- (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ):

أيْ ثُمَّ جعلنا مآل الكتاب وهو (القرآن الكريم) إلى هذه الأمة المصطفاة، التي اختارها الله تعالى لتكون خير أمة أخرجت للناس كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ {آل عمران: 110}، فهي أمة لا تعيش لذاتها في الأصل، بل أخرجها الله تعالى للناس، لتنشر الخير، وتأمر بالمعروف وتشجع عليه، وتنهى عن المنكر وتقاومه.

والله تعالى أورث الكتاب (القرآن الكريم) لهذه الأمة المؤمنة مهيمنًا على ما بين يديها من الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، والكتاب الذي نزل على عيسى عليه السلام: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ {المائدة: 48}.

وهؤلاء المُصطَفَوْن المؤمنون الذين أورثهم الله تعالى الكتاب هم أصنافٌ من الناس، وهم جميعًا من أهل الجنة، يُحلَّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير، ولكنهم متفاوتون في صفاتهم وأعمالهم، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله.

- (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ):

والمؤمن على إيمانه وحبه للخير، واختياره لطريق الله تعالى، لكنه يضعف أحيانًا، وتغلبه نفسه، أو تخدعه وساوس الشيطان، فيقع في المعصية والمخالفة، وهو ما تشير إليه الآية: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ).

فهو يُعَرِّض نفسه لفعل الذنوب، ويرتكب الصغائر أو الكبائر، لكنه في الوقت ذاته يقوم بالواجبات والفرائض، ويتطوع فيها أيضًا، ولا يُقصِّر في شيء مما افترضه الله تعالى عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج إن

استطاع، ويعمل الخيرات، ويُحسن إلى الناس، لكنه مع كل هذا يظلم نفسه فيرتكب المخالفات والمعاصي.

وظُلم النفس قد يقع من الأنبياء والمتقين والصالحين، لكنهم سرعان ما يستغفرون ربهم ويتوبون إليه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ {الأعراف: 201}، وهذه بعض الأمثلة على ظلم النفس الذي وقع من الأنبياء والمتقين:

1. ما حدث من آدم وزوجه عليهما السلام حينما ظلما أنفسهما، وخالفا أمر ربهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما عن الاقتراب منها، فقالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ {الأعراف: 23}.

2. دعاء نبي الله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {الأنبياء: 87}، فهو يعترف بأنه ظلم نفسه ويطلب من الله المغفرة.

3. ما جاء في ذكر استغفار المتقين الذين فعلوا الفاحشة وظلموا أنفسهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ {آل عمران: 135-136}.

4. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ {النساء: 110}، وهو قول ينسحب على كل المؤمنين الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده فأورثهم الكتاب.

5. وجاء في الحديث الصحيح أنّ أبا بكر رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم).[1]

ومما سبق يتبين أنّ المؤمن يمكن أنْ يظلم نفسه فيقع في المعاصي والذنوب، ولكنه يبقى مؤمنًا ومن الذين اصطفاهم الله تعالى لميراث الكتاب، وممن سيكرمهم بدخول الجنة.

[1] صحيح البخاري 834، وصحيح مسلم 2705

- (وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ):

المُقتصد: هو المُتوسِّط بين طرفين.

والمقتصد في عمله: أيْ المُتزِّن في عمله، والمُسيِّر له بلا إفراط ولا تفريط، وبلا زيادة أو نقصان.

ونقول في كلامنا: الرجل يقتصد في كلامه، أيْ يُوجز فيه، والرجل يقتصد في نفقته: أيْ ينفق بحساب ودقة.

وقوله تعالى: (وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) أيْ يكتفي بالفرائض والواجبات من غير زيادة أو نقصان، وهو يتوسط بين الظالم لنفسه، والسابق بالخيرات، ولا يُنكَر عليه هذا، وهو من أهل الجنة الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده لميراث الكتاب، ويمكن التمثيل على هذا الصنف من الناس بما جاء في الحديث الصحيح من قصة الأعرابي: (عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نَجْدٍ ثائرُ الرأس، نسمع دويَّ صوته، ولا نفقهُ ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أنْ تطَّوَّع، وصيام شهر رمضان، فقال: هل عليَّ غيره؟ فقال: لا، إلا أنْ تطَّوَّع، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أنْ تطَّوَّع، فأدبر الرجل وهو يقول:

والله لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح إنْ صدق).[1]

فالأعرابي مثالٌ واضحٌ على قوله تعالى: (وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ)، فهو ملتزم بما يجب عليه، لا يزيد عليه شيئًا، ولا ينقص منه شيئًا، والنبي صلى الله عليه وسلم يُعَقِّب على ما سمع من الأعرابي بأنه: أفلح إنْ صدق.

- (وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ):

وهو الذي يلتزم بما فرض الله عليه، ويجتهد في الطاعات ويسابق إلى الخيرات، ويتطوع بالنوافل فنجده يقوم الليل، ويصلى الضحى، ويصوم عرفة، ويصوم ستًّا من شوال، وغير ذلك، ويحافظ على السنن والنوافل، ولا يكتفي في الزكاة بإخراج ربع العشر، بل يزيد ويزيد، ولا يترك مجالًا للخير إلا ويسبق إليه.

كل هؤلاء الذين اصطفاهم الله من عباده سيُدخلهم الجنة، وسيلبسون الحرير، وسيُحَلَّوْن بأساور الذهب، ولن يحزنوا فيها، ولن يمسهم فيها نَصَب ولا لُغوب.

[1] صحيح البخاري 2678، صحيح مسلم 11

إلى الجَنَّة زُمَرًا

يقول الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ {الزمر: 73}.

هذه الآية تبين لنا شكل وطريقة دخول المتقين للجنة، وقبلها آية عن كيفية دخول الكفار لجهنم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ {الزمر: 71}، فما المُراد بكل من: (وَسِيقَ) و(زُمَرًا)؟

أوَّلًا: (وَسِيقَ):

الفعل: (ساقه) أيْ: دفعه من الخلف، ووجهه وحثَّه من خلفه على السير. نقول: ساقت الريح السحاب، أيْ دفعته ووجهته، وساق الرجل ضيفه لحجرة الطعام، أيْ وجهه ودفعه من الخلف، وسيق المتهم إلى المحكمة: أيْ تم توجيهه ودفعه إلى إليها.

وقوله تعالى: (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ)، أيْ: قامت الملائكة باصطحاب المتقين وسَوْقِهم وتوجيههم إلى دخول الجنة من أبوابها الثمانية (وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا)، فهم لم يذهبوا إلى الجنة من تلقاء أنفسهم، وإنما بمرافقة ملائكة كرام يدلُّونهم ويوجهونهم ويرحبون بهم.

والسَّوْق هنا سَوْق تكريم وكرامة، فالملائكة لا تكتفي بسوقهم وتوصيلهم إلى أبواب الجنة، بل إنّ خزنة الجنة يفتحون لهم الأبواب قبل وصولهم، ويُشعرونهم بأنهم مُرحَّب بهم، ومكرمون وآمنون في دار السلام، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ {الزمر: 73}.

أما سَوْق الملائكة للكافرين فهو سَوْق إذلال وإهانة، فهم يُدَعُّون من خلفهم إلى نار جهنم دعًّا، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ {الطور: 13-14}، ويُقال لهم: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ {الزمر: 72}

ثانيًا: (زُمَرًاۖ):

(زُمَرًاۖ): جمع زُمْرة، وهي الجماعة المتجانسة من الناس تربطهم صفات مشتركة، كأنْ نقول: زمرة من المجاهدين، وزمرة من الطلاب، وزمرة من النساء.

وقوله تعالى: (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ)، أيْ إنّ الملائكة تسُوق عباد الله الذين اتقوا ربهم بعد الحساب إلى الجنة سَوْق

تكريم، وهؤلاء المتقون سيكونون في زُمَر ومجموعات متجانسة تربطهم صفات متشابهة ومشتركة، وكل زُمْرة من هذه الزُّمَر يتم توجيهها وسَوْقُها من قِبَل الملائكة إلى باب من أبواب الجنة، على النحو التالي:

للجنة ثمانية أبواب كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... فإنّ للجنة ثمانية أبواب)،[1] ولهذه الأبواب الثمانية أسماء، منها: باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الريَّان، وباب الصَّدَقة، وهو ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... فمَن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومَن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريَّان، ومَن كان من أهل الصَّدَقة دُعِي من باب الصَّدَقة).[2]

وكل زُمْرة من هذه الزُّمَر تُساق إلى باب من أبواب الجنة بحسب أعمالها وصفاتها، وما تميّزت به من أعمال في الدنيا، فالمُتّقون الذين يتشابهون في الصلاة، وكان أكثر ما ميَّزهم عن غيرهم الاجتهاد في الصلاة، ولم يكتفوا بالفرائض منها، بل اجتهدوا بالنوافل، فإنهم يُدعَوْن لدخول الجنة من باب الصلاة.

---

[1] السلسلة الصحيحة/ الألباني 2681

[2] صحيح البخاري 1897

والمتقون الذين يتشابهون في أعمال الجهاد، هم من المُصلِّين أيضًا، ولكنَّ أكثر ما ميّزهم عن غيرهم الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذا فهم يُدعَون لدخول الجنة من باب الجهاد.

وكذلك المتقون الذين تميّزوا عن غيرهم في الصيام، ولم يكتفوا بشهر رمضان، بل اجتهدوا في النوافل وصيام التطوع، فإنهم يُدْعَون لدخول الجنة من باب الريَّان.

والمتقون الذين يُدعَون لدخول الجنة من باب الصَّدَقة، هم من المصلين والصائمين، وقد يكونون من المجاهدين، ولكنّ أكثر ما ميّزهم عن غيرهم أنهم من أهل الصَّدَقة، وكذلك كل أبواب الجنة الأخرى.

وسيكون من المتقين مَن يحِق له دخول الجنة من أكثر من باب، لأنه يكون قد تميّز في أكثر من باب من أبواب البرّ، فيُدْعَى بحسب ما تميّز فيه، بل سيكون من المتقين مَن يحِق له أنْ يدخل الجنة من أيّ أبواب الجنة شاء من أبوابها الثمانية، لأنه تميّز في كل أبواب البرّ، فتجده متميّزًا في الصلاة، والجهاد، والصيام، والصدقة، والرحمة، والصبر، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وغير ذلك، ومِن هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَن أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خيرٌ، فمَن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومَن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب

الجهاد، ومَن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريَّان، ومَن كان من أهل الصدقة دُعِي من باب الصدقة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على مَن دُعِيَ من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعَى أحد من تلك الأبواب كلّها؟ قال: نعم، وأرجو أنْ تكون منهم)[1]، وقوله عليه السلام: (وأرجو أنْ تكون منهم) يدلّ على أنّ الأمر لا يقف عند أبي بكر رضي الله عنه، بل سيكون هو واحدًا منهم، والأمر متاح لكل مَن يتميّز في كل أبواب البرّ والخير، ليُدعَى من كل أبواب الجنة.

والمرأة المسلمة التقيَّة التي تحفظ دينها وأمانتها، لها الحق أيضًا أنْ تدخل الجنة من أيّ أبواب الجنة شاءت، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا صلَّت المرأة خَمْسَها، وصامت شهرها، وحصَّنت فَرجَها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أيّ أبواب الجنة شئتِ).[2]

وعن عبادة بن الصامت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَن قال: أشهد أنْ لا إله إلا الله لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة

---

(1) صحيح البخاري 1897

(2) صحيح الجامع /الألباني 660

حق، وأنّ النار حق، أدخله الله من أيّ أبواب الجنة الثمانية شاء)[1]، فالمتقون سيدخلون الجنة من أبواب مختلفة، وسيكونون في زُمَر متجانسة، تربط بنها صفات مشتركة.

وما ينطبق على المتقين في دخولهم الجنة من أبوابها الثمانية بحسب أعمالهم وتميّزهم، فإنه ينطبق على الكافرين الذي سيدخلون جهنم من أبوابها السبعة: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ {الحجر: 43-44}، فكل زُمرة من الكافرين لها تجانس خاص، وصفات خاصة مشتركة، تتناسب مع أبواب جهنم السبعة، ويقال لهم جميعًا: (قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) {الزمر: 72}.

(1) صحيح مسلم 28

وعلى الأعراف رجال

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ {الأعراف: 46-47}.

المشهور في تفسير هذه الآيات أنّ أصحاب الأعراف هُم مَن تساوَتْ حسناتهم وسيئاتهم، وهو تفسير يحتاج إلى مزيد من النظر وإعادة التدبّر والتأمّل والتفكير، خاصّة أنه لا يخدمُه السياق، ولا يحتمله المعنى، ولا يقبله الموقف.

وقبل البدء في الحديث عن الآيات السابقة، ومعرفة المُراد بقوله تعالى: (وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ)، فإنّه يجدُر بنا النظر في السياق الذي سبق هذه الآيات، ليساعدنا على فهم الآيات مجتمعة، حيث تحدثت الآيات: 40، 41، و42، و43، و44 من سورة الأعراف عن دخول الكافرين النار، ودخول المؤمنين الجنة، كما يلي:

يقول الله تعالى في شأن دخول الكافرين للنار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ

حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ {الأعراف: 41-42}.

فالذين كذبوا بآيات الله قد دخلوا نار جهنم، وهم يُعذَّبون فيها من تحتهم ومن فوقهم، جزاء من الله تعالى لهم على تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها، وبإجرامهم وظلمهم.

وفي شأن دخول المؤمنين للجنة يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ {الأعراف: 42-43}.

وفي هذه الآيات نرى أنّ المؤمنين قد دخلوا الجنة فعلًا، وأنّ الله تعالى قد نزع ما في صدورهم من غِلّ، وأنهم تجري من تحتهم الأنهار، وأنهم يشعرون بالسعادة، ويحمدون الله تعالى على توفيقه لهم في الدنيا بأنْ هَداهُم لهذا المصير الجميل، وهذا النعيم المقيم، فينادَوْن: (أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)، أيْ إنّ هذه الجنة لكم تملكونها بما كنتم تعملون من طاعة لله تعالى في الدنيا.

ويبدو من ترتيب الآيات أنّ الكفار يدخلون النار قبل أنْ يدخل المؤمنون الجنة، فإذا دخل الكفار النار أُغلِقَت عليهم: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ {الهمزة: 8}، وفي هذا زيادة نعيم من الله تعالى للمؤمنين بأنهم يرَون كيف أنّ الله يُنجّيهم من العذاب.

وبعد دخول الكافرين للنار، ودخول المؤمنين للجنة، ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار بطريقة وقوانين لا نعلمها، ويسألونهم سؤال المنتصر الذي رأى بنفسه انتصار الحق الذي يؤمن به، وفي الوقت ذاته يزيد سؤال أصحاب الجنة من شدة العذاب على أصحاب النار: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {الأعراف: 44}.

ومن الآيات السابقة يتبيّن لنا أنّ دخول الكافرين للنار، ودخول المؤمنين للجنة، قد تمَّ وانتهى قبل الحديث عن أصحاب الأعراف الذين سيكون لهم دور وصلاحيات منحها الله تعالى لهم، كما سيظهر لاحقًا.

(وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌ):

أيْ بين الجنة والنار، والحجاب فيه معنى المفارقة والعزل والفصل، وقد جعل الله بينهما حجابًا يفصل ويفارق بينهما، فالجنة محجوبة عن النار، والنار محجوبة عن الجنة، ويمكن القول أيضًا: إنّ أصحاب الجنة

محجوبون عن أصحاب النار، وأصحاب النار محجوبون عن أصحاب الجنة، فلا يرى فريقٌ الفريقَ الآخر، ولا يختلط فريقٌ بالآخر كما كانوا في الدنيا.

والحجاب في العادة يمنع من الرؤية ولا يمنع من السماع، فالرجل الذي يحجُب عينيه بيده أو بشيء فإنه لا يرى الأشياء، لكنه يبقى يسمع كل ما يصل إلى أذنيه، **وهذه أمثلة من القرآن الكريم على هذا:**

1. الكفار الذي كانوا يحضُرون محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن كان بينه وبينهم حجاب مستور، ومع ذلك كانوا يسمعونه، ولا يفقهونه بسبب ما جعل الله على قلوبهم من أكِنّة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ {الإسراء: 45-46}.

2. وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ {مريم: 17}، نجد أنّ مريم عليها السلام اتّخذت من أهلها حجابًا ليسترها، لا ليمنع عنها صوت أهلها، فلو ناداها أحدٌ منهم لسمعته.

3. وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ {الأحزاب: 33}، وفي هذه الآية دلالة صريحة على أنّ المُراد من الحجاب هو حجب الرؤية، لا حجب السماع، فالمؤمنون كانوا يسألون نساء النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب، وهُنّ كُنّ يسمعْنَهم.

4. وخيل سليمان عليه السلام التي توارت هي وفرسانها بالحجاب عندما ابتعدت عن الأعين، لم يمنع الحجاب عنها وعن فرسانها الصوت والسماع، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ {ص: 31-33}، فَرَدُّها إليه يدل على وصول الصوت والسماع إليها رغم احتجابها.

5. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ {الشورى: 51}، يشير إلى أنّ الله تعالى لا يراه أحدٌ من البشر بسبب حجابه عز وجل، ولكنّ كلامه سبحانه يصل إلى البشر المُوحى إليهم، فالحجاب يمنع الرؤية ولا يمنع السماع.

6. وفي قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ {الأعراف: 44}، دليل على وجود حجاب بينهما، لكنه لم يمنع النداء والسماع.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ {الأعراف: 50}، فإنّ وجود هذا الحجاب بين الجنة والنار لم يمنع السماع بينهما.

فبين الجنَّة والنار حجابٌ يفصل ويعزل ويحجب بينهما، وأصحابُ الجنة ينادُون أصحابَ النار مع وجود هذا الحجاب، وأصحابُ النار ينادُون أصحابَ الجنة مع وجود هذا الحجاب، ولا يمنع هذا الحجابُ السماعَ.

والله تعالى وحده الذي يعلم كيف يكون هذا النداء والسماع بينهما؟ ويبدو أنه سيكون له قوانين خاصة، وتقنيات لا نعلمها، لكننا يمكننا الاستئناس بما يقوم به الإنسان في هذا العصر من التواصل مع غيره بالصوت والصورة في نفس الوقت، برغم ما بين الناس من حدود وحُجُب تحجب الرؤية واللقاءات المباشرة، فهذا من علم الله تعالى الذي علَّمه لنا في الدنيا، فكيف سيكون الأمر يوم القيامة؟

(وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ):

جاء في تفسير الرازي: (وأما الأعراف فهي جَمْع عُرْف، وهو كل مكان عالٍ مرتفع، ومنه عُرْف الفَرَس، وعُرْف الديك، وكلُّ مُرتفِع من الأرض عُرْف، وذلك بسبب ارتفاعه يصير أعْرَف ممّا انخفض منه).[1]

فهذه الأعراف أماكنُ عاليةٌ مرتفعةٌ في الجنة تُشرف على ما بداخلها، وتُشرف على ما بخارجها، أيْ إنَّ الرجال الذين يكونون على هذه الأعراف لا بدّ وأنْ يكونوا في داخل الجنة، فيرَوْن مِن على هذه الأعراف كلَّ شيء في الجنة، ويرَوْن كلَّ شيء خارج الجنة.

وهؤلاء الرجال الذين يكونون على أعراف الجنة العالية ويرَوْن ما فيها، ويرَوْن ما هو خارجها، هُم رجالٌ مؤمنون لهم صلاحياتٌ خاصَّة قد خصَّهم الله تعالى بها، فَهُم أعلى منزلةً، وأرفع مقامًا من سائر أهل الجنة، ولهم أنْ يشفَعوا عند الله تعالى بإذنه، ولهم أنْ يأمروا ويأْذنُوا بدخول الجنة للبقيَّة الذين لم يدخلوا من المؤمنين، ولهم أنْ يُقَرّعوا أصحاب النار من الكافرين، وهُم شهداء الله تعالى على أعمال الناس.

وهؤلاء الرجال يتصفون بصفات، منها:

أوَّلًا: إنّهم رجال (ليسوا ملائكة وليسوا نساءً):

([1]) تفسير الرازي، الجزء 7، صفحة 391، دار الحديث، القاهرة

يقول الله تعالى: (وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ)، وفي هذا تصريح بأنهم ليسوا من الملائكة، فالملائكة ليسوا رجالًا وليسوا نساءً، ولكنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

وفي الوقت نفسه هم رجال، وليسوا نساءً، مع ما في مفردة (رجال) من دلالات القوة والذكورة، وهو كما في قوله تعالى عن الأنبياء والمرسلين الذين لم يكن أحدٌ منهم من النساء: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ) (يوسف: 109).

ثانيًا: (يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ):

وقد خَصَّ الله تعالى هؤلاء الرجال بأنهم يعرفون أصحاب الجنة، وأصحاب النار بسيماهم وعلاماتهم وصفاتهم، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا يعرفونهم في الدنيا، ما يجعل القولَ بأنهم هم الأنبياء أقربَ من أيِّ قول آخر، فليس أحدٌ أعلى درجةً من الأنبياء ليكونوا على الأعراف.

والأنبياء سيكونون على الأعراف شهداء الله تعالى على الناس، وسيشهدون على أقوامهم وأممهم، وسيشهد عليهم جميعًا نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ {النساء: 48}.

ثالثًا: يتكلمون بإذن الله تعالى:

هم رجال يأْذن الله تعالى لهم بالكلام في وقت لا يتكلم فيه أحدٌ إلا بإذنه، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ {النبأ: 38}.

وهم يَشْفَعُون بإذن الرحمن للبقيَّة الذين لم يدخلوا الجنة من المؤمنين، ويأذنون لهم بدخول الجنة: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ {طه: 109}.

رابعًا: يقولون صوابًا يُرضي الله تعالى:

وهم عندما يأذن الله تعالى لهم بأنْ يتكلموا فإنهم يتكلمون بما هو صواب: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ {النبأ: 38}، فقولهم للبقية المؤمنة الذين لم يدخلوا الجنة: (ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ) هو صوابٌ يرضاه الله تعالى.

ويتكلمون بما يُرضي الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ {طه: 109}، وتقريعهم للكافرين في النار هو صوابٌ ممّا يرضاه الله لهم.

البقية المؤمنة الذين تأخّروا في دخول الجنة:

يقول الله تعالى: (وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ):

في هذه الآية إشارة إلى أنَّ بقيَّةً من المؤمنين مِن أصحاب الجنة قد تأخّر دخولهم للجنة، وفي قوله تعالى: (لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ) دليل على أنّ كل أصحاب الجنة قد قَضَى الله تعالى في شأنهم وأنهم قد دخلوا الجنة، وأنّ كلّ أصحاب النار قد قَضَى الله في شأنهم وأنهم قد دخلوا النار، ولم يبْقَ أحدٌ من أصحاب الجنة أو من أصحاب النار لم يُقْضَ في شأنهم إلا هؤلاء البقيَّة من المؤمنين الذين سيشْفَع لهم أصحابُ الأعراف، ويأْذَنُون لهم بدخول الجنة.

وأصحاب الأعراف من الأنبياء يُنَادُون هؤلاء البقيَّةَ من المؤمنين ويُطمئنونهم بقولهم: (سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ)، أيْ لا خوف عليكم، في إشارة إلى أنهم سيدخلون الجنة، وأنّ تأخّرهم في الدخول، وتأخّر القضاء في شأنهم، جعلهم يطمعون أنْ يدخلوها.

وهؤلاء البقيَّة من المؤمنين الذين تأخّروا ولم يأذن الله تعالى لهم بدخول الجنة، هم في خوف وتوجّس، خاصّة عندما تُصْرَف أبصارُهم نحو النار ومَنْ فيها من الكافرين، فيشعرون بالخطر والخوف ويتوجّهون إلى الله بالدعاء أنْ لا يجعلهم مع القوم الظالمين: (وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ).

ويبدو من الآيات أنّه لم يبْقَ أحدٌ من البشر خارج الجنة وخارج النار غير هؤلاء البقية من المؤمنين، وأنهم آخر مَن يُقضَى في شأنهم، وأنهم هم الذين سيَشْفَع لهم أصحابُ الأعراف بإذن من الله تعالى.

فمَن هؤلاء؟

لا بُدّ أنْ يكون هؤلاء قد أرْجَأَهم الله تعالى وأخّرهم، وأرْجَأَ القضاء في شأنهم لأمره سبحانه، وهو ما نجده ظاهرًا بيّنًا في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾ {التوبة: 106}، فهم مُرجَوْن لأمر الله تعالى، يتأخّرون عن سائر أهل الجنة في دخولها، يظلّون ينتظرون قضاء الله فيهم.

وقد يكون هذا الإرجاء والتأخير لاستواء حسناتهم وسيئاتهم، فلا تُثْقِلُ موازينَهم حسناتٌ، ولا تَخِفُّ موازينُهم بسيئات، فاستحقّوا الإرجاء والتأخير.

وقد يكون إرجاؤهم لاختلاط أعمالهم الصالحة والسيئة كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ {التوبة: 102}.

لكنّ قوله تعالى: (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ) فيه إشارة إلى أنّ مصيرهم سيكون المغفرة والرحمة ودخول الجنة.

الشـفاعة:

لقد منح الله تعالى أصحاب الأعراف من الأنبياء صلاحياتٍ لم يمنحها لغيرهم من المؤمنين، وهذه الصلاحيات تُؤهّلهم لأنْ يشفَعُوا عند الله تعالى للبقيّة المؤمنة الذين تأخّروا في دخول الجنة، وهم في الوقت ذاته مؤهّلون لمخاطبة الكافرين من أصحاب النار، وتقريعهم وهم في النار، وتذكيرهم بما كانوا يستكبرون به في الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ {الأعراف: 49-50}، فأصحاب الأعراف في الآيات ينادُون رجالًا من أصحاب النار الذين كانوا يستكبرون في الدنيا، ويعرفونهم بصفاتهم وعلاماتهم وسيماهم، ويقرّعُونهم قائلين لهم: (مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ)، فها أنتم تحترقون في نار جهنم ولا ينفعكم سلطانُكم، ولا جمعُكم، ولا قوتُكم، ولا مالُكم، فلم يعُدْ لكم شيءٌ من هذا، وفي هذا تبكيت من أصحاب الأعراف لهم، وزيادة في عذابهم.

ويبدو من السياق أنّ هؤلاء المستكبرين من السادة والزعماء والكبراء كانوا في الدنيا يمارسون الظلم والطغيان في الأرض، وكانوا يَتَألَّوْن ويُقسِمون على الله تعالى ويفتئتون عليه، ويقولون عن فئة من المؤمنين: لن ينالهم الله برحمة، ولن يكونوا مِن أصحاب الجنة، وأنهم سيكونون معنا في نفس المصير، فيُوجّه أصحاب الأعراف من الأنبياء السؤال لهم: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ)؟ وفي قولهم: (أَهَٰٓؤُلَآءِ) إشارة إلى المؤمنين الذين تأخّروا في دخول الجنة، ولم يُقْضَ في شأنهم بعد، أيْ: أهؤلاء المؤمنون الذين ترَوْنهم قد تأخّروا في دخول الجنة هم مَنْ كنتم تزعمون أنهم لن ينالهم الله برحمة؟ وأنهم لن يدخلوا الجنة؟

وفي هذه اللحظة يأذن الله تعالى لأصحاب الأعراف من الأنبياء بأنْ يشفعوا لهؤلاء المؤمنين الذين لم يدخلوا الجنة، ويقولون لهم: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ).

الخلاصة:

بعد أنْ يَقضي الله تعالى في شأن أصحاب النار من الكافرين فإنهم يُسَاقُون إلى نار جهنم زُمرًا، ولا يبقى أحدٌ منهم إلا وقد دخل النار: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ {الزمر: 71}.

ثُمّ يَقضي الله تعالى في شأن أصحاب الجنة من المُتقين فيُساقون إلى الجنة زُمرًا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ {الزمر: 73}.

لكنه يبقى من أصحاب الجنة بَقِيةٌ يُؤخّر الله تعالى القضاء في شأنهم، حيث خَلَطُوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وتساوت حسناتهم وسيئاتهم.

ثم يُهيئ الله تعالى في الجنة (أعرافًا) يراها الجميع لارتفاعها، وهي أماكن عالية ومرتفعة يجعل الله تعالى عليها رجالًا لهم صلاحيات مخاطبة أصحاب الجنة الذين لم يدخلوا الجنة، ومخاطبة أصحاب النار الذين دخلوا النار، ويخصُّ الله تعالى هؤلاء الرجال بالشفاعة لهؤلاء البَقيّة المؤمنين الذين تأخّروا في دخول الجنة.

والرجال الذين يجعلهم الله تعالى على الأعراف في الجنة هم الأنبياء، وهم أعلى أهل الجنة منزلة، وأرفعهم مقامًا، حيث يُخاطِبون أصحابَ الجنة الذين تأخّر القضاء في شأنهم، ويبادرونهم بإلقاء السلام عليهم، ويقولون لهم: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ).

وهؤلاء البقية من المؤمنين الذين تأخّر القضاء في شأنهم كان المستكبرون من أصحاب النار يُقسمون في الدنيا على أنهم لن ينالهم الله

تعالى برحمة، فَيُقرّعُهم أصحابُ الأعراف من الأنبياء قائلين: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ)؟، ثم يقولون للمؤمنين على مسمعٍ منهم: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ).

فبأيِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان

المشهور في كتب التفسير أنّ المُراد بقول الله تعالى: (ءَالَآءِ رَبِّكُمَا) أي النِّعَم التي أنعم الله تعالى بها على الناس، ولكننا عندما نرجع إلى السياقات القرآنية المختلفة التي وردت فيها كلمة: (ءَالَآءِ) نجد أنّ هذا المعنى بعيد، ولا تحتمله هذه السياقات.

وسنعرض فيما يلي بعض السياقات التي وردت فيها كلمة: (ءَالَآءِ)، والتي يمكننا من خلالها الوقوف على المُراد الحقيقي بهذه المفردة القرآنية، والتي لا تدل على معنى النِّعَم، بل ربما دلّت في بعض السياقات على معنى النِّقَم والعقوبة.

1. يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ {النجم: } 56-50

والآيات السابقة تتحدث عن قدرة الله تعالى في إهلاك ومعاقبة الأقوام السابقين من المكذبين والكافرين، مثل: عاد الأولى، وثمود، وقوم نوح، والمؤتفكة، ثم تأتي الآية: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) بصيغة الاستفهام الإنكاري للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث تنهاه عن ممارة

الكافرين الذين يكذّبون بالله تعالى وبقدرته وقوته، ويظنّون أنّ عقاب الله تعالى بعيد عنهم.

وفي قوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) إشارة إلى قوة الله تعالى وقدرته، وأنه صاحب الآلاء وهي القوة والقدرة والأخذ الشديد، ولا تشير الآية إلى النِّعَم كما يمكن أنْ يخطر ببال البعض، بل إنها تتحدث عن النِّقَم التي حلَّت بهؤلاء الأقوام المكذبين.

والذي يمكن أنْ نفهمه من سياق الآيات السابقة أنّ المُراد بقوله تعالى: (ءَالَآءِ رَبِّكَ) هو قوة ربك وطلاقة قدرته، وفعله المُعجِز غير المردود، وليس النِّعم.

2. قول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {الرحمن: 28-26}، ولا يُفهم من الآيات أنها تتحدث عن نِعَم يمُنّ الله بها على الناس، بل إنّ الآيات تتحدث عن قوة الله تعالى وقدرته على إفناء كل مَن على الأرض، وأنّ البشر لا يملكون شيئًا، وأنهم سيحُلّ بهم هذا الإفناء، وأنه لن يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

والحديث عن إفناء مَن على الأرض لا يأتي في سياق إنعام الله تعالى على الناس، ولكنه يأتي في سياق إظهار قدرة الله المطلقة، وقوته،

وأنه وحده هو إله وربّ هذا الكون، وأنّ كلمة: (ءَالَآءِ) لا تعني النِّعم، ولكنها تعني: القوة، والقدرة، والأفعال التي لا يقوى عليها إلا الله تعالى.

3. يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ {الرحمن: 29-30}، والآية تتحدث عن قوة الله تعالى، وقدرته، وعظمته، وأنه تعالى كل يوم هو في شأن، يرفع أقوامًا ويخفض آخرين، ويُعز ويُذل، ويغني ويُفقر، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

ولا تدل كلمة: (ءَالَآءِ) هنا على معنى الإنعام والنِّعَم، بل على قدرة الله المطلقة، وهيمنته على خلقه، وقوته التي لا تدانيها قوة.

4. يقول الله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {الرحمن: 31-32}، وفي الآية وعيد من الله تعالى للمجرمين من الجنّ والإنس الذين كانوا في الدنيا يستكبرون عن آيات الله تعالى، ويكذبون بها، وليس فيها أيّ إشارة إلى معنى النِّعم في كلمة: (ءَالَآءِ)، بل إنها تشير إلى معنى قوة الله تعالى وقدرته، وأنه سبحانه سيُحاسب الجنّ والإنس، فيكافئ المُحسن منهم، ويعاقب المُسيء.

5. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {الرحمن: 33-36}.

والآيات تتحدى الكافرين، وتخبرهم بأنهم لن يستطيعوا الإفلات من موقف العذاب يوم القيامة، وها هي أقطار السموات والأرض أمامهم فلينفذوا منها فرارًا من مصيرهم، ولكنهم لن يستطيعوا النفاذ إلا بسلطان لا يملكونه، ولا ينبغي لهم، وإنهم إنْ حاولوا فعلًا أنْ ينفذوا، فإنّ في انتظارهم الشّواظ من النار والنحاس يرسلها الله تعالى عليهم فلا ينتصران، وسيكون مصيرهم العذاب في نار جهنم.

ولا يُفهم من قوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أنّ كلمة: (ءَالَآءِ) تعني النِّعَم التي أنعم الله تعالى بها على الناس، فالسياق هنا سياق تهديد ووعيد، وسياق حديث عن العذاب الذي ينتظر المجرمين من الجنّ والإنس يوم القيامة، مع ما فيه من قوة الله تعالى التي لا تشبهها قوة، وما فيه من قدرة الله المطلقة على محاسبة المجرمين وعقابهم.

6. يقول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {الرحمن: 38-40}، فالآيات تتحدث عن يوم القيامة حيث تنشق السماء، ويتحول لونها إلى اللون الأحمر، ولا يُسأل الناس عن ذنوبهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

{القصص: 78}، فكل ذنوبهم ثابته وموثَّقة عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وليس في الآيات السابقة حديث عن النِّعَم التي أنعم الله بها على الناس، ولكنها تتحدث عمّا ينتظر المجرمين من الحساب والعقاب، وتتحدث عن قوة الله وقدرته المطلقة في شقّ السماء وتغيير الكون: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ {إبراهيم: 48}.

والذي يُفهم من قوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أنّ الآلاء هنا هي قوة الله تعالى وعظمته وقدرته المطلقة، وهيمنته على كل الخلائق.

7. قول الله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {الرحمن: 41-45}، وهي آيات تتحدث عن عذاب المجرمين الذين يؤخذون بالنواصي والأقدام، ويُدَعُّون في نار جهنم دعًّا، ويطوفون بين النار وبين الماء المغلي الشديد الحرارة.

وليس في الآيات حديث عن النِّعَم التي يُنعِم الله بها على الناس، بل إنّ الحديث فيها عن النِّقَم التي تلحق بالكافرين يوم القيامة، وقوله

تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيه إشارة إلى قدرة الله تعالى وقوته وهيمنته على الخلائق، وهي المُراد من كلمة: (ءَالَآءِ).

ومن الأمثلة والسياقات القرآنية السابقة يتبيّن لنا أنّ كلمة (ءَالَآءِ) والتي مفردها: ألْو، وأَلَى، وإلى، وأَلْي، وإلْي، تعني القدرة، والقوة، والفِعل المُعجِز غير المردود.

والتكرار لقوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في سورة الرحمن إنما يُشير إلى الآلاء والفِعال المُعجِزة التي سبق ذكرها، فالله تعالى يُعدّد على الناس آلاءه وقدرته وقوته وفِعَاله المُعجِزة غير المردودة، والمنبثقة من أسمائه الحسنى، ثم في كل مرة يستخرج منهم الإقرار بهذه الآلاء قائلًا لهم: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)؟، فكل تكرار يتناسب مع السياق الذي جاء فيه، ويعود على ما سبقه من آلاء وقوة وقدرة وهيمنة.

ويُستأنس في فهم المُراد بكلمة: (آلاء) بما جاء في لسان العرب على لسان (مَيَّةَ بنتِ ضِرار) وهي ترثي أخاها:

كَريـــــمٍ ثَنـــــاهُ، وَآلَاؤُهُ، وَكَافِي العَشيرةِ مَا غالَها
تَراه عَلَى الخَيْلِ ذَا قُدْمَةٍ، إِذَا سَرْبَلَ الدَّمُ أَكْفَـــالَها

والمقصود بقولها: (وآلاؤه): أيْ صفاتُه المحمودة، وفِعالُه الكريمة من القوة، والشجاعة، والإقدام، والحماية لعشيرته وقومه من كل ما يَدْهمُهم من الأخطار.

المحتويات


DAR - AL ARKAM LIBRARY
مكتبة دار الأرقم
مكتبة ومطبعة دار الأرقم
082821075